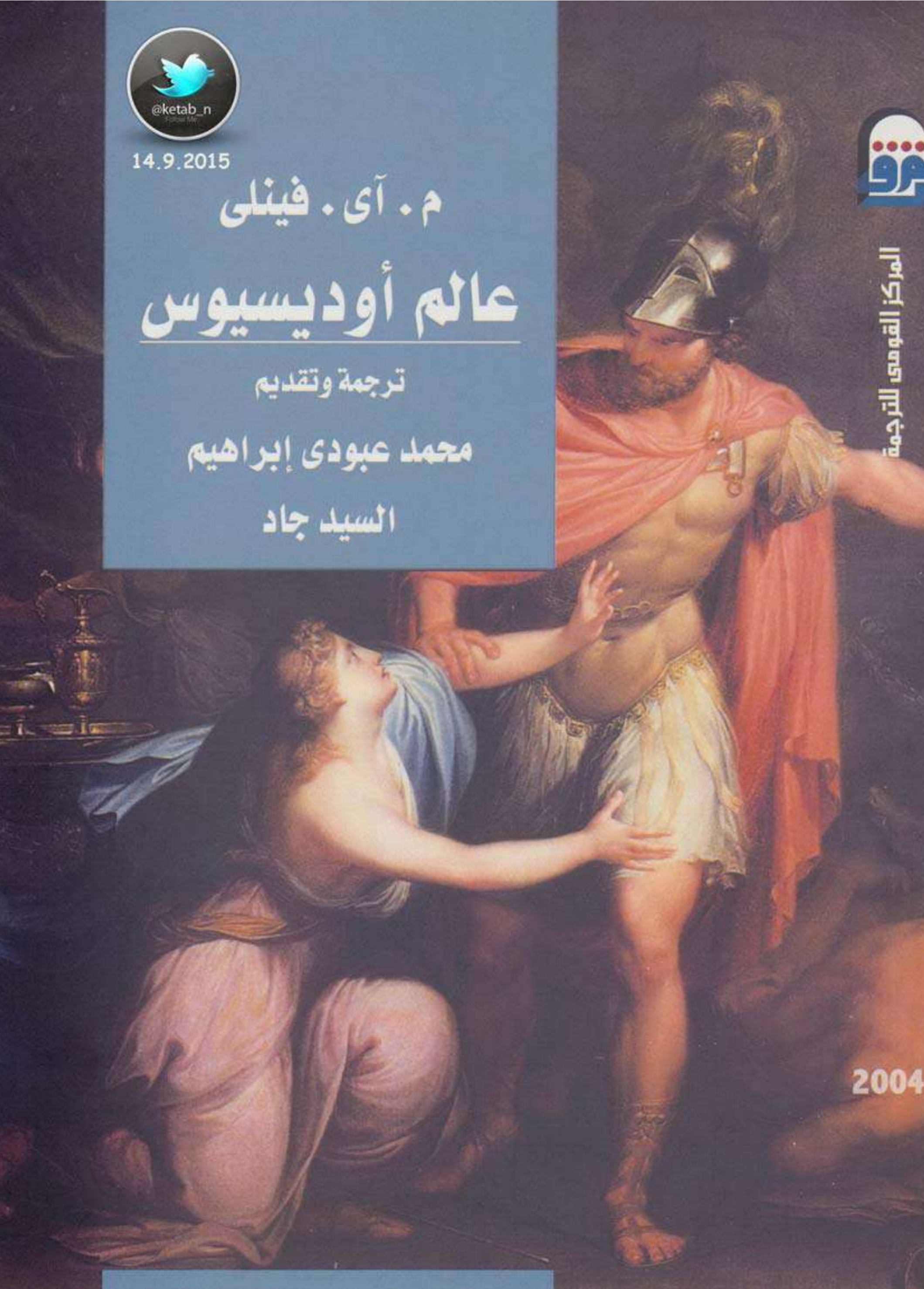

@ketab_n
14.9.2015
م . آى . فينلى
عالم أوديسيوس
ترجمة وتقديم
محمد عبودى إبراهيم
السيد جاد
المركز القومى للترجمة
2004

عَالَمُ أودِيسيوسْ

تـــــــأليف : م. آى. فينلـــــــــــى

ترجمة وتقديم

محمـــــــد عبــــــودى إبــــــراهيم

الـــــــــسيد جـــــــــاد



2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2004
- عالم أوديسيوس
- م. آي. فينلى
- محمد عبودى إبراهيم، والسيد جاد
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

The World of Odysseus

By: M. I. Finley

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فينلى، م.اى .

عالم أوديسيوس/ تأليف: م . أى . فينلى؛ ترجمة وتقديم: محمد

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

إهداء الترجمة

إلى كل محبٍّ للحضـارة اليونانية

وإلى كل عاشقٍ لهوميروس

المحتويات

تقديم

هذه الترجمة ثمرة جهد مشترك ترجع فكرته إلى لقاء جمعنا في إحدى نـدوات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة. حيث انتقل الحديث بنا وقتها عن الترجمة والمترجمين إلى الحديث عن مؤلف هذا الكتاب وعن الكتاب ذاته. ومن الطريف أننا لم نـستغرق وقتًا طويلاً في الاتفاق على ترجمته، ولا في تحديد الأجزاء التي سـيتولى كـل منـا ترجمتها. لقد التقت رغبة أستاذي الدكتور محمد عبودي إبراهيم في ترجمة الكتاب منذ زمن طويل مع إعجاب خاصٍ أُكِنُّه لكتابات فينلي، فكانت الترجمة التي بين أيدينا الآن. إننا نأمل أن يشاركنا القارئ التقدير للعمل الذي بين أيدينا، وأن يجد في هذه الترجمـة من المتعة والفائدة ما يعوضه عن الجهد والوقت الذي يقضيه في مطالعة صفحاتها.

يجب أن نذكر كذلك أن الترجمة خضعت لبعض التعديلات القليلة، فيمـا يتعلـق بإخراج الكتاب. فمن ناحية وُضعت الحواشي في أسفل الصفحات بدلاً من وضعها فـي نهاية الكتاب تيسيرًا على القارئ؛ وأننا ميزنا بينها وبـين الحواشـي التـي أضـفناها لتوضيح بعض النقاط بشكل يسهل أيضًا التعرف عليه. كذلك فـإن هـذه الترجمـة لا تشتمل على فهرس الإشارات المصدرية ولا على فهرس الأسماء والأماكن، الموجودين

فى الكتاب الأصلىّ؛ وهو ما نأمل أن نتداركه فى طبعة مقبلة إن شاء الله تعالى. وفيما يتعلق بالأسماء اليونانية فقد حاولنا تنظيرها حرفيًا بالقدر الذى يقترب بها بقدر الإمكان من نطقها اليونانىّ القديم، وسجلنا مع ذلك إلى جوارها الصيغة اللاتينية المألوفة تيسيرًا على القارئ غير المتخصص. يتبقى فقط أن نذكر أن ترجمة الفصول الثلاثة الأولى هى للأستاذ الدكتور محمد عبودى، وأن ترجمة الفصلين الأخيرين هما للمترجم الثانى.

المترجمان، الإسكندرية، ٢٠١٠م.

تمهيد

مارك فان دورين Mark Van Doren

قَدَّمَ السيد/ فينلى (Finley) خدمة لقراء هوميروس (Homer) نستطيع أن نفيها حقها على أكمل وجه عندما نشير إلى تواضعها وإلى حدودها. إنها خدمة جليلة، ولكن السيد/ فينلى لا يدَّعى فى أى مكان أنه يفعل أكثر مما وعد به، وهو أن يحدد معالم المجتمع البشرىّ الذى تخيل هوميروس أن أبطاله يشكلون جزءًا منه. من الضرورىّ أن ندرك مثل هذه الأمور عندما نقرأ قصصًا عن أيام أخرى غير أيامنا التى نعيش فيها؛ بمعنى أنه من الضرورىّ أن ندرك الدوافع والأخلاق التى تختلف، سواءً فى نوعيتها أو فى درجتها، عن الدوافع والأخلاق التى نفترض وجودها بين أجيالنا المعاصرة. ومع ذلك، فإننا يمكن أن ننساق بعيدًا بواسطة فئة من الباحثين الذين يتولون أمر هذه المهمة وهم يفترضون بداهة أننا لن نستطيع أن نفهم القصة على الإطلاق، أو أننا لن نستشعر قوتها بدون مساعدتهم. إن لدى السيد/ فينلى العلم بدون الفخر. إنه لا يرتكب أبدًا خطأ افتراض أن أعظم راوٍ للقصص لدينا اهتم بمجموعة من الدوافع والقيم التى يستطيع علم الآثار وحده أن يفسرها بمصطلحات مفهومة. إنه يعرف أن هوميروس ما كان ليظل أعظم شعرائنا على الإطلاق، لو كان هذا الأمر حقيقيًا. كذلك

فإنه يعرف أن أوديسيوس (Odysseus) وأخيلِّيوس (Achilles) كانا مختلفين عنا من حيث الدرجة، وليس النوع؛ وأنهما كانا ولا يزالان رجالاً مختلفين، ومع ذلك فإن باستطاعتنا أن نفهمهما؛ وأن ندرك أنه كان يوجد فيهما دائمًا، وفى حقيقة الأمر، هذا العنصر من الغرابة الذى نبحث عنه فى أبطال القصص - حتى القصص المعاصر منها، بالإضافة إلى ذلك العنصر الآخر من الألفة التى بدونها يتحول كل من البطلين إلى وحش أو خيميرا (Chimera).(*) لقد تعامل السيد/ فينلى مع الغرابة بأسلوب لا يقلل من الألفة ولا يذهب بها بعيدًا. إن مهمته الأولى هى مع جوانب الاختلاف، ومعه كل الحق فى ذلك، ولكنه لا يتشكك أبدًا فى التشابه، حيث تتضح جوانب العظمة.

إن السيد/ فينلى يُذَكِّرُنا أن هوميروس - مثل شيكسبير (Shakespeare) بعده - أطلق لخياله العنان فى عالم كان يسبق عالمه، وإن كان يُشكل فى كافة الأحوال امتدادًا له. لقد أعاد شكسبير فى مسرحياته التاريخية، سواءً أكانت تلك مسرحيات تاريخية إنجليزية أم رومانية، أعاد تشكيل مجتمع غابر على الرغم من أنه كان مرئيًا أيضًا: مجتمعٍ مشابه، ومختلفٍ فى الوقت ذاته، لمجتمع الملكة إليزابيث (Elizabeth The Queen). لقد كان باستطاعة أى شاعرٍ أدنى مرتبة أن يقيد نفسه بجوانب الاختلاف، وستطويه سريعًا عندئذٍ صفحات النسيان. ولكن فالشتاف (Falshtaff) يتصف بكونه بعيدًا جدًا وفى متناول اليد فى الوقت ذاته، تمامًا مثل ريتشارد الثانى (Richard II)،

(*) الـ "خيميرا" فى الأساطير اليونانية هى كائن أسطورىّ له جسم أنثى الماعز ورأس أسد تخرج من فمه النار وذيل ثعبان، انظر: Kathleen N. Daly, *Greek and Roman Mythology A to Z,* revised by Marian Rengel, 3rd edition, Chelser House Publishers, New York, 2009, 34. [المترجم].

وكذلك بولينجبروك (Bolingbroke).(*) وربما -كما اقترح بعض الدارسين- أن شيئًا من هذا القبيل يمكن أن ينطبق على أىّ شاعرٍ يأمل فى أن يحافظ على شهرته؛ والأمر ينطبق بالقدر ذاته من الصحة عندما يتعاملْ هذا الشاعر مع أنماط من الشخصيات المعاصرة، مثل الجندىّ والشرطىّ السرىّ والسياسىّ وسيدة المتعة، أو السيدة الحقيقية. إن قصة تولستوى (Tolstoi) الحرب والسلام (War and Peace) تعود فقط جيلاً واحدًا إلى الوراء، أو جيلين على أكثر تقدير، إلى عصر الروستوفيين (Rostóvs) أو البولكونسكيين (Bolkónskis) الذين كانوا فى بعض الحالات يشكلون أجداد المؤلف ذاته. ولكن، ماذا أصبح هؤلاء الأجداد فى يد تولستوى؟ لقد تحولوا إلى مجتمع بعيد يمكن التعرف عليه، يجمع بين الرومانسية والواقعية: تحولوا إلى "أشكال مستديرة" يمكننا النظر إليها من جميع جوانبها، وربما لا توجد وسيلة أخرى لجعلهم يظهرون بهذه الكيفية.

ولكن يتبقى عندئذٍ فن رواية القصة، وهو فن لم تتغير قواعده أبدًا. إن النظرة الصحيحة للماضى أو حتى للحاضر، أو لكليهما معًا فى نهاية المطاف، لا تكفى فى حدّ ذاتها. إن التناسب والنظام والتعاطف والتأكيد والإثارة، بغضّ النظر عن العُصر الذى يعيش فيه الشاعر أو الذى يكتب عنه، كلها أمور يجب عليه أن يتقنها. وكان هوميروس شاعرًا فذًا فى هذه الأمور. ولا يُخفى السيد/ فينلى أبدًا هذه الحقيقة الواضحة. ومن المدهش كيف أن قصصًا قليلة قد رويت بهذا القدر من الكمال الذى رويت به أعمال هوميروس، ونحن نعرف الكيفية التى رويت بها، وربما كان هذا هو

(*) هذه كلها شخصيات مهمة فى مسرحيات شكسبير. [المترجم].

أول وآخر شيء يجب أن يقال عنه. إنه أفضل شاعرٍ لأنه أول أفضل فنان. وربما أننا ندين هنا أيضًا للسيد/ فينلى بالشكر لأنه لا يفترض أبدًا فى أىّ جزءٍ من أجزاء كتابه أننا نجهل هذه الحقيقة، أو أننا، بوصفنا قراءً محايدين وعاديين، لا نتصف بكوننا قضاةً أكفاء، كما هو حالنا بطبيعة الحال. إننا الأشخاص الوحيدون، كما يقال، الذين نعرف إلى حدٍّ كبير ما إذا كنا مهتمين ونحن نقرأ، أو غير مهتمين. هكذا كان الحال مع أجيال عديدة سبقتنا، وهكذا سيكون الحال مع الأجيال التى تلينا.

إن ما يأمل السيد/ فينلى أن يجنبنا الوقوع فيه هو ما يمكن أن ينجم عن توقعنا أن يتصرف أبطال هوميروس تمامًا كما نظن أننا يجب أن نتصرف لو كنا فى ظروف مشابهة، أو أن نفعل الأمور ذاتها التى سيفعلونها هم. إن هناك بعض الأمور المتعلقة بعالم هوميروس، عالم هوميروس الخاص، التى يَعتَقد فينلى أنه يحسن بنا معرفتها؛ حتى لا نتهم هوميروس بأنه غير عادل، وحتى لا نظن أنه مجرد شخص غريب. إنه يخبرنا هذه الأشياء بأقصى درجة من الوضوح وبأرقى درجة من الإحساس الجيد. لقد كان العالم عندئذٍ أرستقراطيًا، على سبيل المثال، مثل عالم شكسبير ومثل عالم تولستوى فى "الحرب والسلام" على الرغم من أنه لم يكن بطبيعة الحال كذلك فى الحكايات المتأخرة عن الحرفيين والمزارعين. وكان عالمًا له وجهة نظره الخاصة تجاه الضيافة؛ وكان عالمًا تشبه آلهته البشر أكثر مما حدث فى أى مكان وزمان. وكان عالمًا يقتصر تمامًا أو يكاد يقتصر تمامًا على المحاربين والملوك، عالمًا لا حساب فيه لأشياء سوى الثروة والقوة والشرف. وكان عالمًا يقتصر بشكل أساسىّ على الرجال، وليس عالم النساء أو الأطفال. وكان عالمًا تسوده الحروب، بما يتضمنه

عالم الحروب من عبيد وأسرى حرب وبما يشتمل عليه من رؤساءٍ وأربـــاب الأســـر. هذه الأشياء يجعلها السيد/ فينلى واضحة بصورة ممتازة، وبعدئذٍ يتركنا، بعد أن زودنا بالقواعد والضوابط، مع شاعر يقدم لنا من الروائع ما يمكن لخيالاتنا أنفسنا أن تـــشعر فيه بأنها في بيتها. وهذا هو آخر العجائب؛ كما أدرك اليونانيون فى خلال قرن بعـــد وفاة هوميروس، وكما أدرك كافة القراء منذ ذلك التاريخ، أيًا كان القـــرن أو المجتمـــع الذى تصادف أن ولدوا فيه.

الفصل الأول

هوميروس والإغريق

"بالاتفاق العام بين النقاد،" كتب الدكتور جونسون (Johnson)، "يُعزى الامتداح الأول للعبقرية إلى كاتب ملحمة شعرية؛ لأنها تتطلب تجميع كل القوى التى تكون الواحدة منها كافية بمفردها لمؤلفات أخرى." وكان جونسون يفكر حينذاك فى جون ميلتون (John Milton)، وختم ترجمته لحياة الشاعر الإنجليزى بهذه الكلمات: "إن عمله ليس أعظم الأشعار البطولية؛ لأنه فقط ليس أولها." فهذا اللقب اقتصر طوال الوقت على هوميروس (Homer)، الذى أطلق عليه الإغريق ببساطة لقب "الشاعر".

فلم يشغل شاعر آخر ولا أية شخصية أدبية أخرى، فى حياة قومه، مكانة مثلما فعل هوميروس. لقد كان بالنسبة لهم رمزًا بارزًا لقوميتهم، وكان مرجعًا لا يجارى بالنسبة لتاريخهم المبكر، وشخصًا مؤثرًا فى تشكيل مجلس الآلهة لديهم، كذلك كان أحب الشعراء إليهم وأكثرهم عرضة للاقتباس. يقول أفلاطون (Plato) إنه كان هناك إغريق يؤمنون بشدة أن هوميروس: "علَّمَ اليونان وأنه يستحق أن يُتَخَذَ مرشدًا فى إدارة شئون الناس وثقافتهم، وأن المرء ينبغى عليه تنظيم كافة شئون حياته مقتديًا بهذا الشاعر."[1] وفى مواجهة هذا الحُكم –ومن أول نظرة على الإلياذة والأوديسية– يتوقع الواحدُ منا مطالعة كتاب مقدس (Bible) أو مؤلف فلسفي عظيم، فقط ليجد أمامه مجرد قصيدتين شعريتين طويلتين، الأولى مكرسة لأيام قليلة من السنة العاشرة للحرب التى دارت رحاها بين الإغريق من جهة والطرواديين من جهة أخرى، بينما تتناول القصيدة الأخرى متاعب العودة إلى أرض الوطن للبطل أوديسيوس (Odysseus) (الذى أطلق عليه الرومان عوليس (Ulysses)).

---

(١) Plato, Republic 606E.

هوميروس هو اسم ذلك الرجل، وليس المقابل الإغريقيّ "لشاعر مجهول"، وهذه هي الحقيقة المؤكدة بشأنه. مَنْ كان هذا الرجل وأين عاش، ومتى صاغ شعره؟ هذه الأسئلة لا نستطيع أن نجيب عليها إجابة مؤكدة، بأكثر مما كان باستطاعة الإغريق أنفسهم أن يفعلوه. وفي الحقيقة، من المحتمل أن تكون الإلياذة والأوديسية اللتين نقرأهما عملين لرجلين اثنين، وليستا عملين لفرد واحد. كذلك فإنهما تتصدران الأعمال الأدبية الإغريقية الموجودة لدينا، ومن ثَمَّ الأدب الأوروبيّ، جنبًا إلى جنب مع كتابات هيسيودوس (Hesiod)، الذي عاش في وسط بلاد اليونان في المنطقة المسماة بويوتيه (Boeotia). ويرى الدارسون المُحْدَثُون أن الإلياذة بكل تأكيد، والأوديسية على وجه الاحتمال، لم تُصاغا على أرض اليونان الأصلية، ولكن على واحدة من الجزر الموجودة في بحر إيجه، أو أبعد من ذلك شرقًا، على شبه جزيرة آسيا الصغرى (تركيا الحالية). ويرون كذلك أن الفترة الزمنية الممتدة بين عامي ٧٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد كانت الفترة التي شهدت ظهور هذا العمل الأدبيّ المبكر.

وبالنسبة للمرحلة التاريخية الطويلة التي تسبق هوميروس وهيسيودوس، لا يوجد سوى الدليل الصامت المتمثل في الأحجار والفخار والأدوات المعدنية التي استخرجها الأثريون من باطن الأرض. وقد أوضح التحليل المعقد للمخلفات وأسماء الأماكن أن السكان الذين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية– وإن كانوا لا يعرفون الكتابة– ظهروا على مسرح الأحداث حواليّ ألفين قبل الميلاد. إننا لا نعرف من أين أتوا أساسًا. وفي أيام أفلاطون –بعد مرور حواليّ ألف وخمسمائة عام على ذلك التاريخ– كان هؤلاء السكان متناثرين فوق أراضٍ شاسعة تمتد من مدينة ترابيزون (Trabezon) بالقرب من الطرف الشرقيّ للبحر الأسود حتى شواطئ البحر المتوسط عند فرنسا وشمال أفريقيه، وربما أن عددهم بلغ خمسة أو ستة ملايين نسمة. هؤلاء المهاجرون لم يكونوا السكان الأوائل لليونان، على أية حال، ولم يكونوا قد وفدوا كغزاة ذوي مدنية عالية طغت على قبائل همجية. لقد اكتشف

الأثريون دليلاً كافيًا على وجود حضارات متقدمة نسبيًا سبقت مجيء الإغريق، يمكن تتبع بعضه إلى العصر الحجريّ قبل ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. وعلى العموم، كان مستوى التطور الاجتماعيّ والماديّ فى المنطقة أسمى بكثير من مستوى تطور الوافدين. وعندما وصل الشعب الذى كانت لغته الإغريقية، لم يأت فى هجرة جماعية واحدة، ولا كقطيع كاسح مدمر، ولا كحملة هائلة عبر الأراضى الجليدية الوعرة فى شمال اليونان، وليس كهجرة استيطانية منظمة، بل أتى على الأرجح فى عملية تسلل استغرقت حواليّ ألف عام.

ويلعب العقل الإنسانيّ حيلاً غريبة حيال المناظير الزمنية عندما يؤخذ الماضى البعيد فى الاعتبار: فالقرون تصير سنوات، والآلاف عقودًا. ويتطلب الأمر جهدًا واعيًا لعمل التصحيح الضروريّ، ولتقدير أن التسلل عبر العقود العديدة لن يبدو على الإطلاق للمشاركين فيه حركة واحدة متصلة؛ وبمعنى آخر، أنه لم تكن على الأرجح لدى الإغريق ولا السكان الأصليين الذين وفد هؤلاء إلى أراضيهم أدنى فكرة عن أن شيئًا ضخمًا وتاريخيًا يأخذ مجراه. وبدلاً من ذلك شاهدوا أحداثًا فردية، مرة مسالمة ولا تستحق الاهتمام بأية حال، ومرة أخرى مثيرة للمتاعب، بل وحتى مدمرة بشكل عنيف للأنفس ولوسائل العيش. لقد كانت هذه قرونًا من الامتزاج التام من الناحيتين البيولوجية والثقافية. وهناك ذكريات واضحة للوضع فى الأوديسية، عندما يقول أوديسّيوس وهو يخلط الأسماء الإغريقية بالمحلية معًا: "هناك أرض اسمها كريت، فى وسط البحر الداكن مثل الخمر... وفيها أناس كثيرون فوق الحصر وتسعون مدينة. وهناك خليط من الألسنة، وهناك آخيون، وإتيوكريتيون شجعان، وكيدونيون، ودوريون ذوو شعور مموجة، وبِلاسجيون من ذوى الشهرة."(٢) وتوضح البقايا العظمية الهيكلية الامتزاج البشرى؛ وتزودنا اللغة والعقيدة بالدليل الرئيسيّ فيما يتعلق بالامتزاج الثقافيّ. والمنتج النهائيّ، بعد ألف سنة أو نحوها، كان الشعب التاريخيّ الذى نسميه

(٢) Odyssey 19.172-77.

الإغريق. وبمعنى واضح، لم يكن المهاجرون الأصليون إغريقًا، بل شعبًا يتحدث الإغريقية، وكان مقدرًا لهم أن يصيروا عنصرًا في التركيبة المتأخرة التي يمكن لها أن تطالب بحق بالاسم. ويزودنا الأنجلوسكسونيون في بريطانيا بمثال مناسب للمقارنة: إنهم لم يكونوا إنجليزًا ولكنهم قدر لهم أن يصبحوا في يومٍ من الأيام كذلك.

لقد احتاج الإغريق إلى أكثر من ألف عام لكي يكتسبوا اسمًا خاصًا بهم؛ ولديهم اليوم اسمان. ففي لغتهم هُمْ يُعْرَفون بـ: الهللينيين (Hellenes)، وتعرف بلادهم بـ: هيلاس (Hellas)، أما الإغريق (Graeci) فهو الاسم الذي أطلقه عليهم الرومان، وهو الاسم الذي اتفق الأوروبيون بعد ذلك على استخدامه. وفي العصور القديمة، أضف إلى ذلك، زاد جيرانهم الشرقيون اسمًا ثالثًا ليطلقوه عليهم، وهو الإيونيون (Ionians) المقابل للـ: يافونيس (Iavones) الموجود في العهد القديم.(*) كل هذه الأسماء متأخرة لأننا لا نجد أيًا منها في هوميروس. إنه يسمي شعبه الآرجيون، ويسميهم الداناتيون، وإن كان يستخدم باستمرار أكثر اسم "الآخيون". والآن، فإن الآخيين يظهرون، وهذا ما يحدث، في المصادر غير الإغريقية في وقت مبكر نوعًا ما. ففي السجلات الحيثية الضخمة المكتشفة في بوغاز كيوي (Boghaz-Keui) في وسط شمال تركيا توجد، في الفترة ما بين عام ١٣٦٥ و ١٢٠٠ قبل الميلاد إشارات عديدة إلى مملكة تسمى بالحيثية "أخيًاڤا" (Achchiyava)، وكان أحد حكامها يدعى أتارشياش (Atarshiyash). واعتمادًا على الأسس اللغوية، فإن المنطقي أن نطابق أخيّاڤا على أخايا (Achaia)؛ وربما أتارشياش على أتريوس (Atreus)، الذي هو في القصائد الهوميرية والد أجاممنون (Agamemnon) القائد العام للجيوش، ومينيلاوس (Menelaus) ملك الإسبرطيين وزوج هيلينا (Helen) الطروادية. ولا يمكن أن نحدد بدقة موقع أخياڤا، ولكن

(*) ومن ثم جاء الاسم العربيّ الذي نستخدمه نحن منذ القدم: اليونان. [المترجم].

الاحتمال يجعلها إما جزيرة رودس (Rhodes) أو مكانًا ما على أرض بلاد اليونان الأم، ولكنها كانت، أينما وقعت، مملكة محلية ضمن الرقعة اليونانية بأكملها، وليست شيئًا آخر.

وليس من المفيد أن نفكر في الوقت الذي صارت فيه كلمة "الآخيون" تنطبق على كافة الإغريق، ولا في السبب في ذلك. هل حدث ذلك عام ١٣٥٠ قبل الميلاد؟ ليس ذلك مؤكدًا. إننا نقابل الآخيين مرة ثانية، قرب نهاية القرن التالي، وهم مشاركون مع شعوب أخرى في غارة كبرى، ولكن ليست ناجحة، على مصر. واحتفظ للفرعون مِرنبتاح (Merneptah) بثبت للأسْرَى وبتذكارات الانتصار منقوشة على جدران معبد الكرنك على النيل. ويشير أحد المدخلات إلى الآخيين الذين "نُزعت أيديهم لأنهم كانوا بدون قلفات."(*) لقد كان الختان شائعًا في شرق البحر المتوسط في حين إنه كان غير معروف تمامًا لدى الإغريق في العصور التاريخية. وكان شعب الأخّيافا -الذي بلغ من القوة حدًّا جعله يُغير على مصر والأراضي الحيثية - ومن الواضح أنه في دور التكوين ليصير إغريقيًا- ما يزال غير إغريقيّ بقدر ما هو إغريقيّ. وعندما أصبحت الكلمة المحلية "الآخيين" علَمًا على كل الإغريق، وحتى وإن لم تكن الكلمة الوحيدة الحصرية، وإن ظلت لفترة وجيزة فقط، قبل أن تحلّ محلها كلمة "الهللينيون،" فإن مرحلة التكوين كانت قد انتهت: فالاسم العام يرمز إلى أن تاريخ الإغريق الحقيقيّ كان قد بدأ.(**) وبالنسبة لنا فإن ذلك الأمر يعني الإلياذة.

ولا يمكن أن نجادل في أن تكوين الشعب اليونانيّ والحضارة اليونانية لم يكن عملية مخططة، ولم يكن بأي مفهوم ضيق عملية متعمدة. لقد كانت المحاولة

(*) القلفات هي الأجزاء المبتورة من مقدمة الذكر، رمز الختان. [المترجم].

(**) بعد هوميروس، استمر اسم أخايا واسم آرجوس يستخدمان كأسماء أماكن محلية في جنوب بلاد اليونان، في شبه جزيرة البيلوبونيسوس (Peloponnesus).

والخطأ والتقليد هي الوسائل الرئيسية لدرجة أن معيارًا من التنوع الاجتماعيّ والثقافيّ، اللافت للنظر جدًّا في غالب الأحيان، كان يميز هيللاس في مستهل نشأتها. وبحقّ استمر إيقاع التغيير في التنوع عبر تاريخ اليونان.

وعلى أية حال ظلّ أحد العناصر ثابتًا بشكل ملحوظ طوال الوقت. فاللغة التي أتى بها المهاجرون إلى بلاد اليونان تُعد عضوًا في عائلة اللغات الهندوأوروبية المتعددة، التي تشمل اللغات القديمة في الهند (السانسكريتية) وبلاد فارس والأرمينية والألسنة السلافية وعديدًا من لغات البلطيق (الليتوانية، مثلاً)، والألبانية واللغات الإيطالية (القديمة)، والتي من بينها اللاتينية واللغات الحديثة المنحدرة منها، والمجموعة الكلتية - التي احتفظت منها اللغة الغاللية،(*) ولغة ويلز ببعض حيويتها حتى يومنا هذا - واللغات الجرمانية، ولغات أخرى عديدة اندثرت، كان يُتحدث بها يومًا ما في منطقة البحر المتوسط، مثل اللغة الحيثية (التي أعيد اكتشافها الآن) واللغة الفريجية والإيلليرية.

ولزمن طويل جدًّا، وحتى حواليّ عام ٣٠٠ قبل الميلاد، كانت اليونانية لغة ذات لهجات عدة، لكن الاختلافات بينها كانت بشكل رئيسيّ في أمور النطق والهجاء، وبدرجة أقل في المفردات والتراكيب. وكانت الاختلافات كثيرة، ولكنها ليست بالحجم الذي يجعل المتحدث بلهجة ما غير مفهوم تمامًا من قِبَلِ أناس تربوا على لهجة أخرى، ربما ليس أكثر من مَثَلٍ حديثٍ جدًا لرجل من نابولي قادمٍ إلى فينيسيا. وحتى اللهجة الشعرية المصطنعة للشاعر هوميروس، ذات الأساس الأيوليّ الموضوعة في إطار إيونيّ، بكلماتها وأشكالها الكثيرة المصاغة التي فرضها الوزن، كانت مفهومة بوضوح وبشكل كاف من قِبَلِ غير المتعلمين عبر سائر أرجاء العالم اليونانيّ.

(*) لغة اسكتلندا. [المترجم].

إن التاريخ الدقيق لمعرفة اليونانيين للكتابة ما يزال سرًا مغلقًا فى اللوحات غير المفسرة فى كريت وموكيناى؛ فأحدث الدراسات تقترح تاريخًا يرجع إلى حوالىّ عام ١٤٠٠ قبل الميلاد. وعلى أية حال، فإن النقطة الحاسمة أتت بعد ذلك عندما تبنى الإغريق ما يُسمى بالأبجدية الفينيقية.(*) ومع الرموز جاءت الأسماء الفينيقية للحروف، ولهذا تحولت الكلمات السامية الأصل تمامًا، مثل: "ألف" التى تعنى "ثَور"، و "بيت" التى تعنى "بَيْت"، إلى كلمات يونانية لا معنى لها على الوجه التالى: "ألفا"، "بيتا"، الخ. ولا يمكن لعملية الاقتباس الفعلية أن توصف أو أن تؤرخ بشكل دقيق: إذ تتراوح التخمينات بين عامى ألف و ٧٥٠ قبل الميلاد. والشىء الوحيد المؤكد حول العملية هو خاصيتها المتعمدة والمنطقية؛ لأن المسئول عنها، أيًا كانت هويته، لم يقتصر جهده على مجرد التقليد. إن نسق الترميز الفينيقىّ لم يتم نسخه ببساطة، بل عُدّل جذريًا ليتواءم مع احتياجات اللغة اليونانية التى لا تنتمى البتة إلى الأسرة السامية للغات.

وبعد أن جُهّزوا بهذا الاختراع الرائع الجديد، أصبح اليونانيون عندئذ قادرين على تسجيل كل شىء يمكن تخيله، من اسم المالك المحفور على إبريق من الطين إلى قصيدة تملأ كتابًا مثل الإلياذة. ولكن ما دونوه وما تبقى لنا الآن لا يتناسبان كلية فى حجمهما. فالأدب القديم، بمفهومه الواسع الذى يشمل العلم والفلسفة والتحليل الاجتماعىّ وكذلك الآداب، خاض جهادًا قاسيًا للبقاء. لقد خُطّت مؤلفات هوميروس وأفلاطون وإقليديس (Euclides) باليد على لفافات مصنوعة عادة من نبات البردى. ومن الأصول دونت النسخ – وهى دائمًا باليد –على البردى، ثم دونت فى وقت متأخر على رقائق الجلد (vellum). ولا شىء من هذه المواد دائم البقاء. وما تبقى– بخلاف ما أبقت عليه الصدفة– هو ما عُدّ مُستَحِقًا للنسخ، وأعيد نسخه لمئات السنين من التاريخ اليونانىّ، وبعدها عبر مئات أكثر من السنين من

(*) البنى–كنعانية، العربية. [المترجم].

التاريخ البيزنطىّ، وهى قرون تبدلت فيها القيم والاتجاهات غير ذات مرة، وغالبًا بشكل جذرىّ.

إن قِلّة ما وصل إلينا عبر عملية التمحيص هذه أمرٌ يمكننا توضيحه بسهولة. فالمعروف لدينا أسماءُ حوالىّ مائة وخمسين مؤلفًا يونانيًا للمسرحيات المأساوية (التراجيديا)؛ ولكن- إلى جانب بعض الاقتباسات الغربية التى اقتبسها كتاب إغريق أو رومان متأخرون- لم يتبق لدينا سوى مسرحيات لثلاثة كتاب أثينيين من القرن الخامس قبل الميلاد. وليست هذه هى نهاية المطاف. لقد كتب إيسخيلوس (Aeschylus) إثنتين وثمانين مسرحية ولدينا فقط سبع كاملة؛ ويقال إن سوفوكليس (Sophocles) كتب مائة وثلاثًا وعشرين، منها لا زالت سبعٌ باقيات، ونستطيع قراءة تسع عشرة مسرحية من مسرحيات يوريبيديس (Euripides) الاثنتين وتسعين. وما نقرؤه -بالإضافة إلى ذلك- إذا ما قرأنا الأصل الإغريقىّ، هو نصٌ تمت مقارنته بشكل مضن من مخطوطات من العصور الوسطى، وفى العادة من القرن الثانى عشر حتى الخامس عشر من عصرنا، وهو منتج نهائىّ لعدد غير محدود من النَّسخ وإعادة النَّسخ؛ ولهذا فمن المحتمل دائمًا أن يكون نقلاً مشوهًا.

فى مصر فقط كان بالإمكان للنصوص البردية المكتوبة أن تَخْلُدَ إلى ما لا نهاية، بفضل التجفيف الطبيعى الذى توفره الظروف المناخية الفريدة. وقد وقعت مصر تحت السيطرة الإغريقية فى ظل إمبراطورية الإسكندر الأكبر التى حدثت بعدها هجرة مكثفة للإغريق إلى أرض النيل. وابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى الفتح العربىّ بعدها بألف عام، أصبحت اليونانية لغة الأدب فى مصر، وكثير من لفافات البردى تحوى شذرات أدبية أقدم بكثير من مخطوطات العصور الوسطى، وفى حالات قليلة مؤلفات الشاعر الغنائىّ باكخليديس (Bacchylides)، وبعض مسرحيات ميناندروس (Menander) الهزلية، و "ميميات" [مقطوعات صامتة] لهيرونداس (Herondas) ، وكتيب أرسطوطاليس عن الدستور الأثينىّ.

وأعاد البرديّ إلى دائرة الضوء حتى مؤلفات مهمة كانت قد فقدت تمامًا. إن عدد هذه المؤلفات صغير، على أية حال، إلى الحد الذى تتضح فيه حقيقة أن عملية التجاهل كانت تجرى منذ وقت طويل قَبْلَ النُسَّاخ الرهبان من العصر الوسيط المسيحيّ. وفى المكتبة التى أنشئت فى الإسكندرية من قِبَلِ حكام مصر من الإغريق فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح -أعظم مكتبة فى العالم القديم- لم يكن متاحًا سوى أربع وسبعين، أو ثمان وسبعين مسرحية ليوريبيديس، مما يكشف عن خسارة جسيمة فى فترة قصيرة نسبيًا مدتها قرنان. وفى الإسكندرية وفى غيرها قاوم الباحثون وعلُماء المكتبات عندئذ عملية الإهمال المتعمد، بأن حافظوا على مؤلفات كثيرة ضَعُفَ الاهتمام العام بها، أو اختفى تمامًا. ولكن فى القرون المبكرة للعصر المسيحيّ كانت هناك نهاية حتى لمثل هذه الجهود، وكان اختفاء الكتب القديمة يسير بخطى أسرع وقعًا.

ويوضح البردى الذى وصل إلينا من مصر أيضًا بجلاء أنه فى صراع الأدب من أجل البقاء، كان هوميروس دون منافس. فمن كل الشذرات المتضمنة أعمالاً أدبية التى عثر عليها فى مصر والتى تم نشرها حتى عام ١٩٤٩م، هناك ما يبلغ فى جملته ألفًا ومائتين وثلاثة وثلاثين كتابًا لمؤلفين لم تحدد أسماؤهم. وهذا الرقم يمثل النسخ الفردية، وليس عناوين منفصلة. ومن الألف والمائتين والثلاثة والثلاثين، ما يقرب من النصف، خمسمائة وخمسون، إذا أردنا الدقة، كانت نسخًا من الإلياذة والأوديسية، أو تعليقات عليهما. وتتفوق الإلياذة على الأوديسية بمقدار ثلاثمائة وثمانين إلى مائة وثلاث عشرة. ويأتى فى المرتبة التالية أكثر المؤلفين شعبية، وهو الخطيب ديموسثينيس (Demosthenes) وله أربع وسبعون بردية (وهنا أيضًا فإن العدد يشمل التعليقات)، ثم يليه يوريبيديس وله أربع وخمسون بردية، وبعده هيسيودوس بأربعين بردية، وبعده أفلاطون بست وثلاثين بردية، ثم أرسطوطاليس بست برديات فقط. هذه هى الأرقام لنُسَخِ الكتب بين الإغريق فى

مصر بعد الإسكندر، ولكن كل الأدلة تبرهن على أنه يمكن اتخاذها كمعيار حقيقيّ للعالم الإغريقيّ بأجمعه. فإذا امتلك الإغريقي أى كتب، بمعنى لفافات بردية، فهو في الغالب أميل إلى امتلاك الإلياذة والأوديسية قبل أىّ شيء آخر من بقية الأدب الإغريقيّ.

وهناك مفكرون من بين الإغريق ممن تشكّكوا في أن هذا كان شيئًا جيدًا أو مرغوبًا فيه؛ وعلى أولئك الذين أطلقوا على هوميروس لقب "معلم اليونان،" ردّ أفلاطون قائلاً: نعم! إنه: "أول وأعظم شاعرية بين شعراء التراجيديين،" ولكن المجتمع السليم سوف يتخلى عن الشعر بكافة ألوانه "باستثناء الأناشيد وقصائد المديح المخصصة للآلهة."[٣] وقبل ذلك التاريخ بقرنين احتج الفيلسوف كسينوفانيس (Xenophanes)، قائلاً: "إن هوميروس وهيسيودوس قد نعَتا الآلهة بكل ما هو مشين ويستحق اللوم بين البشر: اللصوصية والفسق والخديعة."[٤] ومثل أفلاطون، اعترف كسينوفانيس بالسيطرة الهائلة التي تمتع بها هوميروس على الإغريق، واعتقد أن هذا التأثير كان ضارًا في مجمله.

ومن الضروريّ أن نتذكر أن هوميروس لم يكن شاعرًا فقط، لقد كان قاصًا للخرافات والأساطير: وكانت عملية صنع الخرافات قد بدأت بكل تأكيد بين اليونان من قرون كثيرة سبقت، واستمرت بعد ذلك أينما حلّ الإغريق. ودائمًا ما كان ذلك يتم عن طريق الرواية الشفوية، وعلى الدوام خلال الاحتفالات. إنه نشاط على أعلى مستوى اجتماعيّ، وليس مجرد حُلم يقظة لشاعر هنا، أو لفلاحٍ أكثر ميلاً للخيال هناك. وموضوع بحث الخُرافة (الأسطورة) (Myth) هو الحركة أو العمل (action) وليس الأفكار (ideas)، أو المعتقدات أو التصاوير الرمزية، بل الأحداث والمصادفات، والحروب والفيضانات والمغامرات البرية أو البحرية، والسماء

---

(٣) Plato, Republic, 607a.

(٤) Fragment 11, Diels-Kranz edition.

ومشاجرات أسرية ومواليد وألعاب احتفالية، أو أية مناسبات اجتماعية أخرى، عاش الناس خلالها تجربة أنجزوها نيابة عن الآخرين. لقد أحسوا بالقصة بشكل ضمنيّ: "ففي التصوير الأسطوري يوجد ضمنيًا باستمرار عمل من "العقيدة"". فبدون الاعتقاد في واقعية موضوعها وفي كونه حقيقة، قد تفقد الخرافة أساسها."[٥]

وقد يصدق هذا على المتوحشين، إلا أن المرء يمكن أن يعترض عند هذه النقطة بأن الإغريق لم يكونوا متوحشين. لقد بلغوا من التمدن درجة حالت دون أن يعتقدوا عندها أن المعبود بوسيدون (Poseidon) بشخصه هو الذي منع أوديسيُوس من الوصول إلى وطنه إيثاكه، أو أن زيوس جعل ليدا (Lyda) تَحْمَل وهو متخف في صورة بجعة، أو أن هناك ساحرات مثل كيركى (Circe)، بلغن من القوة ما يتيح لهن مسخ الرجال إلى خنازير. هذه حكايات رمزية، ومجازية، وتشبيهات، وربما كانت أفكارًا وهمية في اللا شعور تعكس تحليلات وتبصرات أخلاقية ونفسية متعمدة.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ. فأينما يكون الأنثروبولوجيّ قادرًا على دراسة "الخرافة التي ما زالت باقية" وليست "محنطة" وليست "محفوظة في مستودع للأديان غير قابل للتخريب ولكن لا حياة فيه"، فإنه يكتشف أن الخرافة "ليست من طبيعة الخيال . . . بل إنها حقيقة حية، يُعتقد أنها حدثت في ذات الأيام."[٦] ولم يكن إغريق هوميروس أناسًا بدائيين، مثل التروبرياندريين (Trobrianders) الذين يشير إليهم مالينوفسكى (Malinowski)؛ فقد عاشوا فيما يسمى غالبًا – اصطلاحيًا – مجتمع قديم. وكان إغريق القرون التالية أناسًا متمدينين بشكل ملحوظ. ومع ذلك فإن المرارة التي شعر بها كيسنوفانيس في القرن السادس، وأفلاطون في القرن

(٥) Earnst Cassirer, An Essay on Man, Anchor Books, New York, 1953, 101.
(٦) Bronislaw Malinowski, "Myth in Primitive Psychology," reprinted in his Magic, Science and Religion and Other Essays, Anchor Books, New York, 1954, pp. 100-101.

الرابع، تبرهن بكل دقة أن الكثير من إخوانهم فى المواطنة، بالنسبة لموضوع الخرافة، كانوا يشتركون فى وجهة نظر التروبرياندريين، أو أنهم كانوا على الأقل أقرب إليها، منهم إلى وجهة نظر الرمزيين. ولم يكن لدى أفلاطون ذاته أدنى شك حول مصداقية التاريخ عند هوميروس؛ لقد كان يرفض فقط الفلسفة والأخلاق، وكذلك أفكارًا العدالة والآلهة، والخير والشر، وليست حكاية طروادة.

ويجب علينا ألاّ نهون الإنجاز الفكرى الذى جعل الأجيال المتأخرة تفصل بين شطحات الحكايات الهوميرية، وتعيد خلق حرب طروادة دون سهام أبوللون، والأوديسية دون زفير بوسيدون مُحْدِث العواصف. لقد كانت قلة قليلة من الإغريق هى التى وصلت إلى حدّ الرفض الصريح للأسطورة التقليدية، الموجود عند كسينوفانيس. وبين ذلك الحدّ المتطرف والقبول الكامل والبدائىّ توجد نقاط كثيرة فى المنتصف يمكن أن نجد الإغريق عند كل منها. وعندما كتب هيرودوتوس فى نهاية القرن الخامس، ذكر أن "الهللينيين يحكون أشياءَ كثيرة دون تمحيص حقيقىّ، من بينها الخرافة الساذجة التى يحكونها عن هرقل." هذه الخرافة تصف كيف ذهب هرقل (هيراكليس (Heracles)، والمعروف أكثر هيركيوليس (Hercules) عند الرومان) إلى مصر، وكان على وشك أن يُضحّى به لزيوس، وفى اللحظة الأخيرة ذبح كل خاطفيه. يا له من سخف، يقول هيرودوتوس، عندما تَكَشّف له من دراسته للعادات المصرية أن التضحية بالبشر غير واردة عندهم.[٧] لكن هيرودوتوس لم يجد صعوبة فى الاعتقاد بأن هرقل كان موجودًا فى الواقع فى يومٍ من الأيام. وفى الواقع فإنه اعتقد فى وجود اثنين. وكان هيرودوت واسع الترحال، ووجد ما أطلق عليه خرافات هرقل وعبادات هرقل، أو ما يقابلها، فى كل مكان، فى مدينة صور الفينيقية وفى مصر وكذلك بين الهللينيين. وحاول أن يفرز الحقيقة من الخرافة وأن

---

(٧) Herodotus 2.45.

يوائم بين المتناقضات والاختلافات. ومن بين النتائج التى توصل إليها أن اسم هرقل مصرى فى الأساس، الأمر الذى دفع بلوتارخوس (Plutarch) أن يتهمه فيما بعد بأنه "محب للأجانب" أو "محب للبرابرة" (Philobarbaros)، كما توصل إلى أن هناك في الحقيقة اثنين بهذا الاسم: أحدهما إله والآخر بطل.

ماذا كان فى إمكان هيرودوتوس أن يفعل غير ذلك؟ لقد كان تراث الأساطير والخرافات المتراكم عبر القرون، المقدس منها والدنيوىّ، هو كل ما كان متاحًا فى معرض التاريخ اليونانىّ القديم. وكان بعض هذا التراث مناقضًا لنفسه بشكل واضح منذ البداية. فمن جانب كان الإغريق القدماء على الدوام شعبًا مقسمًا. لقد دلفوا إلى عالم البحر المتوسط فى مجموعات صغيرة، وحتى عندما استقر بهم المقام وسيطروا فى النهاية، فإنهم ظلوا غير متحدين فى تنظيمهم السياسىّ. وبحلول عصر هيرودوتوس، ولسنين كثيرة سبقت، لم تكن المستوطنات اليونانية موجودة فقط فى رقعة اليونان الحديثة، ولكن أيضًا عبر البحر الأسود، وعلى شواطئ ما نطلق عليه الآن تركيا، وفي جنوب إيطاليا وشرقى صقلية، وعلى ساحل شمال أفريقيا، وعلى الشريط الساحلىّ للجنوب الفرنسىّ. وداخل هذا الامتداد الشاسع الذى يبلغ حوالىّ ألف وخمسمائة ميل، وُجِدَتْ مِئاتٌ ومئات من المجتمعات التى تختلف غالبًا فى تركيباتها السياسية، والتى تُصرُّ دائمًا على أن تكون ذات سيادة منفصلة. ولم تكن هناك فى ذلك الوقت أو فى أىّ وقت فى العالم القديم أمة، أو حتى أراضى أمة واحدة، تحت حكم واحد مسيطر، تُسمَّى اليونان (أو أىّ مرادف لليونان).

فى مثل هذا العالم لم يكن هناك احتمال فى أن يأتى أحدٌ بأساطير قومية موحدة ومتناغمة. ففى القرون الأولى، عندما كان خلق الخرافات عملاً نَشِطًا وفى أعظم أطواره حيوية وقوة، تعرضت الخرافات بالضرورة للتعديل المستمر. لقد كان ظهور قبيلة جديدة، ومجتمع جديد، وكان كل تبديل فى علاقات القوى داخل

النخبة المختارة فى المجتمعات، بعنى بعض التغيير فى أنساب الأبطال، وفى محصلة النزاعات العائلية الماضية، وفى الموازنات الحساسة بين البشر والآلهة. ومن الواضح أن الرواية الجديدة التى تطورت فى رقعة ما لم تتطابق مع الروايات القديمة أو الجديدة، التى عُرِفَت فى عشرات المناطق الأخرى. ولم يكن الاتفاق مطلوبًا. فلا رواة الخرافات ولا مستمعوهم كانوا دارسين، لقد كانوا مشاركين فى أنشطة اجتماعية، ولم يكونوا مهتمين بأدنى درجة من الاهتمام بخرافات الآخرين. إنه عالم آخر مختلف تمامًا عندما ينخرط مؤرخ مثل هيرودوتوس فى دراسة علم الخرافات المقارن. عندها صار من الضرورىّ أن يتم التعامل مع القصص التراثية بالمعالجة وليس بالنبذ. وكان يتم التدقيق فيها بُغْيَةَ تحقيق التماسك الداخلى، وبُغْيَةَ تصحيح وتوسعة المعرفة المكتسبة من سجلات وروايات أكثر قدمًا لشعوب أخرى، مثل المصريين والبابليين، على وجه الخصوص، ثم تقريبها من العقل كلما أمكن ذلك. وبعد تنقيتها بهذا الشكل، كان بالإمكان الاحتفاظ بها كتاريخ، إن لم يكن كأى شيء آخر.

لم يوجد أبدًا مجتمع بشرىّ بدون خرافة، وبحق هناك شكٌ فى أن مجتمعًا كهذا ممكن الوجود. فالمقياس الوحيد لتقدم الإنسان من أقدم بداياته إلى ما يمكن أن نطلق عليه المدنية هو الطريق الذى يسلكه هذا الإنسان للتحكم فى خرافاته، وقدرته على التمييز بين مساحات السلوك، وبين المدى الذى يستطيع أن يصل إليه أكثر وأكثر فى وضع نشاطه تحت حكم العقل. وفى مسيرة هذا التقدم كان الإغريق سباقين. وربما يتمثل أعظم إنجاز لهم فى اكتشافهم – وبدقة أكثر، اكتشاف سقراط – أن الإنسان هو "ذلك الكائن الذى عندما يسأل سؤالاً عقلانيًا، يستطيع أن يعطى جوابًا عقلانيًا."[٨] لقد كان هوميروس بعيدًا غاية البعد عن سقراط حتى إنه لم يكن يعرف الإنسان كإنسان له كيان نفسىّ متكامل. ومع ذلك فإن هوميروس يشغل

---

(٨) Cassirer, An Essay on Man, p. 21 (The phrasing is his, not Socrates').

المقام الأول فى تاريخ سيطرة الإغريق على خرافاتهم وأشعارهم؛ فقصائده غالبًا تتصف بكونها ما قبل إغريقية فى تناولها للخرافة، ولكنها أيضًا تتضمن ومضات من شيء آخر، من قبيل ميل عبقريّ إلى ترتيب العالم، وإلى الجمع بين الإنسان والطبيعة، وبين البشر والآلهة، فى تناغم وبكيفية كان مقدرًا للقرون التالية أن تتوسع فيها، وأن تسمو بها إلى مجد الهللينية.

وفى الحقيقة فإن التاريخ الأوروبيّ بدأ بالإغريق، مثلما أنه من الصحيح تمامًا أن التاريخ اليونانيّ بدأ بعالم أوديسّيوس. وككل البدايات البشرية، فإن هناك تاريخًا طويلاً يسبقها. لأن التاريخ -كما لاحظ يعقوب بوركهاردت (Jacob Burckhardt)- هو الحقل الوحيد الذى لا يمكن أن يبدأ من البداية.

الفصل الثانى

شعراءُ الملاحِم والأبطال

لقد رُوِيَت قصة تدهور أحوال الإنسان وسقوطه بطرق كثيرة. إحدى هذه الروايات المنمقة – التى ربما كانت إيرانية الأصل– يتضح فيها أن الإنسان قُدِّرَ له أن يمر عبر أربعة عصور، وفى أربع خطوات تنقله أبعد وأبعد عن العدالة والمبادئ الأخلاقية، من الجنة التى أسكنته فيها الآلهة أصلاً. وقد رمزت الرواية إلى كل عصر بمعدن من المعادن بترتيب تنازلىّ: العصر الذهبىّ والفضىّ والبرونزىّ، أو النحاسىّ، والحديدىّ.

وفى الوقت المناسب رحلت هذه الخرافة غربًا إلى بلاد اليونان. ولكننا عندما نقابلها لأول وهلة نجدها فى قصيدة "الأعمال والأيام" لهيسيودوس (Hesiod) وقد اكتسبت عنصرًا جديدًا تمامًا. فبين العصر البرونزىّ والحديدىّ الحالىّ (أىْ فى عصر هيسيودوس)، أُقحِم عصر خامس.

"ولكن عندما غطت الأرض هذا الجيل (البرونزىّ) أيضًا، خلق زيوس (Zeus) بن كرونوس (Cronos) جيلاً آخر على الأرض المثمرة، هو الجيل الرابع الذى كان جيلاً أكثر نبلاً وصلاحًا، جيلاً أشبه بالآلهة، من الرجال الأبطال، الذين أطلق عليهم أنصاف الآلهة، وهو الجيل السابق لعصرنا الذى عاش على الأرض اللامحدودة. وقد دمرت الحرب المرعبة والمعارك المروعة قسمًا منهم، فالبعض قضى فى أرض كادموس (Cadmos) عند طيبة ذات الأبواب السبعة بينما كانوا يقاتلون من أجل قطعان أوديب (Oedipus)، والبعض الآخر عندما جيء بهم فى سفن عبر خليج بحرىّ كبير إلى طروادة من أجل هيلينا (Helen) ذات الشعر الكثيف: فهنالك حجبت نهاية الموت قسمًا منهم. ولكن الآخرين منحهم الوالد زيوس

بن كرونوس حياة مستقرة، وجعلهم يعيشون عند أطراف البسيطة، بعيدًا عن الناس. وعاشوا من غير أن يمسهم الأسىّ فى جزر المباركين على شاطئ البحر العميق ذى الدوامات، أبطالاً سعداء' تخرج لهم الأرض المعطاءة حبوبًا لذيذة كالشهد، ثلاث مرات فى العام...."[1]

ولا ندرى ما إذا كان هيسيودوس -أو أحد الشعراء السابقين المجهولين- هو الذى حَوّل الخرافة الشرقية القائلة بالأربعة عصور إلى خرافة يونانية ذات خمسة عصور. كذلك فإن هذا الأمر ليس مهمًا، لأن الجوهر واضح. لقد فرضت رواية يونانية منفصلة على الرواية المستوردة صعبة الهضم، وتم الاندماج على نحو غير دقيق وبلا اكتراث. وفى الوقت الذى وصلت فيه الخرافة الشرقية إلى بلاد اليونان، كان الإغريق قد أثبتوا بإحكام فى تاريخهم الماضى عصرًا من عصور الأبطال. وما كانوا ليفرطوا تحت أىّ ظرف من الظروف فى تلك الفترة الوجيزة من المجد والشرف. وفى المقابل فإنهم أقحموها فى مسلسل المعادن، تاركين للباحثين المُحدَثين إخراج الأشياء الفجة والمتناقضات، وأن يتوصلوا إلى التفسيرات.

قليلٌ هم من بين الإغريق -المتقدمين منهم والمتأخرين- الذى شكّوا فى وجود عصر الأبطال فى وقت من الأوقات. لقد عرفوا كل شىء عنهم: أسماءهم وأنسابهم وأعمالهم البطولية. وكان هوميروس هو أكثر مصادر المعلومات الموثوق بها، وإن لم يكن بأى حال من الأحوال المصدر الوحيد لها. ولسوء الحظ لم يكن لدى هوميروس ولا هيسيودوس أدنى اهتمام بالتاريخ كما نفهم نحن هذا المصطلح. لقد كان اهتمام الشاعر منصبًا عل حقائق معينة من الماضى، وليس على صلتها بالوقائع الأخرى سواء أكانت تلك فى الماضى أم فى الحاضر، وفى حالة هوميروس (Homer)، فإنه لم يهتم حتى بعواقب تلك الحقائق. فمحصلة حرب طروادة،

---

(١) Works and Days 156-73 (translated by H. G. Evelyn-White in the Loeb Classical Library).

وسقوطها وتدميرها، وثمار النصر الإغريقي، أمور ذات أهمية قصوى بالنسبة لمؤرخ الحرب. ومع ذلك فإن شاعر الإلياذة كان غير مكترث تمامًا بكل هذه الأمور، مثلما أن شاعر الأوديسية كان أقل اكتراثًا. والأمر ذاته ينطبق على عصور الإنسان. ففي الرواية الزرادشتية هناك دقة رياضية: فكل عصر من العصور يمتد ثلاثة آلاف عام، وفي كل منها تتدهور القوانين وتتراجع الأخلاقيات بمقدار الربع. وفي هوميروس لا نجد حتى همسة حول التاريخ أو الفترة الزمنية، مثلما لا يعطي هيسيودوس أية إشارة لتاريخ الحرب الطروادية أكثر من قوله: "في وقت من الأوقات".

لقد وضع الإغريق المتأخرون التسلسل الزمنيّ بالتفصيل. ومع أنهم لم يصلوا إلى اتفاق تام؛ إلا أن قليلين هم الذين ابتعدوا كثيرًا جدًا عن التاريخ المقابل لعام ١٢٠٠ قبل الميلاد، بوصفه تاريخ حرب طروادة، وعن عصر للأبطال يشتمل على أربعة أجيال. كذلك فإنهم قرروا أن هوميروس عاش أربعين سنة بعد ذلك، وأن هيسيودوس كان معاصرًا له، طبقًا لإحدى الروايات، بل إنهم قالوا إنه ابن عمه.

وهناك أبطال في كل مكان، بطبيعة الحال. فعلى الدوام هناك رجال يسمون بأنهم أبطال، وهذا أمر مضلل؛ لأن هوية اللقب تخفي تنوعًا مذهلاً في الجوهر. وطبقًا لأحد المعاني، فإن الأبطال يسعون دومًا للشرف والمجد؛ وذلك أيضًا قد يضللنا بدون مزيد من التحديد لمحتويات الشرف والطريق إلى المجد. قليلون من أبطال التاريخ أو الأدب المسرحيّ الأثينيّ –من القرن الخامس قبل الميلاد حتى يومنا هذا– هم الذين يشاركون مناظريهم الهومريين في الإخلاص وقوة العزيمة. لقد كان كل شيء بالنسبة لهؤلاء يتركز حول عنصر فرديّ من الشرف والفضيلة والقوة والبسالة والشجاعة الجسدية والبراعة الفائقة. وعلى الجانب الآخر لم يوجد هنالك ضعف ولا سمة غير بطولية، فالصفة الواحدة في هذا الجانب هي الجبن وما يتلوه من فشل في السعي نحو أهداف بطولية.

لقد دعا هيكتور (Hector) ذات مرة: "أيا زيوس والأرباب الآخرين، امنح أن يصير ابنى هذا مثلى، فى غاية التميز بين الطرواديين، وقويًا ومغوارًا جدًا، وأن يحكم بالقوة فى إيليون، ومن ثمَّ يقول الرجال -وهو عائد من الحرب- إنه أشجع كثيرًا من أبيه. ليته يعود بالغنائم ملطخة بدم الرجال الذين ذبحهم، وليت قلب أمه يبتهج."(*) ليس هناك ضمير اجتماعىّ فى هذه الكلمات، ولا أى أثر للوصايا العشر، ولا مسئولية أكثر من المسئوليـــة الأسرية، ولا يوجد التزام لأى فرد أو لأى شىء، بل لبسالة الشخص ودافعه إلى النصر والقوة.

إن عصر الأبطال، كما فهمه هوميروس – إذن – هو الزمن الذى سمَت فيه مجموعة من الرجال فوق كافة المستويات اللاحقة، فيما يتعلق بمجموعة محددة تحديدًا دقيقًا من الصفات والخصائص. وبشكل ما فإن هذه الفضائل وتلك القيم والقدرات كان يشترك فيها أناس كثيرون فى ذلك العصر، ولولا ذلك ما كان ليوجد عصر مميز للأبطال بين عصرىّ البرونز والحديد. وعلى وجه الخصوص فإن كلمة "بطل" فى الأوديسية هى مصطلح طبقىّ يشير إلى الأرستقراطية كافة، وفى بعض المرات يبدو وأنها تشمل كافة الناس الأحرار. لقد أصدرت أثينا تعليماتها إلى تليماخوس (Telemakhos)، قائلة: "ادع الأبطال الآخيين إلى اجتماع،"(٢) وكانت تعنى بقولها "ادع الجمعية الدائمة لإيثاكه (Ithaca)."

ولسنا بحاجة إلى توضيح أنه لم يوجد على الإطلاق عصر بطولىّ يشتمل على أربعة أجيال فى بلاد اليونان، بالمعنى الدقيق والمتميز عند هوميروس.

(*) Iliad 6.476-81. يمكن هنا ملاحظة مشكلة فى الترجمة. ففى علم النفس عند هـــوميروس، يُنسب كل شعور وعاطفة وفكرة إلى عضو فى الجسم، مثل القلب أو النفس (thumos) التـــى لا نعرف هويتها. وفى بعض الأحيان يُعطى الإحساس ذاته اسم العضو. مثل تلك العبارات تجب ملاحظة أنه يصعب ترجمتها. ولهذا فقد ترجمت كافة هـــذه الكلمـــات بكلمـــة "قلـــب" لتتناسب الترجمة مع استخدامنا الرمزى المألوف، على الرغم من أن المعنى فى هـــوميروس أكثر حرفية بشكل واضح.

(٢) Odyssey 1.272.

والمعضلة الخطيرة التى تواجه المؤرخ هى أن يحدد ما إذا كانت القصائد تتضمن أية حقائق عن الواقع الاجتماعىّ والتاريخىّ، وإلى أىّ حد تتضمن؛ وبمعنى آخر، كم من عالم أوديسّيوس وُجِدَ فقط فى رأس الشاعر، وكم وجد خارجه، فى الزمان والمكان. والسؤال الذى يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار قبل ذلك الاستفسار بطبيعة الحال هو: من أين جاء الشاعر بأفكاره حول ذلك العالم، وبقصصه عن حروبه وحياة أبطاله الخاصة؟

إن الشعر البطولى -الذى تشكل الإلياذة والأوديسية أعظم أمثلته- يجب أن يُميَّز عن الشعر الملحمىّ الأدبىّ، مثل "الإنياذة" (Aeneid) أو "الفردوس المفقود" (Paradise Lost). فالشعر البطولىّ هو دائمًا شعر ارتجالىّ، يُنظَمُ شفاهة، وغالبًا بواسطة شعراء لا يعرفون الكتابة، ويُنشَد أمام جمهور من المستمعين. ومن ناحية الصياغة فإنه يمكن تمييزه على الفور بالتكرار المستمر للعبارات والأبيات، بل ولمجموعات كاملة من السطور. فقدوم الصباح يأتى تقريبًا على الدوام عند هوميروس: "عندما لاح الصبح ذو الأصابع الوردية، وليد الفجر". وعندما تُرسل رسالة شفهية (ورسائل هوميروس لم تكن إطلاقًا مكتوبة)، يجعل الشاعرُ الرسول يسمع النص الدقيق للرسالة، ثم يكرره على المتلقى كلمة كلمة. كذلك فإن أثينا موصوفة بأنها "عين البومة"، وجزيرة إيثاكه بأنها "المحاطة بالبحر"، وأخيلّيوس (Achilles) بأنه "سابى المدن". ومع ذلك فإن هذا التكرار ليس تكرارًا بسيطًا ولا رتيبًا. وعلى سبيل المثال فإن هناك ستة وثلاثين لقبًا لأخيلّيوس، ويحدد اختيار أىّ لقب منها موقعه فى البيت، وصيغته الاعرابية المطلوبة. وقد أوضحت دراسة إحصائية أنه يوجد حوالىّ خمسة وعشرين تعبيرًا فى قوالب مصاغة فى الخمسة والعشرين بيتًا الأولى فى الإلياذة فقط. كذلك فإن حوالىّ ثلث القصيدة كاملة يشتمل على أبيات أو مجموعات من الأبيات التى تتكرر أكثر من مرة فى العمل، ونفس الشىء يَصدُق على الأوديسية.

غالبًا ما يسيء القراء المحنكون للكتب المطبوعة فهم فكرة التكرار، مفسرين إياها بأنها علامة على الخيال المحدود وعلى مرحلة بدائية من فن الشعر. وهكذا وضع النقاد الفرنسيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فيرجيليوس (Vergil) في مرتبة أعلى من هوميروس لأن الأول تحديدًا لم يكرر نفسه، بل وجد باستمرار تعبيرًا جديدًا وتركيبات جديدة. إن ما فشل هؤلاء النقاد في إدراكه هو أن الصيغة المكررة لا مفر منها في الشعر الملحميّ. لقد كان الشاعر يصيغ بشكل مباشر أمام سامعيه، فهو لا ينشد أبياتًا محفوظة عن ظهر قلب. وفي عام ١٩٣٤، وبناء على طلب من الأستاذ ميلمان باري (Milman Parry)، قام رجل صربيّ ابن ستين ربيعًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة بإنشاد قصيدة تعادل الأوديسية في طولها، وهو ينسج أحداثها في أثناء إنشاده، محتفظًا بالوزن والشكل، على الرغم من أنه كان ينسج حكاية معقدة. وقد استغرق الأداء أسبوعين، يفصل بينهما أسبوع ثالث، كان الشاعر يغني فيها لمدة ساعتين في الصباح وأخريين في الظهيرة.

مثل هذا الإنجاز يتطلب قدرات هائلة في التركيز عند الشاعر وعند المستمعين. وأن يكون في الإمكان إطلاقًا فعل ذلك أمر يُعزى إلى حقيقة أن الشاعر- وهو محترف لديه خبرة سنين طويلة من الممارسة والتدريب خلفه -كان يملك تحت تصرفه المواد الخام الضرورية والمتمثلة في كم هائل من الحوادث وعدد كبير من الصيغ، وتراكم أجيال من المنشدين الذين جاءوا من قبل. وقد شمل مخزون اليونان خرافات كثيرة متنوعة ومناقضة بشكل لا يمكن التوفيق بينه، وهي خرافات ظهرت إلى الوجود مرتبطة بالطقوس الدينية؛ وكذلك كافة أنواع الحكايات حول الأبطال الفانين، البعض منها محض اختلاق والبعض الآخر دقيق إلى حدٍّ معقول؛ مثلما شمل المخزون أيضًا الصيغ التي يمكن أن تواتم أيَّ حدث من قبيل دخول الفجر أو الليل، ومناظر النزال والدفن والولائم، والأنشطة الاعتيادية للناس -مثل الاستيقاظ والأكل والشراب والحلم- وأوصاف القصور والمروج والأسلحة والكنوز، واستعارات البحر والمراعي، وهكذا دواليك مما يفوق العدّ. ومن كل مواد

البناء هذه كان الشاعر يبنى قصيدته، وكان كل عمل – وبمعنى آخر، كل أداء – يمثل عملاً جديدًا، مع أن كل العناصر قد تكون قديمة ومعروفة حق المعرفة.

وكان تكرار الأمور المألوفة ضروريًا بالقدر نفسه بالنسبة لجمهور المستمعين. فأن يتتبع المرء حكاية طويلة ومتعددة الجوانب، وغالبًا ما تُحكى عبر أيامٍ وليالٍ عديدة، وتُغنّى بلغة ليست اللغة المعتادة فى الحديث اليومىّ، وذات صيغ نحوية ومفردات غريبة، أمرٌ ليس أيضًا بالإنجاز الهين، وما كان ليحدث إلا عن طريق قوالب الصيغ ذاتها التى لا يمكن للمُبدع الاستغناء عنها. لقد كان الشاعر ومستمعوه سواءً بسواء يستريحون من حين لآخر، كما يقول القائل، بينما يتوالى الفجر المعتاد ذو الأصابع الوردية تلو الآخر، وتتكرر الرسائل كلمةً كلمة. وبينما كانوا يستريحون، فإن الشاعر كان يجهز البيت أو الحدث التالى، وكان الآخرون يستعدون للانتباه إليه.

ويمكننا الآن –كما تذكر بعض الدراسات الحديثة– أن نقول إن الإلياذة كما نعرفها الآن قد تمت صياغتها كتابة وليس شفاهة. كذلك فإنه لا جدال تقريبًا فى أن الإلياذة تتصف بالأصالة والعبقرية أكثر من كل الأشعار البطولية الأخرى، حتى أفضلها، مثل الــ: "بيوفولف" (Beowulf) أو أنشودة رولان (Ronald)، على سبيل المثال. ومع ذلك فإن الإلياذة والأوديسية تكشفان بأكمل المعايير كافة الخصائص الضرورية للشعر البطولىّ غير المكتوب عبر العالم. فخلفهما يمتد تاريخ طويل فى فن الشاعر الغنائىّ، الذى تبلور فى اللهجة المتميزة فى القصائد، وإن كانت مصطنعة بالكلية. فلم يحدث أن تحدث بها إغريقى على الإطلاق، بل ظلت على الدوام مثبتة على أنها لغة الملحمة الإغريقية. وخلف القصيدتين أيضًا تكمن الأجيال التى أبدعت العناصر المصوغة التى شكلت كتل البناء التى تكونت منها القصيدتان فى النهاية.

لقد بلغ الشعر البطوليّ اليونانيّ أوج مجده مع الإلياذة والأوديسية. وسرعان ما بدأ الشاعر الذى كان ينظم أثناء إنشاده الشعر، يُفسِحُ الطريق أمام المنشد الجوال الذى كان فى الأساس مردِّدًا لأبيات محفوظة، إلى الكاتب المأجور الذى كان يُعدُّ روايات ذات قيمة أدبية متواضعة. وحلت صيغ جديدة تشكلت عبر الكتابة، مثل القصيدة الغنائية القصيرة ومن بعدها المسرحية، محل الملحمة الشفهية كوسائط للتعبير الفنيّ. ويختلف الخبراء اختلافًا كبيرًا لا حدود له بشأن الوقت الذى حدث فيه هذا التغيير، ولم يصلوا إلى أىّ اتفاق. ويتمثل أحد الآراء المقبولة فى أن الإلياذة اتخذت -بشكل تقريبيّ وليس تحديدًا- الشكل الذى وجدناها عليه فى القرن الثامن قبل ميلاد المسيح، وأن ذلك حدث بشكل ما فى النصف الأخير من القرن ذاته، أكثر منه فى نصفه الأول، وأن هيسيودوس ازدهر بعد جيل أو ما شابه ذلك، وأن الأوديسية نُظِمت بعد جيل آخر أو جيلين بعد هيسيودوس.

مثل هذا التقسيم التاريخيّ -الذى يفترض وجود شخصين باسم هوميروس تفصل بينهما مائة عام- يبدو لأول وهلة مستحيلاً. ويرجع ذلك إلى أنه لمدةٍ تزيد عن ألفى عام لم يشك رجال من أصحاب الذوق والخبرة العميقة إطلاقًا فى صحة رواية أن رجلاً واحدًا كتب كلاً من الإلياذة والأوديسية، مثلما أن إجماع حكمهم كان يعززه أسلوب ولغة أشعار القصيدتين، التى لا يمكن فى حقيقة الأمر التفريق فيما بينها. ولكن بمجرد أن أُعيدَ اكتشاف تقنية التأليف الشعرىّ القديم، واتضح معها سر وحدة الأسلوب الخادعة، عندئذٍ أصبح بالإمكان رؤية الاختلافات الضخمة بين القصيدتين على حقيقتها وفى منظورها الكامل. وقد استوجب بعض هذه الاختلافات التعليق قديمًا. لقد لاحظ بلينيوس (Pliny) الرومانىّ وجود قدر كبير من السحر فى الأوديسية، وكان محقًّا فى رأيه هذا إلى حدٍّ ما. ففى الإلياذة كان لتدخلات الآلهة طابع المعجزات الثانوية، ولكن حتى أخيلّيوس لم يكن يمتلك قوىً سحرية، على الرغم من مراقبة أمه ثيتيس (Thetis) المؤلهة له باستمرار. وفى الأوديسية تدخلات للآلهة شبيهة بالإلياذة، ولكن فيها أيضًا قصة كيركى (Circe) التى ترتكز على سلسلة من الصيغ السحرية بمعناها وشكلها الدقيقين للغاية.

ويوجد كذلك فرق لافت للنظر بدرجة أكبر فى العلاقات بين الأبطال والآلهة. فعلى الرغم من أن القرارات الأساسية تصدر على جبل أوليمبوس (Olympus) فى الحكايتين، فإن الآلهة تتدخل بتشنج واضح فى الإلياذة، بينما تقود أثينا أوديسَّيوس وتليماخوس فى الأوديسية خطوة خطوة، وتبدأ القصيدة الأخيرة بافتتاحية فى السماء، باستغاثة أثينا بزيوس لكى يضع نهاية لمعاناة البطل، وتنتهى عندما تضع الإلهة حدًّا للنزاع الدموى بين البطل وأقارب الخاطبين الذين قتلهم. وحتى دافع الآلهة هنا مختلف؛ إنه يتصف فى الإلياذة بأنه دافع شخصىّ ويتضح فى التعبير عمن يحبه أو يكرهه أحد الآلهة من بين الأبطال، أما فى الأوديسية فإن هذا الدافع الشخصى استكمل بشكل جزئىّ وبطريقة ما تزال بدائية بمتطلبات العدالة.

إن الإلياذة تمتلئ بأعمال الأبطال. وحتى عندما تبتعد عن الموضوع المركزى –وهو غضب أخيلّيوس– فإن اهتمامها بالأعمال والاهتمامات البطولية لم يتزحزح. وعلى الرغم من قِصَر الأوديسية، فإنها تحتوى على موضوعين متميزين، وإن كانا غير مرتبطين بالضرورة: أحدهما هو جولات أوديسَّيوس الوهمية على غير هدى، وآخرهما هو الصراع من أجل السلطة فى إيثاكه. ومع التسليم بوضعها فى عصر الأبطال، فإننا لا نجد فى الأوديسية سوى بطلٍ واحدٍ بمعنى الكلمة هو أوديسَّيوس. أما رفاقه فهم شخصيات متواضعة القيمة بلا لون. ويبدو ابنه تِليماخوس لطيفًا ومطيعًا، وفى طريقه ليصبح بطلاً عندما يكبر، ولكن الشاعر لا يعتنى به إلى هذا الحدّ. أما طالبو يد بينيلوبى (Penelope) فإنهم أوغاد، وهو ما يشكل تضاربًا لأن "بطل" و "وغد" ليسا متناقضين تمامًا، وهما حتى ليسا مصطلحين قابلين للقياس. ومن ثمّ فليس هناك "أوغاد" فى الإلياذة. وفيما يتعلق ببينيلوبى ذاتها فإنها تزيد قليلاً عن كونها "شخصية أسطورية متاحة" ملائمة.(٣) لقد صارت بينيلوبى بطلة أخلاقية للأجيال المتأخرة، تجسيدًا للطيبة والعفاف، إذا ما

(٣) Rys Carpenter, Folk Tale, Fiction and Saga in the Homeric Epics, University of California Press, Berkeley, 1946, 165.

قورنت بالخائنة القاتلة كليتايمنيسترا (Clytaemnestra)، زوج أجاممنون (Agamemnon) ولكن كلمة بطل ليس لها جنس مؤنث في عصر الأبطال.

وفى النهاية فإن الإلياذة تتجه ناحية الشرق، من وجهة نظر اليونان، بينما تتجه الأوديسية ناحية الغرب. وقد بدأت العلاقات اليونانية مع الغرب فى وقت متأخر نسبيًا، إذ إن ذلك لم يحدث قبل منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، بطريقة مؤقتة نوعًا ما، لتأخذ فى القرن التالى شكل الهجرة والتوغل فى صقلية وإيطاليا وفيما وراءهما. وهكذا فإن الافتراض الذى يواجهنا هو أن الأوديسية تتناول المواد الموروثة وتوجهها غربًا. وليس معنى ذلك أننا نقول إن أسفار أوديسيّوس فى بلاد الواق الواق التى مر بها يمكن إعادة تحديدها على الخريطة. لقد باءت بالفشل كافة محاولات تتبع خط سيره، وهى محاولات بدأت واستمرت منذ أقدم العصور. وحتى التفاصيل الطبوغرافية لموطن أوديسّيوس، جزيرة إيثاكه، يمكن الإشارة إليها على أنها غير دقيقة، على الرغم من وجود بعض النقاط الجوهرية العديدة لجزيرة ليوكاس (Leukas) القريبة منها، والتى من المستحيل أن تنطبق على إيثاكه ذاتها.

وعلى الرغم من هذه الاختلافات، على أية حال، تقف الإلياذة والأوديسية معًا فى مواجهة أشعار هيسيودوس، خصوصًا قصيدته "الأعمال والأيام". وبفضل ما استخدمه هيسيودوس من لغة وصيغ، فإنه لا ينتمى على الإطلاق إلى شعراء البطولات. وكلما تعامل مع مواده غير الأسطورية بشكل واضح، وعندما يتناول المجتمع الإنسانىّ والسلوك البشرىّ، فإنه يبدو دائمًا شخصيًا ومعاصرًا فى نظرته. فلا الأبطال ولا الفانون العاديون لعصر مضى هم شخصياته، بل هى هيسيودوس نفسه وشقيقه وجيرانهما. إن هيسيودوس كليًا جزء من عصر البرونز الحاضر، وبالتحديد من عالم اليونان العتيق (المبكر)، عالم القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.

ليست الإلياذة والأوديسية كذلك، فهما تطلان على عصر مضى، ومادتهما قديمة لا شك فى ذلك. وتحوى الأوديسية بشكل خاص مجالاً واسعًا للأنشطة والروابط الإنسانية يشتمل على: البناء الاجتماعىّ والحياة الأسرية، والحياة الملكية، والأرستقراطيين والعامة، وإقامة المآدب والحرث وتربية الخنازير. هذه الأمور نعرف عنها القليل فيما يتعلق بالقرن السابع قبل الميلاد الذى صيغت فيه الأوديسية بشكل واضح. وما نعرفه وما تحكيه الأوديسية ليسا، ببساطة، نفس الشىء. ويكفى أن نشير إلى شكل دويلة المدينة (Polis) للنظام السياسىّ المنتشر فى العالم اليونانىّ آنذاك، وعلى جزيرة خيوس (Chios) التى تزعم أشد ما تزعم أنها محل ميلاد هوميروس. لقد تطورت دويلة المدينة حتى وصلت إلى الديمقراطية، اعتمادًا على دليل تقدمه بقايا نقش حجرىّ متأخر بالكاد فى تاريخه عن الأوديسية. ومع ذلك لا تقدم أىٌّ من القصيدتين أىَّ أثر لدويلة المدينة بمعناها السياسىّ الكلاسيكىّ الذى نقابله بعد ذلك. إن المدينة عند هوميروس لا تعنى أكثر من موقع محصن، مجرد بلدة. ولم يكن شعراء الإلياذة والأوديسية –على خلاف هيسيودوس– شخصيين مثلما أنهم لم يكونوا معاصرين فى إشاراتهم الشعرية.

وفى كتبنا الحالية تنقسم كل قصيدة إلى أربعة وعشرين "كتابًا" يقابل كل منها حرفًا من حروف الأبجدية اليونانية. وهذا الترتيب متأخر ومن عمل علماء الإسكندرية، ومن الواضح أنه كان ترتيبًا اعتباطيًّا. فالكتب تتفاوت فى طولها كما أنها لا تشكل دائمًا وحدة واحدة فى موضوعها، على الرغم من أن الكثير منها متكامل ذاتيًا بالقدر الذى يجعل المرء يميل إلى الظن أنها وضعت للإنشاد فى جلسة واحدة. وحتى يتم تشريح الأشعار بشكل صحيح، يجب على الفرد أن يقرأها بدون النظر إلى التقسيم السكندرىّ. فعندئذ تتضح الكيفية التى نُسجت بها معًا فى الأوديسية قصة الحروب الطروادية، والصراع مع الخاطبين، مع قصة خرافية ومع مغامرات البحار سندباد اليونانىّ (فالشاعر الشعبىّ كان فى حقيقة الأمر "مُرَتِّقًا

للأغانى")، مع كثير من الحكايات الصغيرة، مثل أسطورة الزنا بين آريس وأفروديتى، وأساطير الآخرة، أو رواية خطف أمير صغير وبيعه فى سوق النخاسة (راعى الخنازير يومايوس (Eumaeus)). ربما لا تشتمل الإلياذة على مثل هذا العدد الكبير من الحكايات، ولكن القصص الصغيرة لا حصر لها. وكان بالإمكان نشر كل ذكرى، وحكايات الأنساب، وهو الأمر الذى حدث بالفعل، كما هو الحال مع القصيدة الشعرية البطولية القصيرة. إن وصف المباريات الرياضية الجنائزية لباتروكلوس (Patroclus)، كان ملائمًا لاستخدامه في وصف المباريات ذاتها لبطلٍ آخر، دون أن يتطلب الأمر أكثر من تغيير بسيط فى الأسماء. كذلك فإن الأساطير الأوليمبية كانت تلائم كل مكان.

لا تكمن عبقرية الإلياذة والأوديسية فى الأجزاء الفردية، أو حتى فى اللغة، لأن ذلك كله مصدر مشترك من المواد المتاحة بوفرة بالغة لأىّ منشد. ويكمن تفوق هوميروس فى المقياس الذى عمل عليه، وفى النضارة التى تناول وعالج بها ما وصل إليه من تراث، وفى التنويعات الصغيرة والتجديدات التى أدخلها فى عملية الرتق. ومن المتناقضات أنه كلما عظم حشد المواد المتراكمة، ازدادت حرية الشاعر الذى تتوفر لديه الرغبة فى استخدامها والقدرة على ذلك. ومن خلال مهارته التى لا تبارى فى اختيار الأحداث والصيغ الخلفية وفى تركيباته، استطاع هوميروس خلق عالمٍ طبقًا لمفهومه هو، مختلفٍ بشكل لافت فى أساسيات معينة عما قدمه له الشعراء المنشدون السابقون. ومع ذلك -ومن ناحية المظهر- ظل شاعرنا ضمن المسار المحدد لتقاليد المنشدين، مثلما ظل فى واقع الأمر محافظًا على جزء كبير من ذلك العالم التراثىّ.

إن الإلياذة والأوديسية -بوصفهما مجرد روايتين- ورغم طولهما غير المسبوق، تحذفان كثيرًا جدًّا مما كان يشكل فى عصرهما التاريخ المقبول للحرب الطروادية وما أعقبها من أحداث. وكان هذا الحذف مجرد قرارٍ حرٍ، لأن الشعراء

عرفوا التاريخ حق المعرفة، كما أنهم كانوا يفترضون أن مستمعيهم يفعلون نفس الشيء. وبعد ذلك نُظِمت ملاحم أخرى أدنى مرتبة بشكل واضح، من مخزون التراث، حتى إنه وجدت هنالك دائرة من سبع قصائد تحكى القصة منذ خلق الآلهة حتى وفاة أوديسِّيوس وزواج تِليماخوس وكيركى. ولمدة من الزمن نُسبت هذه الأعمال جميعها إلى هوميروس، هوميروس الذى هجاه الفيلسوف كسينوفانيس(*) (Xenophanes) والذى أصبح عندئذٍ اسمًا جماعيًّا يرمز للقصص المتعلق بطروادة. وعلى أية حال فإن الخصائص التى لا تبارى للإلياذة والأوديسية كانت جلية منذ وقت مبكر، على الرغم من أنه لم يتم الاتفاق على أن هوميروس لم ينظم بقية الدائرة إلا حوالىّ القرن الرابع والثالث قبل الميلاد.

لقد عاشت الأشعار الأخرى لخمسة أو ستة قرون بعد ذلك ثم اختفت، اللهم إلا من أبيات قليلة فى المختارات او الاقتباسات. ومن المتصور أن الشعراء الغنائيين الذين صاغوا الإلياذة والأوديسية فى شكلهما النهائىّ قاموا بفعل ذلك كتابة. ومع ذلك كان انتشار القصيدتين شفهيًا. لقد كان العالم اليونانىّ فى القرنين الثامن والسابع غير متعلم بدرجة كبيرة واضحة، على الرغم من استخدامه الحروف الأبجدية. وفى الواقع ظل الأدب اليونانىّ شفهيًا لزمن طويل جدًا. لقد صيغت المسرحيات المأساوية الجادة [التراجيدية] مثلاً بكل تأكيد كتابة، ولكنها قُرئت من قِبَل رجال عُدوا ربما بالمئات، وسُمعوا وتكرر سماعهم من قِبَل عشرات كثيرة من الآلاف عبر بلاد اليونان كلها. وكان إنشاد الشعر الملحمىّ والغنائىّ والمسرحىّ دائمًا عنصرًا جوهريًا في المهرجانات الدينية العديدة. إن أصول هذه العادة مفقودة فى عصر ما قبل التاريخ عندما كانت الأسطورة غالبًا مسرحية طقسية، وإعادة تمثيل حية لحكاية تعاقب الفصول أو لأية ظاهرة تلهم الاحتفال أمام

(*) وُلد كسينوفانيس حوالىّ عام ٥٧٠ ق.م.، بعد نظم الأوديسية ربما بما لا يزيد عن جيلين. وتدل حدّة نقده على هذا القدر من القبول الشعبىّ العارم للقصيدتين وعلى سرعة قبول الناس لهما.

جمهور محتشد. وظلت المسرحية الطقسية فى العصور التاريخية، واستمرت في الازدهار في عبادة ديميتر (Demeter) وفي طقوس أخرى عرفت مجتمعة بالـ "أسرار". ولكنها لم تَعُدْ المناسبات الاحتفالية الكبرى للعرض المسرحيّ وللإنشاد الشعريّ. لقد كان مكان هوميروس في الاحتفالات الرسمية التى تكرم الآلهة الأوليمبية التى يدين ببعضها كافة اليونانيين، مثل الألعاب الأوليمبية التى كانت تقام كل أربع سنوات والمخصصة للإله زيوس، والتى كانت عبادة بعضها تجمع كافة الإيونيين، مثل احتفال أبوللون في جزيرة ديلوس (Delos)، والتى كان بعضها احتفالات محليةً، مثل احتفال الـ: "بان أثينايا" (Pan Athenaea)، أى احتفال أثينا الجامع، المقام سنويًا فى أثينا. عندئذٍ كان المسرح الطقسيّ قد عفى عليه الزمن، إلا من بعض البقايا الأثرية، وبدلاً من المسرحيات الطقسية احتُفِي بالآلهة بوسائل أخرى تتطلب مشاركة أقل مباشرة وأقل بدائية بين البشر والآلهة.

وفي الأعم الأغلب كان المنشدون والمؤدُّون محترفين، وإنها لإحدى الحقائق المشوقة في التاريخ الاجتماعيّ أنهم كانوا أول من يشذ عن القاعدة الأزلية التى تقول إن الإنسان يعيش ويعمل ويموت داخل قبيلته أو مجتمعه. هناك إشارة إلى ذلك في الأوديسية عندما واجه راعى الخنازير يومايوس، بعد أن تم توبيخه لجلبه متسولاً أجنبيًا إلى مائدة القصر، واجه بكل مكر التهمة بتوجيه سؤال بلاغيّ: "لأنه من ذا الذى يدعو البتة غريبًا من الخارج ويحضره إلى هنا، إلا إذا كان واحدًا من المهنيين (demiorgoi)، أو عرافًا أو مداويًا للأوجاع، أو حطابًا فى الغابة، أو حتى شاعرًا ملهمًا باستطاعته أن يسحر [الناس] بأغنيته؟"(٤) إن إطار الإشارة هنا، بطبيعة الحال، هو الاحتفال الخاص والدنيويّ الصميم، وليس مهرجانًا دينيًا. ولكن عازف الطقوس الجوال، وحتى الفرقة المنظمة، مثل جماعات الآريوى (Arioi) في جزائر المجتمع (Society Islands)، وفى جزر هولا (Hula) في هاواى

---

(٤) Odyssey 17.382-85.

(Hawaii)، كانوا معروفين في مجتمعات بدائية أكثر بكثير. لقد كان الفنانون الجوالون مهمين في بلاد اليونان طوال تاريخها. فمحاورة أفلاطون "إيون" تستمد اسمها من الشاعر المرتِّق الجوال، إيون (Ion) من إفيسوس (Ephesus) في آسيا الصغرى. وعندما تبدأ المحاورة نجد إيون يخبر سقراط أنه قادم للتوّ من إيبداوروس (Epidaurus) حيث فاز بالجائزة الأولى لإنشاده شعر هوميروس في أعياد أسكليبيوس (Asclepius) الرباعية، وأنه يتوقع تمامًا أن ينجح بشكل مماثل في احتفال أثينا الجامع، الـــ: "بان أثينايا،" القادم في أثينا.

ربما أن عملية دمج التراث الشعبيّ الشفهيّ ونقص التركيز السياسيّ أدت إلى ظهور أكثر من إلياذة، وإلى ابتعادها أكثر وأكثر عن "الأصل". وكانت الدوافع المغرية للعبث بالنص، على أسس سياسية فقط، قوية للغاية. فبصفته المصدر الذى لا يبارى للتاريخ المبكر، أصبح هوميروس في أغلب الأحيان مصدر خجل للأثينيين، على سبيل المثال، الذين كان دورهم محدودًا في الحروب الوطنية الكبرى ضد طروادة، ولا يتناسب باضطراد مع دورهم المتصاعد في الشئون السياسية الإغريقية. ولكن أثينا في صراعها الحاد في القرن السادس مع ميجارا (Megara)، بغية السيطرة على جزيرة سلاميس (Salamis)، التي تتحكم في الميناء الأثينيّ، استطاعت أن تبرر دعواها على أسس تاريخية. إن الإلياذة تقول: "جلب أياكس (Ajax) اثنتا عشرة سفينة من سلاميس، وبعد أن أحضرهم، أرساهم جنبًا إلى جنب مع حشود الأثينيين."[٥] وردًا على ذلك لم يكن لدى ميجارا سوى ردّ واحد يتمثل في الدفع بالتزوير. ولم تكن دقة تاريخ هوميروس وكذلك ارتباطه بالنزاعات على الأراضي موضع تساؤل؛ لقد دفع الميجاريون بأن الجزء الخاص "بإحضار السفن" كانت تحريفًا أثينيًا متعمدًا، ولم يكن جزءًا من النص الأصليّ على الإطلاق.

(٥) Iliad 2.557-58.

وفى حالة قضية سلاميس فإن الباحثين السكندريين فى العصور المتأخرة مالوا إلى الاتفاق مع ميجارا. لقد اعتقدوا أن المزَيِّفَ كان بيسيستراتوس (Pisitratus)، طاغية أثينا من عام ٥٦٠ إلى ٥٢٧ قبل الميلاد، الذى أخذ مع سولون (Solon) جزيرة سلاميس من ميجارا. والأكثر أهمية من ذلك أن بيسيستراتوس هو ذاته صاحب الشهرة العريضة فى أنه حلَّ مشكلة النص الهومرىّ المعتمَد مرة واحدة وإلى الأبد، بأن جعله ثابتًا من قِبَلِ الخبراء وأخضعه للتدوين فى إصدار رسمىّ، إن جاز القول. هناك رواية منافسة تنسب هذا الدور إلى سولون، صاحب الإصلاح الدستورىّ الأثينىّ الضخم فى عام ٥٩٤ ق.م. وحسب تعبير ديوجينيس اللائرتىّ (Diogenes Laertius)، الذى كتب "سير وآراء الفلاسفة البارزين" فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، والذى يقتبس هنا من كتاب عن تاريخ ميجارا يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، فإن سولون هو الذى: "أمر أن ينشد الشعراء المرتِّلون الجوالون هوميروس فى نظام محدد، حتى عندما يتوقف المنشد الأول فإن الذى يليه يبدأ من ذات المكان."[٦]

أن تكون هناك نسخة أثينية قديمة نسبيًا من القرن السادس قبل الميلاد كامنة فى نصوصنا الحالية للإلياذة والأوديسية، أمرٌ يبدوا ظاهرًا من الدراسة الفاحصة للهجة الأشعار. وهناك ثمَّة سبب لقبول الرواية القائلة إن بيسيستراتوس هو الذى رعى هذه النسخة. أما النسبة إلى سولون فتبدو الرواية مشكوكًا فيها كمحاولة متأخرة لتحويل الفضل من طاغية إلى رجل أصبح عند الإغريق رمزًا للنبيل الأرستقراطىّ الدستورىّ المعتدل، مقابل الطغيان والاستبداد و"حكم الرعاع" فى آن واحد.

ويواجهنا هوميروس الذى يقدمه لنا بيزيستراتوس بمشكلتين. أولاهما هى الأبسط ومؤدَّاها أن نصوصنا الحالية من الشعر تنحدر من مخطوطات العصور الوسطى، ولا يعود أىٌّ منها إلى ما قبل القرن العاشر الميلادىّ، ومن شذرات

(٦) Diogenes, Lives and Opinions of Eminent Philosophers, 1.57.

عديدة على البردى يعود القليل منها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. كم تغير النص منذ زمن بيزيستراتوس عبْر أخطاء النساخ والرقابة أو عبْر أى من العلل الأخرى التى أصابت جميع النصوص القديمة فى انتقالها يدًا بيد؟ إن الإجابة تعتمد مبدئيًا على معارضة الاقتباسات المستفيضة من هوميروس من قبل أفلاطون وأرسطوطاليس والكتاب الإغريق الآخرين، وتتمثل فى أن هذه التغييرات بسيطة للغاية، وضئيلة حقًا بشكل ملحوظ، باستثناء بعض التغييرات اللفظية المهمة بالنسبة لعلماء اللغة فقط.

ولكن ما هو مدى قرب النسخة الأثينية المعَدَّة فى القرن السادس قبل الميلاد من الأصل. هنا لدينا القليل الذى نعتمد عليه. شىءٌ واحد يبدو مؤكدًا: لم يكن هناك عبث مفرط بجوهر الموضوع. ربما سمح النساخ الأثينيون لعاداتهم اللغوية أن تزحف من حين لآخر، وربما أنهم أيضًا أضافوا البيت المتعلق بإرساء أياكس لسفنه الاثنتى عشرة إلى جوار الأثينيين. ولكنهم لم يُحدِّثوا الأشعار على غير وعي، ونحن على يقين من ذلك، كما أنهم لم يشكلوا المتضمنات السياسية بأية طريقة جذرية لتتوافق مع متطلبات سياسة أثينا الخارجية فى القرن السادس. وفى الحقيقة فإنهم ما كانوا ليستطيعوا عمل ذلك ولو حاولوه بشق الأنفس. لقد كانت الأشعار معروفة جيدًا ومتغلغلة بعمق وإلى حدٍّ كبيرٍ فى عقول الإغريق، وبمعنى آخر فى المشاعر الدينية. وإلى جانب ذلك، كانت تعوز أثينا فى القرن السادس بشكل مطلق السلطة، السياسية أو الفكرية، لفرض نسخة مشوهة أو محرفة من هوميروس على الهللينيين الآخرين. لا شىء من هذه الافتراضات حاسم، من المؤكد، ولكنها تسمح للمؤرخ أن يتعامل مع إلياذته وأوديسيته بكل حرص ودائمًا بنوع من الشك، وتسمح له مع ذلك أن يتعامل مع نسخة معقولة قريبة من أشعار القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بقدر معْقول من الثقة.

عبر هذا التاريخ المظلم والمبكر لعملية النقل والأداء العلنى، والاحتفاظ بنصوص الأشعار، قد يكون هناك دور بعينه لمجموعة من المنشدين فى جزيرة خيوس لقبوا أنفسهم "الهوميريداى" (Homeridai) وهو لقب يعنى حرفيًا "أحفاد،" أو "المنحدرون من هوميروس". وكان هؤلاء منشدين محترفين، ومنتظمين على هيئة طائفة، وكانوا يدَّعون الانحدار مباشرة من هوميروس. لقد فقدت بداياتهم الأولى، ولكنهم عاشوا على الأقل حتى القرن الرابع قبل الميلاد، لأن أفلاطون يذكر فى محاورته "فايدروس" (Phaedrus) أن: "بعض الهوميريين، فيما أعتقد، ينشدون أبياتًا عن إيروس (Eros) من أشعار غير منشورة."[٧] وعلى الرغم من كل ما نعرفه، قد يكون للهومريين فى الحقيقة صلة قرابة بهوميروس. فبين الشعراء السلافونيين المُحْدَثِين توجد أمثلة بارزة عن انتقال الخبرة والمهارة داخل أسرة واحدة لأجيال عديدة، كما أن التخصص العائلىّ فى مختلف الحرف ظاهرة شائعة بشكل كاف فى المجتمعات البدائية والعتيقة. ولكن الأمر فى الحقيقة قليل الأهمية. وسواءٌ أكان هؤلاء الهومريون يَمُتُّون بصلة قرابة لهوميروس أم أن الأمر مجرد خيال مقبول، فإنهم كانوا المرجع المعترف به عن هوميروس لقرنين أو ثلاث. وباستطاعتنا أن نتأكد أنهم كانوا متحمسين لمعارضة أى جهد يبذل، من قِبَلِ بيسيستراتوس أو أى فرد آخر، لتقويض معرفتهم الفائقة ولإضعاف وضعهم المهنىّ الخاص بتقديم نص أعيدت كتابته كلية.

ومن ناحية كان الهومريون قادرين على تقديم نغمة مزيفة. وعمومًا فإن المنشدين كانوا يبدعون تلاواتهم بمداخل موجزة، فى بعض الأحيان من تأليفهم. وإلى هذا الحد كانوا يمثلون مرحلة انتقالية بين الشاعر الغنائىّ والممثل. وبصفتهم مُلاكًا معترفًا بهم لـــ: "الكتابات غير المنشورة" لهوميروس، كان بمقدور أعضاء من طائفة الهوميريين ادعاء تأليف هوميروس المباشر للمقدمات التى كتبوها.

(٧) Phaedrus 252b.

فالقليل الذى لا يزال باقيًا تم جمعه فى العصور القديمة المتأخرة وضم خمس قصائد أسطورية أطول تحت عنوان واحد هو "ترانيم هومرية" (Homeric Hymns)، وهو عنوان مضلل فى كل من جزئيه. لقد كانت أطول قصائده موجهة إلى أبوللون، وينتهى القسم الأول منها بهذه الأبيات الشخصية جدًا:

تذكرنى فى الآخرة، عندما يأتى هنا أى إنسان على الأرض، غريبًا قد شهد وعانى الكثير، ويسألكن: من تعتقدن، أيها الصبايا، أعذب المغنين الذين جاءوا إلى هنا؟ وفيمن تجدن متعتكن؟ بعدها تأتى الإجابة، كل على حدة وجميعًا، وبصوت واحد: "إنه الرجل الأعمى، وهو يعيش فى خيوس الصخرية. وأشعاره الأميز باستمرار؛ بالنسبة لى، سأحمل شهرتك على قدر ما أطوف عبر الأرض إلى مدن الإنسان ذات المواقع الجيدة، وسيصدقون أيضًا؛ لأن هذا شىء حقيقىّ."[٨]

وحتى ثوكيديديس، الأكثر حرصًا، وبأفضل معنى أكثر المؤرخين الذين أنتجهم العالم القديم شكًا، فإنه قَبِل صراحةً تأليف هوميروس لهذه الترنيمة، وكذلك الحكم الشخصىّ الذى تتضمنه الأبيات الختامية.[٩] وذلك حقيقة خطأ فى الحكم يثير الدهشة. فلغة الترانيم هوميرية، والمقارنة تنتهى تمامًا هنالك، لأنها على مستوى أدنى ليس فقط بوصفها أعمالاً أدبية، بل أيضًا فى عالمها الفكرىّ وفى نظرتها للآلهة.

"لأن هذا الشىء حقيقىّ." فإذا كان الإغريق قد اضطروا لتفسير قدرة هوميروس، الشاعر الضرير، على أن يغنى بحق عن أحداث وقعت منذ أربعة قرون سابقة لزمانه، كما كانوا يعتقدون جميعًا بلا استثناء، فإنهم أشاروا إلى الرواية التى وصلت إليهم جيلاً بعد جيل، وأشاروا إلى الومضة الإلهية. إنه "شاعرٌ مُلْهَم"، كما قال يومايوس راعى الخنازير، والكلمة اليونانية "ثيسبيس" (thespis)

(٨) Translated by H. G. Evelyn-White, in the Loeb Classical Library.

(٩) See Thucydides 3.104.4.

تعنى حرفيًا "ما أنتجه أو ما أظهره إله." وتزودنا تلك الكلمة اليونانية بالإطار الضروريّ للسطر الاستهلاليّ للإلياذة: "غنى، يا ربة، عن غضب أخيلّيوس بن بليوس (Peleus)."

وقد بدأ هيسيودوس ملحمته "أنساب الآلهة" (Theogonia) بافتتاحية أطول، أصبح فيها الابتهال البسيط رؤية كاملة التفتح وإلهامًا شخصيًا:

ويومًا من الأيام علّمت (ربات الفنون) هيسيودوس أنشودة مجيدة عندما كان يرعى حملانه على سفح (جبل) الهيليكون (Helicon) المقدس، وهذه الكلمة قالتها لى الربة أول ما قالت . . .

يا رعاة البوادى، أيتها الكائنات البائسة من العار، مجرد بطون، نحن نعرف كيف نتكلم أشياء كثيرة مكذوبة كما لو كانت حقيقية، ولكننا نعرف عندما نريد، أن ننبس بأشياء صادقة.

هكذا تكلمت بنات زيوس العظيم الجاهزات للكلام، واقتلعن عصا وأعطياها لى، فرع من شجرة زيتون قوية، شيء رائع، ونفخن فيّ صوتًا إلهيًا للاحتفاء بأمور ستكون، وأخرى كانت في سابق العصر والأوان، وأمرننى بالتغنى بجنس الآلهة المباركة الذين يتغنون باستمرار بأنفسهم أولاً وأخيرًا.

ويبدو صوت هيسيودوس الإلهيّ مثل اقتباس مباشر من وصف العراف كالخاس (Calchas): "الذى عرف أشياءً كانت وأشياءً ستكون وأشياءً كانت فى غابر الزمان."(١٠) هذه الصلة الوثيقة بين الشعر والمعرفة الإلهية للماضى والمستقبل وجدت تشخيصًا لها فى أورفيوس (Orpheos)، المغنى الأسطورى الشجى الذى تجمعت تحت اسمه كمية من الكتابات السرية والسحرية عبر القرون. ومما يؤكد هذا الأمر أن اليونانيين، عندما فكروا فى نسب هوميروس، كما كان لا

(١٠) Iliad 1.70.

بد أن يفعلوا، تتبعوا أسلافه لعشرة أجيل خلت، وتحديدًا حتى وصلوا به إلى أورفيوس.

سيكون من الخطأ أن نلقى بهذه الأشياء جانبًا وأن نعتبرها مجرد خيال شعريّ. فعندما تكلم الشاعر فيميوس (Phemius) فى الأوديسية قائلاً: "أنا معلم نفسى، لقد زرع الإله فى قلبى أناشيد من كل لون،"[11] كان هذا يعنى بالنسبة للشاعر ولمستمعيه ما تعنيه الكلمات حرفيًّا، ويجب أن يؤخذ كلامه كأى شىء آخر فى القصيدة، مثل قصة أوديسّيوس والكيكلوبس (Cyclops)، أو قصة أوديسّيوس وهو يُعَرِّف نفسه بالإشارة إلى قدرته على ثنى القوس الذى لم يكن لأحد غيره أن يشده. وأفضل شاهد على ذلك هو أوديسّيوس ذاته. ففى قصر ألكينوس (Alcinous)، ملك الفاياكيين، عندما ظهر البطل متخفيًا، كان هناك شاعر اسمه ديمودوكوس (Demodocus)، "حباه الإله بفن الأغنية أفضل من كل الآخرين."[12] وعندما حكى حكايات متنوعة حول الحرب الطروادية، قال له أوديسّيوس: "أيا ديمودوكوس، إننى أثنى عليك أكثر من [ثنائى على] كل البشر الفانين، سواءً أكانت ربة الحكمة بنت زيوس هى التى علمتك أم حقًا أبوللون. لأنك تغنى حقًّا بصدق عن مصير الآخيين . . . كما لو كنت أنت نفسك حاضرًا أو سمعته من آخر ممن كانوا هناك."[13] لقد تم بالفعل من قبل إيضاح معرفة ديمودوكوس الدقيقة: "لأنه هكذا أخبره فويبوس أبوللون فى نبوءته."[14]

لا يزال هناك صدى متاح فى رجل لم يكن يعرف هوميروس، ولم يشارك فى صيغه المتوارثة، هو الشاعر كارا كيرغيز (Kara Kirghis) من القرن التاسع عشر من منطقة شمال هندو كوش (Hindu Kush): "أستطيع أن أغنى كل أغنية

---

(11) Odyssey 22.347-48.

(12) Odyssey 8.44.

(13) Odyssey 8.487-91.

(14) Odyssey 8.79.

لأن الإله قد زرع موهبة الأغنية فى قلبى. إنه يمنحنى الكلمة على لسانى بدون أن أبحث عنها. لم أتعلم أيًا من الأغانى، فكل شيء ينبثق من كيانى الداخلى، من ذاتى."[١٥]

يستطيع حكم المؤرخ، بوضوح، أن يرتكز لا على الاعتقاد بالأصل الإلهىّ للأشعار، ولا على الفكرة السائدة ذات مرة أن القِدم الكافى مسوغ مناسب للحقيقة، فكما يقول التمهيد لرواية "هايمسكرينجِلا" (Heimskringla) التى تحكى أساطير ملوك الشمال من النورس (Norse): "لدينا دليل يثبت أن الرجال الكبار والحكماء اعتقدوا فى صدقها."[١٦] ويتبقى على المؤرخ بعد أن أثبت أن الإلياذة والأوديسية ليستا معاصرتين فى مظهرهما العام، أن يختبر مدى صحتهما بوصفهما صورة للماضى. هل كان هناك أبدًا وقت فى بلاد اليونان يعيش الناس فيه كما تحكى الأشعار، بعد أن ننزع عنها التدخل الخارق للطبيعة والقدرات فوق البشرية؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال: هل كانت هناك حرب طروادية؟

إن كافة الناس يعرفون القصة المثيرة لهاينريش شليمان (Heinrich Schleimann) التاجر الألمانى الذى تملكته الرؤية والحب للغة هوميروس، والذى حفر فى تربة آسيا الصغرى وأعاد اكتشاف مدينة طروادة. وعلى مبعدة ثلاثة أميال من مضيق الدردنيل (Dardanelles)، وفى مكان يسمى الآن حِسَّارلِك (Hissarlik)، كان يوجد تل يشتمل بالتأكيد على علامات على استيطان قديم. وبالتحليل الدقيق للتفاصيل الطبوغرافية فى الكتب القديمة، استنتج شليمان أنه توجد تحت التل بقايا مدينة إيليون (Ilion) القديمة التى أقام عليها الإغريق المتأخرون ما اعتقدوا أنه موقع طروادة، والتى عاشت بعد زوال الإمبراطورية الرومانية بقرون

---

(١٥) Quoted from C. M. Bowra, Heroic Poetry, The Macmillan Company, London, 1952, 41.

(١٦) Ibid., 40.

عديدة. وعندما حفر أنفاقًا فى التل وجد طبقات من الخرائب يعود تاريخ أقدمها، كما نعرف الآن، إلى حوالىّ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، وحملت اثنتان منها علامات لا تخطئها العين على التدمير العنيف. وكانت إحدى هذه الطبقات، السابعة حسب تقدير المكتشفين الأكثر حداثة، بدون شك مدينة برياموس (Priamus) وهيكتور. إن تاريخية القصة الهوميرية قد تم إثباتها أثريًا.

من العار أن نقلب مثل هذه القصة الجميلة ونادرة النجاح، ولكن بعض الحقائق المزعجة بشكل كاف تجبرنا على استنتاج أن هناك شيئًا خاطئًا يتعلق إما بطروادة شليمان وإما بطروادة هوميروس.[١٧] وبدون الدخول فى تحليل أثرىّ فنىّ، يمكننا أن نشير إلى ساحة المعركة. إن الإلياذة تعج بالتفاصيل، لأنها مادة القصة البطولية. هذه التفاصيل متماسكة فى الأساس إلى الحدّ الذى يمكن معه رسم خريطة مفيدة للمنطقة من مواصفات الشاعر. تلك الخريطة ومنطقة حِسَّارلِك ينقصهما التطابق، والتناقضات حاسمة حتى إنه ثبتت استحالة إعادة خلق مناظر جوهرية للإلياذة على الموقع الفعلىّ.

إن الأمر الأكثر إثارة من اختفاء طروادة هو الاختفاء الكامل للطرواديين أنفسهم. وبداية، فإنهم كأمة أو شعب لا يتمتعون إلى حدٍّ ما بخصائص مميزة فى الإلياذة. إنهم إغريق وأبطال تمامًا مثل خصومهم، من كافة الجوانب. وإذا كان البيت الاستهلالىّ للإلياذة يقدم أخيلّيوس، فإن سطر الختام يودع هيكتور، البطل الطروادىّ الرئيس: "هكذا أقاموا الطقوس الجنائزية لهيكتور، مروض الخيول." واسم هيكتور اسم يونانىّ (على عكس اسم والده برياموس). وحتى وقت متأخر فى منتصف القرن الثانى بعد ميلاد المسيح، كان المسافرون القادمون إلى طيبة فى بيوتيه (Boeotia) على أرض بلاد اليونان الأم يشاهدون قبره، قرب نافورة أوديب. وكان يقال لهم كيف تم جلب عظامه من طروادة بوصية من وحى ديلفى

(١٧) Carpenter, Folk Tale: Fiction and Saga, 51.

(Delphi). هذه الكسرة النموذجية من الخيال، من المحتم أنها تعنى وجود بطل يونانىّ قديم يُدعى هيكتور، وتسبق الأساطير التى حيكت حوله فى القصائد الهوميرية. وحتى بعد أن جعل هيرودوتوس هيكتور مقيمًا فى طروادة بالنسبة لكافة العصور التالية، فإن أهالى طيبة تمسكوا ببطلهم، وأعطى وحى ديلفى الموافقة الضرورية.

ومن بين حلفاء الطرواديين وجدت شعوب أخرى لم تكن بكل تأكيد إغريقية. فمن أجل واحد من هذه الشعوب، الكاريون، احتفظ الشاعر بكنية "باربارُوفونوى" (barbarophonoi)، أى الذين يتكلمون بكلام غير مفهوم. والكاريون معروفون جيدًا تاريخيًا، ويمنحنا قبر ملكهم فى القرن الرابع قبل الميلاد، ماوسولوس (Mausolus)، الكلمة الإنجليزية "ماوسوليوم" (Mausoleum).(*) كذلك فإن هناك حلفاءً آخرين للطرواديين يمكن التعرف عليهم تاريخيًا، ويساعد ذلك على تأكيد الحقيقة الغريبة التى مؤداها أن الطرواديين أنفسهم، مثل الميرميديين أتباع أخيلّيوس، اختفوا تمامًا. وحتى لو قبلنا التفسير القديم لاختفاء المدينة بأنها أزيلت تمامًا بواسطة الظافرين، حتى إنه "لا يوجد شكل محدد للأسوار،"(١٨) وهو ما يجعلنا ندخل فى صعوبات جديدة مع شليمان والذين أتوا من بعده ووجدوا آثارًا لأسوار، فمن الصعب أن نكتشف مثالاً تاريخيًا مشابهًا للفشل غير المفهوم للناس أنفسهم فى ترك أية آثار.

وعلى الجانب اليونانىّ هناك ارتباط بين أسماء الأماكن المهمة المذكورة فى الإلياذة ومراكز ما يسمى بالحضارة الموكينية، على الرغم من أن قلة الآثار التى عثر عليها فى موطن أوديسيوس، إيثاكه، تشكل استثناءً ملحوظًا. هذه الحضارة ازدهرت فى اليونان خلال الفترة من ١٤٠٠ وحتى ١٢٠٠ قبل الميلاد، وهنا يجب

(*) وتعنى الكلمة فى اللغة العربية مقبرة لعظيم، أو ضريح. [المترجم].

(١٨) Euripides, Helen, 108.

أن يظل اسم شليمان كأول مكتشف لا ينازعه أحد. ولكن، مرة أخرى، يفترق هوميروس وعلم الآثار بسرعة. وعلى كل، فإن هوميروس كان يعرف أين ازدهرت الحضارة الموكينية، وعاش أبطاله في قصور عصر البرونز التي لم تكن معروفة في أيامه. ذاك فعليًا كل ما عرفه عن أيام موكيناى (Mycenae)، حيث إن قائمة الأخطاء طويلة جدًا. فأسلحته تحمل شبهًا لتسليح عصره، غير شبيهة فعلاً بتسليح موكيناى، على الرغم من أنه يضعها في قالب متقادم من البرونز وليس من الحديد. كذلك فإن لآلهته معابد، ولم يبن الموكينيون معابد لآلهتهم. وبينما شيد الآخيون مقابر ضخمة ذات قباب لدفن رؤسائهم فيها، فإن الشاعر يشير إلى حرق الجثث. وهناك لمسة صغيرة أنيقة تعرضها معركة العربات التي سمع هوميروس عنها ولكنه لم يتخيل في حقيقة الأمر ماذا كان الناس يفعلون بها في الحرب. ولهذا فإن أبطالهم عادة ما يقودون عرباتهم من مخيماتهم لمسافة ميل أو أقل، ثم يترجلون بكل حرص، ثم يتقدمون إلى ساحة القتال على الأقدام.

ويكمن مفتاح أي تشوش في هوميروس في أسلوب الشعر الغنائيّ. فالمواد الخام للشعر كانت كمًّا من الصيغ المتوارثة، وطوال انتقالها عبر أجيال الشعراء تعرضت للتغيير بعد التغيير، جزئيًا بفعل متعمد من قبل الشعراء، سواءً لأسباب فنية أو لاعتبارات سياسية عادية، وجزئيًّا بالإهمال وعدم الاكتراث للدقة التاريخية، مجتمعة مع الأخطاء التي لا يمكن تجنبها في النقل الشفهيّ. أن توجد نواة موكينية في الإلياذة والأوديسية أمرٌ لا ريب فيه، ولكنها كانت صغيرة؛ والجزء الصغير الذي تبقى منها تم تحريفه بشكل يستعصي على الفهم والإدراك. وغالبًا ما كانت المادة متناقضة في ذاتها، إلا أن ذلك لم يكن حائلاً دون استخدامها. وتطلب التقليد الشعري صيغًا تقليدية، ولم يدقق الشاعر المؤديّ ولا المستمعون في التفاصيل. فالرجل الذي بدأ الحكاية بخطف هيلينا (Helen) يعرف باسم الإسكندر، وهو اسم يونانيّ، وباسم باريس (Paris)، الذي لم يكن كذلك (مثلما كان للمدينة اسمان هما

إيليون، وطروادة (Troia)). وهو يستحق الاحتقار وجبان غير بطولي، وهو مع ذلك بطل حقيقي. وكالمعتاد، بدأت الأجيال المتأخرة في البحث عن تفسيرات مقبولة لهذه الأمور، وهو الأمر الذى لم يفعله شاعر الإلياذة.

يمكننا أن نقبلها كأمر مسلم به أنه كانت هناك حرب طروادية فى الأزمنة الموكينية، وبشكل أصح أنه اندلعت حروب طروادية كثيرة. والحرب كانت أمرًا معتادًا فى العالم، ويوضح المصدر الأخيافى فى السجلات الحيثية أن أسلاف الهللينيين خاضوا حروبًا فى آسيا الصغرى، فى العصور السابقة؛ حتى إنه من المتصور أن تكون الحرب قامت من أجل امرأة. يقول هيرودوتوس: "إن شعوب آسيا عندما تُخطف نساؤهم لا يقيمون اعتبارًا لذلك، بينما حشد الإغريق من أجل امرأة إسبرطية واحدة حملة ضخمة، وقدموا إلى آسيا، ودمروا قوة بريامُوس."(١٩)

ولكن حرب السنوات العشر، أو أية حرب لعدد أقل من السنين أمر مستحيل. "لو أننى كنت فى ريعان الشباب وقدرتى راسخة، مثلما كانت عندما نشبت المعركة بيننا وبين أهالى إيليس (Elis)، حول غارة من الماشية . . . كانت الغنيمة التى سقناها سويًا خارج السهل وافرة بشكل بالغ، خمسين قطيعًا من الماشية، ومثلها من قطعان الغنم، ومجموعات كثيرة من الخنازير، وقطعان عريضة عديدة من الماعز، ومائة وخمسين من الخيل، جميعها من إناث الخيل. . . . وكان نيليوس (Neleus) سعيدًا فى فؤاده أن هذا القدر الكبير من الغنيمة وقع فى يدى فى أول مرة أذهب فيها إلى الحرب."(٢٠)

كانت هذه حربًا نمطية كما يسردها نستور (Nestor)، غارة من أجل جلب الغنائم. وحتى وإن تكررت عامًا بعد آخر، فإنها تظل مجرد غارات فردية. هناك منظر فى الكتاب الثالث من الإلياذة تجلس فيه هيلينا جنبًا إلى جنب مع بريامُوس

---

(١٩) Herodotus 1.4.

(٢٠) Iliad 11.670-84.

على شرفات المزاغل فى طروادة، وتحدد للملك الشيخ هوية أجاممنون (Agamemnon) وأوديسّيوس وبضعة أبطال آخيين. قد يكون لهذا الأمر معنى فى بداية الحرب، ولكنه يفتقر إلى المعنى فى السنة العاشرة (إلا إذا كنا على استعداد لتصديق أن الشاعر لم يتمكن من إيجاد وسيلة أفضل يقدم بمقتضاها بعض التفاصيل قليلة الأهمية). وفى الإمكان أيضًا أن يكون له معنى فى حرب قصيرة، وربما يكون هذا تصويرًا للطريقة التى احتفظ فيها الشعر بجزء تقليديّ من القصة عندما امتد أمد الحرب إلى عشر سنوات، وأصبح فيها هذا الجزء غير مناسب منطقيًا. وبينما كانت قصة الحرب تتنامى أكثر وأكثر، أهمل الشعراء عمل الترتيبات المناسبة لمجندين جدد يحلون محل الأفراد الصرعى، ولإطعام الذين قاموا بالحصار والمحاصَرين، أو لوسيلة اتصال بين أرض المعركة والقواعد فى الوطن بالنسبة للإغريق.

إن تمجيد الحوادث غير المهمة أمر شائع فى الشعر الملحميّ. وتحكى "أنشودة رولان" (Song of Roland) الفرنسية عن معركة هائلة عند مدينة رونسيفو (Roncevaux) عام ٧٧٨م دارت بين جيش الإمبراطور شارلمان (Charlemagne) والساراكيين.(*) ومثل هوميروس، فإن شاعر الملحمة الفرنسية غير معروف، ولكنه عاش بالتأكيد فى القرن الثانى عشر، إبان الحروب الصليبية. وخلاف هوميروس، كان يستطيع القراءة، وكانت لديه وسيلة للحصول على السجلات التاريخية التى يقول بوضوح إنه استخدمها. ولكن الحقائق هى كالآتى: إن المعركة الفعلية عند رونسيفو كانت عبارة عن اشتباك غير خطير فى جبال البرانس (Pyrenees) بين فصيل صغير من جيش شارلمان وبعض المهاجمين الباسك (Basque). ولم تكن المعركة مهمة بقدر أنها لم تكن غير صليبية. كذلك فإن الزعماء الساراكيين الاثنى عشر وجيشهم المكون من أربعمائة ألف جندي فى

(*) أى الشرقيون أو المسلمون العرب. [المترجم].

القصيدة هم محض اختراع، والبعض منهم حتى كان يحمل أسماءً ألمانية وبيزنطية. كذلك فإن كافة التفاصيل الموجودة فى الخلفية غير صحيحة.

فى الإمكان التحقق من أنشودة رولان بمناظرتها بالسجلات المكتوبة. هذا الأمر غير ممكن بالنسبة للإلياذة والأوديسية. وحتى فيما يتعلق بالتفاصيل التاريخية، لا توجد وسيلة لإصلاح عملية التشويه وإعادة تحديد النواة الأصلية. إن المقارنة مع أمثلة أخرى من النوع ذاته تقودنا إلى ما أطلق عليه ريس كاربينتر (Rys Carpenter) "نظرية . . . مؤدَّاها أنه بقدر ما يبدو الشاعر الشفهىّ عالمًا بحادث بعيد بقدر ما قَلَّت فى الحقيقة معرفته به، وبقدرِ ما كان يخترع بالتأكيد."[٢١]

تشترك أنشودة رولان أيضًا فى صفة سلبية أخرى مع الإلياذة والأوديسية. إنها ليست معاصرة فى أحوالها الاجتماعية، وفى المسائل السياسية، وفى التفاصيل حول الحروب والمحاربين. ولا يرجع ذلك إلى أنها تنقصها الواقعية. وعلى العكس من هذا، إن ذلك يرجع إلى جوهر الشعر البطولىّ: "لأن الأبطال يتحركون فيما يفترض أنه عالم حقيقىّ، فمن اللازم أن تُرسم خلفياتهم وظروفهم بواقعية وموضوعية"[٢٢] على الدوام. وبشكل محدد فإن خلفية رولان هى فرنسا التى تسبق زمن الشاعر بحوالىّ قرن، كما لو أن الصيغ والتقاليد المنحدرة من أيام شارلمان تجمدت حوالىّ ألف سنة ثم تغيرت تغيرًا قليلاً بعد ذلك. ويوحى هذا بما تميل إليه التلميحات الموجودة فى الأدب اليونانىّ، وبما تميل الدراسات المقارنة إلى تأكيده: أن الصور الهوميرية متشابهة. فعالم أوديسيُوس ليس عالم القرن السابع قبل الميلاد، ولا عالم العصر الموكينىّ منذ خمسة أو ستة أو سبعة قرون خلت.(*)

---

(٢١) Carpenter, Folk Tale: Fiction and Saga, 32.

(٢٢) Bowra, Heroic Poetry, 132.

(*) يأتينا دليل مهم جديد لهذا الاستنتاج من الاقتراح المعلن عنه كثيرًا بواسطة مايكل فينتريس (Michael Ventris) وجون تشادويك (John Chadwick)، أن لغة الألواح الموكينية هى اللغة اليونانية. إن قراءتهم المبدئية التى نشرت فى مجلة الدراسات الهللينية لعام ١٩٥٣ تكشف

وإذا كان ولا بد من تحديدها زمنيًا، حيث يحتم علينا كل ما نعرفه عن الشعر البطوليّ، فإن القرون الأكثر ترجيحًا تبدو وأنها العاشر والتاسع. عندئذٍ كانت السنون الطويلة للتجوال والتغلغل قد انقضت، وكان امتزاج العرق والثقافة قد اكتمل، وكانت الكارثة التى هوت بالحضارة الموكينية قد تم نسيانها. عندئذٍ كان تاريخ اليونانيين أنفسهم قد بدأ.

وبشكل جوهرى فإن صورة الخلفية التى قدمتها الأشعار مترابطة. هناك بعض المفارقات التاريخية العالقة فى بعض الأماكن، وبعضها قديم جدًا وبعضها الآخر حديث جدًا، وبخاصة فى الأوديسية، وهى مجرد انعكاس لزمن الشاعر ذاته. إن دقة الخلفية، بالنسبة للدراسة التاريخية، أمر منفصل تمامًا عن عدم الدقة الواضحة فى الروايات والتفصيل السرديّ والحدث. لقد كتب أرسطوطاليس قائلاً: "يستحق هوميروس الإطراء من جوانب كثيرة، وخصوصًا لأنه، دون الشعراء، يدرك الجزء الذى يجب أن يأخذه شخصيًّا. فالشاعر يجب أن يتكلم بشخصه قليلاً كلما أمكن. . . ."[٢٣] لكن هذه الفضيلة الغنية تصبح رذيلة بالنسبة لشعراء عالم آخر؛ ويجب ألا تجعلنا نسيء الحكم، كما فعلت بناقد ليس قليل الموهبة مثل كوليريدج (Coleridge). لقد خلص كوليريدج الرومانسيّ إلى أنه: "لا توجد أية ذاتية من أى نوع فى الشعر الهومريّ،" مثلما أنه يفتقر إلى: "ذاتية الشاعر، كما هو الحال عند ميلتون (Milton)، الذى يضع ذاته قبل ذاته فى كل شيء يكتبه،" وكذلك إلى: "ذاتية الشخصية (persona)، أو الشخصية الدرامية، كما هو الحال فى جميع إبداعات شكسبير (Shakespeare) العظيمة."[٢٤] هذه الوقفة عن بُعْد من الشخصيات، وسلوكها الذى هو علامة الحِرَفيّة الهوميرية، لا تمت بصلة من أى

(فى حال صحتها) عن عالم يختلف تمامًا عن عالم هوميروس، ويفوقه كثيرًا من الناحية المادية، كما نعرف من قبل من خلال الآثار؛ ومن ناحية النظم فإنه كان أكثر تعقيدًا ويذكرنا بالشرق الأدنى القديم.

(٢٣) Poetics 24.13.

(٢٤) Table Talk, May 12, 1830.

نوع إلى عدم الاكتراث أو اللامبالاة، أو بعدم استعداد الشاعر أن يندمج بشخصه. لقد نقل الشاعر مواده الموروثة من الماضي بدقة باردة بشكل مضلل. ويُمكننا ذلك من تناول مواده كما لو كانت مواد خامًا لدراسة عالم حقيقيّ لأناس حقيقيين، عالم من التاريخ وليس من الخيال. ولكنه أيضًا يحيط تحليلنا ببعض الشراك، لأننا نواجه باستمرار إغراء أن نتجاهل الدلالات فى الانتقاء الواعى للشاعر، وأن نزيح جانبًا الارتباكات والمتناقضات الواضحة فى المسائل الاجتماعية والسياسية (تمييزًا لها عن الحوادث السردية) كأشياء لا تزيد عن كونها مظاهر إهمال لشاعر لم يكن فى واقع الأمر حريصًا.

وبطبيعة الحال لا بد وأن يكون هناك قدر من الرخصة للمؤرخ فى تثبيت عالم أوديسيوس فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. وهذه الرخصة يجب أن تمتد أبعد من ذلك. فهناك أقسام فى القصيدتين، مثل قصة زنا آريس (Ares) بأفروديتى (Aphrodite)، أو منظر هاديس (Hades) فى الكتاب الأخير من الأوديسية، تبدو وكأنها أصل متأخر عن أصول الأجزاء الأخرى. وطبقًا للرخصة ذاتها فإننا نتجاهل هذا التمييز بشكل أساسيّ، مثلما نتحدث فى بعض الأحيان عن شخص واحد يدعى هوميروس، كما لو كانت الإلياذة والأوديسية عملين لمؤلفين من عصر واحد، ومن إبداعات رجل واحد. وبالضرورة يحدث بعض التحريف، ولكن باستطاعتنا تحديد زاوية الخطأ إلى أدنى حدٍّ مقبول؛ لأن الأنماط التى نتصورها ترتكز على تحليل شامل للأشعار، وليس فقط على بيت واحد، أو على قسم بعينه، أو على حادث سرديّ؛ لأن كل الأقسام، مبكرة أو متأخرة، تم بناؤها إلى حدٍّ كبير من الصيغ القديمة، ولأن التاريخ اليونانيّ المتأخر ودراسة المجتمعات الأخرى تقدمان معًا معيارًا كبيرًا للتحكم. إنها الملاءمة، فى نهاية الأمر، أكثر من الرخصة، التى تقترح الحفاظ على مدة السنين العشر للحرب، وعلى أخيلّيوس وهيكتور وأوديسّيوس وعلى جميع الأسماء المشهورة الأخرى، بوصفها علامات مفيدة للإشارة إلى الملك "اكس" أو الزعيم "واى" غير المعروفين لنا.

الفصل الثالث

الثروة والعمل

في الكتاب الثاني من الإلياذة يصنف الشاعر جحافل الإغريق المتصارعة بأسماء قادتهم، ويذكر السفن التي جلبها كل واحدٍ منهم. "لكن الحشد (بمعنى العامة) لم يكن بمقدوري أن أسردهم ولا أن أسميهم، حتى لو كنت أمتلك تسعة ألسنة (أيْ لغات) أو تسعة أفواه."[1] وتبلغ القائمة ألفًا ومائة وستًا وثمانين سفينة، الأمر الذي يعني، مع أقل حصرٍ، أكثر من ستين ألف رجلٍ. وهذا العدد ليس قابلاً للتصديق تمامًا مثل رقم الأربعمائة ألف من الشرقيين (الساراكيين) (Saracenes) في أنشودة رولان (The Song of Roland). لقد كان عالم أوديسّيوس (Odysseus) صغيرًا فيما يتعلق بأعداد سكانه. وليست هناك إحصاءات ولا وسائل لعمل تخمينات جيدة، ولكن المواقع التي حددها الأثريون والتي تبلغ مساحتها خمسة فدادين، بالإضافة إلى ما نعرفه عن القرون المتأخرة، لا تترك مجالاً للشك في أن سكان المجتمعات، كلٌ على حدة -كانوا يُعدون بأربعة أرقامٍ، وغالبًا حتى بثلاثةٍ: وأن الأرقام الواردة في الأشعار- سواءً للسفن أو لقطعان الماشية أو للعبيد أو للنبلاء، غير واقعية وخاطئة بشكل ثابت بما تشتمل عليه من مبالغة.

وكان أوديسّيوس يقود واحدة من أصغر الفرق في قائمة السفن، مجرد اثنتي عشرة سفينة، بينما كانت لدى أجاممنون (Agamemnon) مائة ولدى الأركاديين القاطنين داخل شبه جزيرة البيلوبونيسوس (Peloponnese) ستون آخرون. وقد نودي به ملكًا على الكيفالليين (Cephallenians) الذين يقطنون ثلاثة جزر متجاورة في البحر الإيوني: كيفاللينيا (Cephallenia)، وإيثاكه (Ithaca)،

---

(1) Iliad 2.488-89.

وزاكينثوس (Zacynthus) بالإضافة إلى موقعين آخرين على الساحل المجاور. ولكنه كان يرتبط بشكل مباشر على الدوام مع إيثاكه تحديدًا. كذلك فإنه على جزيرة إيثاكه، وليس على أرض واق الواق التى تجول فيها مؤخرًا، يمكننا فحص عالم أوديسيّوس بشكل رئيسيّ.

وكان سكان الجزيرة يقعون تحت سيطرة مجموعة من الأسر النبيلة التى شارك بعض رجالها فى الحملة ضدّ طروادة، بينما بقى آخرون فى الوطن. من هؤلاء الآخرين كان مينتور (Mentor)، الذى أوكل أوديسيّوس إلى عينه الساهرة زوجته الشابه بينيلوبى (Penelope)، التى قدمت من أرض أخرى، وطفله الوحيد المولود حديثًا، تليماخوس (Telemachus)، عندما غادرها هو شخصيًّا. ولمدة عشرين عامًا حدث فراغ غريب فى القيادة السياسية لإيثاكه. ولم يعاود والد أوديسيّوس، لائيرتيس (Laertes)، ارتقاء العرش على الرغم من كونه لا يزال على قيد الحياة. ولم يكن بمقدور بينيلوبى أن تحكم لكونها إمرأة. ولم يكن مينتور وصيًّا بأىّ معنى قانونيّ، بل مجرّد شخصية حسنة النية، وغير مؤثر، ولم يتصرف بوصفه وصيًّا على العرش.

ولمدة عشر سنوات ساد وضع مشابه فى طول العالم اليونانيّ وعرضه، بينما كان الملوك باستثناء القليلين، فى الحرب. ومع تدمير طروادة، وعودة الأبطال العظيمة إلى أوطانهم، استؤنفت الحياة فى مساراتها الطبيعية. وتم استبدال الصرعى من الملوك، وواجه البعض ممن عادوا، مثل أجاممنون مغتصبى العروش والقتلة، وعاد الآخرون إلى سُدَّة الحكم وتبعاته. ولكن بالنسبة لأوديسيّوس كان هناك مصير مختلف. فلأنه أغضب الرب بوسيدون (Poseidon) تقاذفته الأمواج لمدة عشر سنين أخرى قبل أن يتم إنقاذه، إلى حدّ كبير عبر تدخل الإلهة أثينا (Athena)، وقبل أن يُسمح له بالعودة إلى إيثاكه. هذه السنون العشر هى التى حيرت شعب إيثاكه. فلا أحد من هيللاس (Hellas) عرف ما حل بأوديسيّوس، وما

إذا كان قد مات إبّان مرحلة العودة من طروادة، أم ما يزال على قيد الحياة في مكان ما في العالم الخارجيّ. وقد وضع هذا الشك الأساس للموضوع الثاني في القصيدة وهو قصة طالبي يد بينيلوبي (Penelope).

ومرة أخرى هناك مشكلة في الأعداد. فلا أقل من مائة وثمانية نبلاء، ستة وخمسون من إيثاكه والجزر الأخرى الواقعة تحت حكم أوديسّيوس، واثنان وخمسون ممن مملكة مجاورة على القارة، يقول الشاعر، كانوا يحاولون التودد إلى بينيلوبي. وكان مقدرًا لها أن تُجبَر على اختيار خليفة لأوديسّيوس من بينهم. وهذا لم يكن توددًا عاديًا، يشبه ما تعارف عليه الناس قديمًا وحديثًا. وباستثناء أنهم دأبوا على النوم في بيوتهم، استولى الخُطّاب حرفيًا على محتويات منزل أوديسّيوس الغائب، وكانوا بانتظام يأكلون ويشربون من مخازنه الشاسعة: "فلا يملك عشرون رجلاً مجتمعين مثل هذه الثروة،" طبقًا لكلام راعي الخنازير يومايوس (Eumaeus).[٢] ولمدة ثلاثة أعوام دافعت بينيلوبي عن نفسها بمحاولات للتأجيل، ولكن مقاومتها بدأت في الانهيار. وكان الاحتفال الصاخب الذي لا يتوقف في المنزل، واليقين المتنامي بأن أوديسّيوس لن يعود أبدًا، والتهديدات المكشوفة من قِبل الخطاب، الموجهة علنًا لتليماخوس: "ستستهلك وسائل عيشك وممتلكاتك،"[٣] كانت كلها أمور لها تأثيرها. وفي الوقت المناسب تمامًا عاد أوديسّيوس متخفيًا في شكل شحاذٍ متجول. واستخدم كل مكره وبسالته وقليلاً من السحر، ونجح في التخلص من الخُطّاب ذبحًا؛ وبالتدخل النهائيّ لأثينا، نجح في استعادة وضعه رئيسًا للبيت، وملكًا على إيثاكه.

وبعيدًا عن بلاده كانت حياة أوديسّيوس سلسلة طويلة من الصراعات مع السحرة والعمالقة والحوريات؛ ولكن لا يوجد أيّ شيء من هذا القبيل في قصة

---

(٢) Odyssey 14.98-99.

(٣) Odyssey 2.123.

إيثاكه. فعلى الجزيرة نواجه بمجتمع إنسانيّ فقط (شاملاً أثينا الحاضرة باستمرار، بكل تأكيد؛ ولكن بمعنى أن الآلهة الإغريقية كانوا على الدوام جزءًا من المجتمع الإنسانيّ، ويعملون عبر الأحلام والنبوءات والكهانة، وعبر علامات أخرى). نفس الشيء يصدق على الإلياذة؛ فيما يتعلق بحكاية الأيام القليلة الواقعة بين الإهانة الصادرة عن أجاممنون وبين مصرع هيكتور (Hector) على يدى أخيليوس (Achilles). أما بالنسبة للحبكة الرئيسية لموضوع إيثاكه، فإن طبقة النبلاء توفر كافة الشخصيات. وتستعرض الأوديسية أناسًا آخرين على الجزيرة، ولكنهم على نطاق واسع دعامات للمسرح، وأنماطٍ من الدعامات: يومايوس راعى الخنازير، والمربية العجوز يوريكليا (Euryclea)، وفيميوس (Phemius) المنشد، والمجهولون "مقطعو اللحوم"، والبحارة ووصيفات القصر، والحاشية المتنوعة. ومعنى الشاعر واضح: على أرض المعركة، كما فى صراع القوى الذى هو موضوع إيثاكه، كان أصحاب الدور هم الأرستقراطيون وحدهم.

يوجد شق أفقيٌّ عميق مميز لعالم الأشعار الهوميرية. وفوق ذلك الخط كان يوجد الأفاضل، الــ: "أريستوى" (aristoi)، وهى كلمة تعنى حرفيًا "أفضل الناس"، وتشير إلى النبلاء بالوراثة الذين يمتلكون معظم الثروة وكافة السلطات، فى الحرب وفى السلام. وتحت ذلك الخط كان يوجد كافة الآخرين، الذين لم يكن لهم اصطلاح فنيٌّ يجمعهم، العامة أو الجماهير. وكان من النادر تخطى الفجوة بين الاثنين، إلا بمصادفات من الحروب والغارات. وكان الاقتصاد منظمًا بحيث إن تكوين الثروات ومن ثمَّ ظهور نبلاء جدد من رابع المستحيلات. وكان الزواج مرتبطًا بالطبقات بشكل صارم، حتى إن الباب الآخر للتقدم الاجتماعيّ كان أيضًا مغلقًا بإحكام.

وتحت الخطِّ الرئيسى كانت هناك تقسيمات أخرى متنوعة، ولكنها على عكس التمييز المبدئيّ بين النبلاء والعامة، تبدو مشوشة ولا يمكن غالبًا تحديدها. وحتى التمييز الواضح البساطة، مثل الموجود بين العبد والحر، فإنه لا يتبدى

بوضوح ظاهر. فكلمة "دريستر" (drester) التى تعنى "الشخص الذى يعمل أو يخدم" تستخدم فى الأوديسية فى حالة الحرّ وغير الحرّ على حدّ سواء. كذلك فإن العمل الذى يقومون به، والمعاملة التى يتلقونها على أيدى أسيادهم كما هو واضح فى نفسية الشاعر، لا يمكن التمييز بينهما.

لقد وجدت أعداد من العبيد، وكانوا ممتلكات قابلة للاستغناء عنها حسب الإرادة. وبدقة أكثر، فإنهم كانوا من النساء المستعبدات، لأن الحروب والغارات كانت المنبع الرئيسىّ لسدّ الحاجة، وهناك سبب أو مبررّ ضئيل، اقتصادى أو أخلاقىّ، للإبقاء على حياة المهزومين. وكان الأبطال عادة يقتلون الذكور ويحملون معهم الإناث، بغض النظر عن مرتبتهم أو مركزهم. فقبل أن يؤدى صلاته من أجل ابنه، قال هيكتور الذى كان يعرف مصيره المحتوم، لزوجته: "لكننى لا أهتم كثيرًا بحزن الطرواديين بعد ذلك. . . بل لحزنك عندما يحملك أحد الآخيين المرتدين البرونز وأنت تدمعين، وستحلين بأرجوس (Argos)، تعملين على النول تحت إمرة امرأة أخرى، وستجلبين الماء من ميسّيس (Messis)، ومن هيبيريا (Hyperia)، مجبرة على ذلك، وفوق كاهلك الكثير من الضغوط."[٤]

لم يكن هيكتور فى حاجة إلى مساعدة أبوللون (Apollo) للتنبؤ بالمستقبل. فلم يحدث أبدًا فى تاريخ اليونان أن سارت الأمور على غير هذا المنوال، فأشخاص وممتلكات الجانب المهزوم كانت تذهب إلى المنتصر، لكى يتصرف فيها كيفما شاء. ولكن هيكتور أبدى انضباطًا كريمًا، لأن نبوءته لم تكن كاملة. لقد كان مكان الإماء فى المنزل، للغسيل والحياكة والتنظيف وطحن الحبوب، والخدمة الخصوصية. وإذا كنّ شابات، على أية حال، كان مكانهن أيضًا سرير السيد. ويخبرنا الشاعر عن المربية العجوز يوريكليا أن: "لاثيرتيس اشتراها مع بعض ممتلكاته عندما كانت لا تزال فى ريعان شبابها... لكنه لم يضاجعها فى سريره

(٤) Iliad 6.450-58.

إطلاقًا، وتجنب غضب زوجته.[٥] إنها ندرة سلوك لانيريتس، والوعد بغضب زوجه، هو الذى تطلب هذا التعليق الخاص. فلا العادة ولا الأخلاق تطلبت مثل هذا القدر من الإحجام والتعفف.

ومن عديم الجدوى أن نبحث عن الأرقام هنا. لقد نُشر أنه كانت لدى أوديسيّوس خمسون عبدة من الإناث، ولكن ذلك بالتأكيد رقم مستدير مريح، واستُخدم الرقم ذاته أيضًا بالنسبة لأسرة الملك ألكينوس (Alcinous) ملك الفاياكيين. وكان هناك أيضًا أناس يعيشون فى الرقّ، مثل راعى الخنازير يومايوس، الذى وُلِدَ نبيلاً واختطف فى طفولته من قِبَلِ التجار الفينيقيين وبيع فى سوق النخاسة. ومثلهم مثل النساء، كان العبيد الذكور يخدمون فى المنازل، وفى الحقول وفى مزارع العنب، وليس كخدم أو حجابٍ خارج المنازل على الإطلاق.

وفيما يتعلق بأهالى إيثاكه من غير العبيد، فإن بعض السكان الأحرار الذين شكلوا معظم المجتمع كانوا أرباب بيوت مستقلين، رعاةً أحرارًا وفلاحين يمتلكون حيازاتهم (على الرغم من أن الشاعر لا يخبرنا بشىء عنهم)، وآخرين كانوا متخصصين فى بعض الحرف، نجارين وصناع معادن، وعرافين ومُنشدين وأطباء. ولأنهم كانوا يقومون ببعض الأمور الضرورية المعينة وبطريقة لم يكن بمقدور سادتهم ولا غير المتخصصين من بين أبنائهم أن يجاروهم، فإن هؤلاء الرجال الذين كانوا حفنة فى أعدادهم، كانوا يسبحون فى وسط الهواء فى سلم الطبقات الاجتماعية. وكان باستطاعة العرافين والأطباء أن يصيروا حتى نبلاء؛ لكن الآخرين -على الرغم من كونهم قريبين من الطبقة النبيلة، ومن كونهم حتى يقاسمونها جوانب كثيرة من حياتها- فإنهم لم يكونوا تحديدًا من عِدَادِها، كما تشهد بذلك معاملة وسلوك المنشد فيميوس. لقد أطلق يومايوس، كما نذكر، على هؤلاء جميعًا اسم الـ: "ديميورجوى" (demiourgoi)، الذى يعنى حرفيًا "أولئك الذين

---

(٥) Odyssey 1.430-33.

يخدمون الشعب" (وذات مرة ألصقت بينيلوبى نفس اللقب الفئوى بالمنادين). وعلى أساس هذه الكلمة المستخدمة فى الأشعار الهوميرية فقط فى هاتين الفقرتين اقترح البعض أن الـديميورجوى كانوا يعملون بطريقة معروفة جدًّا بين مجموعات بدائية وقديمة، مثل جماعات الـ: "كابيلى" (Kabyle) فى الجزائر على سبيل المثال. "والمتخصص الآخر هو الحداد، الذى كان أيضًا دخيلاً [على المجتمع]" لقد كان القرويون يزودونه بمنزل، وكانت كل أسرة تدفع له جزءًا محددًا من معاشه السنوى، حبوبًا أو منتجًا آخر."[٦] ولسوء الحظ فإن الأدلة بالنسبة لعالم هوميروس أبعد من أن تكون واضحة أو قاطعة.

لقد حدث ذات مرة عندما أراد نستور (Nestor) وهو فى بلده أن يقدم أضحية أن أصدر أوامره إلى الخدم، قائلاً: "اطلب من صائغ الذهب لائركيس (Laerkes) الحضور طرفنا، حتى يطلى قرنى البقرة بالذهب. . . وحضر الصائغ، ومعه أدوات الصائغ فى يديه، مستلزمات الحرفة، السندان والمطرقة وملاقط النار جيدة الصنع التى يشكل بها الذهب . . . وقدّم الفارس المُسن نستور الذهب، وغطى الصائغ بعدها بمهارة القرنين بالذهب."[٧] ولم يوضح الشاعر هنا مكانة صائغ الذهب ولا حتى مكان إقامته، على عكس ما جاء فى الإلياذة حول: "كتلة الحديد غير المصاغة" كبيرة الحجم التى قدمها أخيلّيوس من الغنيمة فى مباراة رمى الأثقال. لقد كان الحديد الاختبار والجائزة للفائز فى آن واحد. وكان يحصل عليها، كما قال أخيلّيوس: "ليستعملها خمسة أعوام كاملة، لأنه لا الراعى ولا المزارع سيضطر إلى الذهاب إلى المدينة بسبب نقص فى الحديد، ولكن ذلك سيفى بالغرض."[٨]

---

(٦) Carleton S. Coon, Caravan: The Story of the Middle East, Henry Holt and Company, New York, 1951, 305.

(٧) Odyssey 3.425-38.

(٨) Iliad 21.441-52.

وبالرغم من أنه لم يذكر شيئًا عن المكافأة، فإن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن كل أسرة في المجتمع كانت تعطي الحداد أو غيره من الديميورجوي نصيبًا سنويًا محددًا. لقد كان في الإمكان أن يحصلوا على أجرهم إبان اشتغالهم، بشرط أن يكونوا متاحين للجمهور، لكافة الناس (demos). هذه الإتاحة سوف توضح دلالة الكلمة بقدر كافٍ تمامًا.

وبالإضافة إلى ذلك أظهر يومايوس صفة خاصة للديميورجوي عندما سأل، قائلاً: "من ذا الذي يستدعي غريبًا من خارج الدار... إلا إذا كان واحدًا من خدام الشعب" (الديميوروجوي)، ومرة أخرى تتضح الدلالة المشابهة عند جماعات كابيلي الجزائرية). هل كان هؤلاء الديميورجوي مفكرين ومنشدين جوالين ينتقلون عندئذ من مجتمع إلى مجتمع طبقًا لبرنامج محددٍ نوعًا ما؟ إن منطق سؤال يومايوس في واقع الأمر هو أن جميع الأغراب المدعوين محترفون؛ ولكنه لا يعني أن كافة المحترفين كانوا أغرابًا. ربما كان البعض منهم كذلك وليس البعض الآخر، وربما أن البعض الثالث لم يكن مضطرًا أن يعمل طبقًا لبرنامج أو في دائرة على الإطلاق. وكان المنادون بكل تأكيد دائمي الإقامة في المكان، ومنتظمين وأعضاءً كاملي العضوية في المجتمع. ربما أن المنشدين كانوا يتجولون قليلاً، وأنهم كانوا في أيام الشاعر يرتحلون طوال الوقت. أما فيما يتعلق بالآخرين، فبكل بساطة لا توجد لدينا معلوماتٌ عنهم.

وعلى الرغم من أنه كان لا يمكن الاستغناء عن الديميورجوي، فإن دورهم الوظيفيّ في الممتلكات، وكذلك نوعيته، كان محدودًا للغاية. فبالنسبة للعمل الأساسيّ في المراعي وفلاحة الحقول والإشراف علي المنزل والخدمة فيه لم تكن هناك حاجة لمتخصصين. وكان كل رجل في إيثاكه قادرًا على الرعي والحرث وقطع الأحجار، وكان أولئك العامة ممن يمتلكون حيازاتهم يعملون فيها بأنفسهم، بينما كان آخرون يشكلون طبقة العاملين الدائمين لدى أوديسيوس والنبلاء، وكانوا

رجالاً أحرارًا، مثل الذين لم تذكر أسماؤهم من "مُقَطِّعى اللحوم"، الذين شكلوا جزءًا لا يتجزأ من المنزل. ومع ذلك كان هناك آخرون، أقل حظًّا، الـــ: "ثيتيس" (thetes)، غير مرتبطين بالمجتمع، وعمالاً لا ممتلكات لهم يعملون بالأجر ويستولون على ما لا يستطيعون الحصول عليه خلسة.

لقد قال كبير طالبى يد بينيلوبى، يوريماخوس (Eurymachus)، لأوديسِّيوس (الذى كان متنكرًا): "أيها الغريب هل أنت مستعد للعمل أجيرًا (thes) إن طلبتك فى خدمتى، فى حقل على الأطراف؟ سيكون باستطاعتك عندئذٍ أن تطمئن إلى الحصول على أجر، تشيد الجدران وتزرع أشجارًا باسقة. ساعتها، سأمدك بالحَبِّ الوافر، وسأكسو ظهرك بالملابس، وسأعطيك أحذية لقدميك." وكان الحَبُّ الوافر، والملابس والأحذية تشكل خزين حاجات العامة. ولكن يوريماخوس كان يتهكم، رغبة فى "إثارة الضحك بين رفاقه،" بإلهام من أثينا التى: "ما كانت لتسمح بأى حال من الأحوال لطالبى يد بينيلوبى المتغطرسين بالكف عن السخرية التى تنفطر لها القلوب، حتى يتغلغل الألم بعمق أكثر داخل قلب أوديسِّيوس بن لائرتيس."(٩)

ويكمن أيضًا قدر قليل من النكتة فى قول يوريماخوس: "سيكون باستطاعتك عندئذٍ أن تطمئن إلى الحصول على أجر." فالعامل الآجير (thes) لا يستطيع أبدًا التأكد من ذلك. لقد سأل بوسيدون (Poseidon) بغضب ذات مرة أبوللون (Apollo) عن السبب فى أن عليه هو وحده من بين كافة الآلهة أن يقف تمامًا إلى جوار الطرواديين. هل نسيت، سأله بوسيدون، كيف عملنا بأمر من زيوس "بوصفنا أجراءَ مقابل أجرٍ محددٍ متفق عليه،" لصالح لاوميدون (Laomedon) ملك طروادة، نشيد سورًا حول المدينة ونرعى الماشية، وكيف أن لاوميدون فى نهاية العام "حرمنا أجرنا، وطردنا تتبعنا التهديدات؟"(١٠) وتكمن المزحة الحقيقية فى

---

(٩) Odyssey 18.364-61.

(١٠) Iliad 21.441-52.

اقتراح يوريماخوس، بطبيعة الحال، فى العرض ذاته، وليس فى التلميح بأن المقابل سيحجب فى النهاية. ولكى يتضح الأمر برمته فإن علينا أن نذهب إلى أخيلّيوس فى هاديس (Hades) وليس إلى بوسيدون على جبل أوليمبوس (Olympus). هنالك قال شبح أخيلّيوس لأوديسّيوس: "لا تتحدث معى باستخفاف عن الموت، يا أوديسّيوس المجيد. إننى أفضل أن أكون مقيدًا وأنا أعمل أجيرًا (thes)، إلى جوار رجل لا يلوى على شيء ومعيشته ليست عظيمة، على أن أكون حاكمًا على جميع الموتى الذين هلكوا."[١١]

لقد كان الأجير (thes)، وليس العبد، هو أحط المخلوقات على الأرض التى بإمكان أخيلّيوس التفكير فيها. وكان الشيء المرعب بالنسبة للأجير هو افتقاره إلى الرابطة وعدم الانتماء. وكان البيت، الـــ: "أويكوس" (oikos) ذو السلطة المطلقة هو المركز الذى تنتظم الحياة حوله، والذى لا يتدفق منه الاكتفاء بالاحتياجات المادية فقط، بما فيها الأمن، بل أيضًا المعايير والقيم الأخلاقية، والواجبات والالتزامات والمسئوليات، والارتباطات الاجتماعية، والعلاقات مع الآلهة. ولم يكن البيت (oikos) يعنى مجرد العائلة أو الأسرة، لقد كان يشمل جميع سكان المنزل ومشتملاته المادية، ومن ثمَّ فإن كلمة "إيكونوميكس" (economics) (المأخوذة من الشكل اللاتينى للكلمة: oecus)، وهى فن إدارة البيت (oikos)، كانت تعنى إدارة مزرعة، وليس القدرة على المحافظة على سلام الأسرة.

وعلى كل حال فإننا لا نعرف بوضوح دلالة أن يكون المرء عضوًا دائمًا، حرًا ومع ذلك، فى بيت (oikos) رجل آخر، طبقًا للغة الالتزام المعتاد أو القانونىّ وفى ضوء التزامات المرء فى الحياة الأسرية. لقد كانت الدلالة السلبية للكلمة تعنى فقدانًا جسيمًا لحرية الاختيار ولحرية الانتقال. ومع ذلك فإن هؤلاء الناس لم يكونوا عبيدًا أو أقنانًا أو رقيقًا. لقد كانوا تابعين، "ثيرابونتيس" (therapontes)، وكانوا

---

(١١) Odyssey 11.489-91.

يقدمون خدماتهم مقابل مكان ملائم فى وحدة المجتمع الأساسية، البيت؛ فيما يشبه عضوية بديلة ومؤقتة، بدون شك، ولكنها منحتهم ضمانًا ماديًا وقيمًا نفسية تلازمت مع الإحساس بالانتماء. لقد نجح النبلاء مجتمعين، مع مجموعة مؤلفة من العبيد، الإناث بشكل رئيسيّ، ومن التابعين بكافة فئاتهم، ومعززين بالأجراء (thetes)، في تشييد قوى أسرية شديدة المهابة وعظيمة النفع، ومستعدة للقيام بعمل أيّ شيء يحتاجه إنسان ذو مركزٍ وسلطة فى العالم. ويجب أن نضيف أن هيئة الأتباع بلغت شأوًا عظيمًا فى الحقيقة. لقد أُكْرِه باتروكلوس (Patroclus) عندما كان طفلاً على الهروب من بيته، فاستقبله بيليوس (Peleus) في قصره و "عيَّنَه تابعًا" للصغير أخيلِّيوس.[١٢] والقياس الذى يأتى إلى الذهن فى الحال هو الوصيف النبيل فى بعض البلاطات فى أوائل العصر الحديث، تمامًا مثلما أن "السيد إتيونيس (Eteones)، التابع المتأهب لمينيلاوس،" الذى قابل الضيوف على باب القصر وصب الخمر لهم، يمكن أن يكون المقابل القديم للورد شامبرلين (Chamberlain).[١٣]

وكان الأجير (thes) فى إيثاكه من الممكن أن ينتمى إليها ذاتها، وألا يكون غريبًا عنها. ولكنه لم يكن يشكل جزءًا من البيت (oikos)، وفى هذا الصدد فإن العبيد كانوا أفضل منه حالاً. وكان العبد برغم كونه إنسانًا يشكل جزءًا من عنصر ممتلكات المنزل، وكان بكل معنى من معانى الكلمة رمزًا مهذبًا للمكانة الاجتماعية. لقد استخدم هوميروس (Homer) الكلمة التى صارت فى وقت متأخر متعارفًا عليها فى اللغة اليونانية للإشارة إلى العبد، كلمة "دولوس" (doulos)، التى تبدو اشتقاقيًا مرتبطة بفكرة العمل. وفيما عدا هذا فإن الكلمة التى استخدمها هى "دْموس" (dmos)، بما يصاحبها من ارتباط بكلمة "دوما" (doma) أو "دوموس" (domos)، بمعنى منزل. وبعد هوميروس وهيسيودوس (Hesiodos) لم تظهر

---

(١٢) Iliad 23.90.

(١٣) Odyssey 4.22-23.

كلمة "دموس" فى الأدب على الإطلاق، باستثناء بعض الأمثلة القليلة التى يتعمد فيها الكاتب استخدام كلمات قديمة، كما فى حالة سوفوكليس (Sophocles) ويوريبيديس (Euripides). وكانت معاملة العبيد فى الأساس أكثر لطفًا وأكثر إنسانية من الطابع المألوف فى عبودية المزرعة. لقد استطاع يومايوس -العبد المفضل- أن يشترى عبدًا لنفسه. وبالتأكيد، فقد تم شنق اثنتى عشرة عبدة فى وسط المذبحة المصاحبة لعودة أوديسيوس المظفرة، ولكن طريقة قتلهنّ فقط هى التى ميزتهن عن سادتهنّ النبلاء، الذين سقطوا صرعى بالسهم والحربة.

وكان هناك القليل من المعاشرة بين العبيد والإماء بسبب وجود عددٍ محدود من العبيد الذكور فيما بينهم. وتقريبًا كان جميع الأطفال المولودين لإناث العبيد نتاجًا للسادة أو الذكور الأحرار الآخرين فى المنزل. وبشكل عام -وكما هو شأن العديد من الأنظمة الاجتماعية الأخرى وكما كان شأن الإغريق فى المراحل التالية- فإن هذه الذرية كانت تعيش حياة العبودية مثل أمهاتها: "البطن تحمل الطفل"، كما يقول رعاة الطوارق فى الصحراء تفسيرًا لذلك. لم يكن الحال كذلك فى عالم أوديسيوس، حيث كان وضع الأب هو الحاسم. وهكذا فإن أوديسيوس فى حكايته الخيالية التى حاول بها أن يخفى هويته عن يومايوس، بمجرد عودته إلى إيثاكه، ذكر أن والده كان ثريًا من كريت (Crete) وأن أمه كانت "محظية مشتراة". وعندما مات والده قسّم الأبناء الشرعيون الممتلكات بعد أن منحوه فقط مسكنًا وبعض الحاجيات القليلة. وبعد ذلك، حصل لنفسه ببسالته على زوجة هى ابنة "رجل صاحب ممتلكات كثيرة."[١٤] وفى بعض الأحيان كان ابن المرأة العبدة يشكل عضوًا من الدرجة الثانية فى الأسرة، ولكنه كان حتى فى هذه الحالات جزءًا من الدائرة الأضيق داخل البيت (oikos) بشكل عام، وكان حرًا وبدون وصمة اللا شرعية فى مفهومنا، ناهيك عن وصمة العبودية.

---

(١٤) Odyssey 14.199-212.

وفى الأساس يكمن الاختلاف بين مالك الأرض العادىّ وبين النبيل فى عِظَمِ بيت (oikos) كل منهما، وبالتالى فى عدد الأتباع الذين فى مقدورهما إعالتهم، وهو ما يمكن ترجمته بشكل عملىّ بأنه كان فى قوتهما. ومن الناحية الظاهرية كان الاختلاف فى المولد. ففى نقطة محددة فى الماضى، بعيدة أو قريبة فى الزمن، تسبب الفتح أو الثروة فى هذا التمييز الأصلىّ. وبعدها تجمدت الأوضاع، واستمرت طبقًا لخطوط وراثية، واكتسبت قدسية إلهية عبر السلالات التى حددت لكل أسرة إلهًا بديلاً ينحدرون من صلبه، وأطلق على هذا الحال التميز بالأصل أو الدم.

وساهمت طبيعة الاقتصاد فى الحفاظ على الخطوط الطبقية وفى تجميد الأوضاع. فحيثما تكون ثروة المنزل مؤثرة بهذا القدر، وما لم يوجد معيار لانتقال الثروة وتداولها، وما لم تسنح الفرصة لخلق ثروات جديدة، يصير البناء الطبقىّ أشبه بالمغلق فى صلابته. وكان هذا هو الحال فى إيثاكه. وكان أساس البيت (oikos) هو أرضه، ولم يكن هناك سبيلٌ تحت الظروف العادية والسلمية لكسب أراضٍ جديدة فى مناطق مستقرة. ومن المفترض أنه باستطاعة المرء أن يزحف إلى الحدود وأن يحصل على أرض مهجورة، ولكن قلة قليلة من الناس هى التى أقدمت بالفعل على هذه الخطوة السخيفة والحمقاء للغاية، ما لم تكن تعانى من ضغوطٍ فى غاية العنف. ولم تكن مجرد مشاعر العاطفة تجاه الوطن هى وحدها التى جعلت من عقوبة الإبعاد أشد تصاريف الأقدار مرارة. لقد كان المنفىّ يجرد من جميع الروابط التى تعنى الحياة ذاتها؛ ولم يعد مهمًا حينئذٍ ما إذا كان المرء قد أكْرِه على الفرار، أم خرج من الوطن بحثًا عن الأرض بمحض إرادته الحرة.

وكان الاستخدام الأولىّ للأرض فى الرعى. وفى بداية حكايته عن مغامرته بين الكيكلوبيس (Cyclopes)، التى حكاها فى بلاط ألكينوس، أكد أوديسيُوس الوحشية البدائية لهؤلاء لعمالقة ذوى العيون الواحدة. إنهم -أولاً وقبل كل شىء- لم يتعلموا بعد فن الزراعة؛ "فلا هم يزرعون أى شىء، ولا هم يفلحون."[١٥] ومع

(١٥) Odyssey 9.108.

ذلك كان عالم أوديسيوس الخاص عالمًا من الرعى، وليس الفلاحة (على عكس ما كان عليه الحال زمن هوميروس ذاته وزمن هيسيودوس، عندما تحركت الزراعة إلى المقدمة). فالتربة اليونانية فقيرة وصخرية وليس بها ماء، بحيث إنه لا يمكن زراعة ما يزيد عن نسبة عشرين بالمئة من المساحة الكلية لشبه الجزيرة. وفى بعض الأماكن كانت توجد فى وقت من الأوقات مراعٍ ممتازة للخيول والماشية؛ وجميعها فى حقيقة الأمر ما تزال فى أيامنا هذه صالحة لحيوانات أصغر حجمًا من الغنم والخنازير والماعز. وكانت المنازل المذكورة فى القصائد تزاول القليل الضرورىّ من حرث وزراعة، خاصة فى الحدائق وبساتين العنب، ولكن اعتمادهم كان على الحيوانات فى كسائهم، وفى نقل الأشياء وفى انتقالهم هم أنفسهم، وفى الحصول على قدر كبير من طعامهم.

وبهذه القطعان وبما لديهم من قوى عاملة، وبما هو متاح من أحجار للبناء ومن طفل لصناعة الأوانى، فإن البيوتات الكبرى استطاعت أن تحقق تقريبًا هدفها فى الاكتفاء الذاتىّ الكامل. وكان البيت (oikos) فوق كل شىء وحدة استهلاكية. وكانت نشاطاته -بقدر ما كانت تهتم بإشباع الاحتياجات المادية- تسترشد بمبدأ واحد يتمثل فى تحقيق المتطلبات الاستهلاكية لسيده ولأناسه: وبقدر الإمكان بواسطة منتجات ضياعه، معززة بالغنائم. ولكن كان هناك أمر واحدٌ منع الاكتفاء الذاتى الكامل، وهو حاجة لم يكن بالإمكان تجاهلها ولا اللجوء إلى بدائل عنها، وهذا الأمر هو الحاجة إلى المعدن. لقد وجدت بعض الرواسب المتفرقة من المعادن فى بلاد اليونان، ولكن المصادر الرئيسة للتموين كانت من خارج البلاد، فى غرب آسيا وفى وسط أوروبا.

وكان المعدن يعنى الأدوات والأسلحة، ولكنه كان يعنى أيضًا شيئًا آخر، ربما لا يقل عن الأشياء السابقة أهمية. فعندما ختم تليماخوس زيارته لقصر مينيلاوس فى إسبرطه (Sparta)، تقصيًا لأخبار عن والده، قدم له مضيفه كهدية

وداع: "ثلاثة خيول وعربة مطلية بالمعدن و... كأسًا جميلاً." ويتردد الفتى. "وأى هدية ستمنحنى إياها فلتكن ثروة. فلن آخذ معى الخيول إلى إيثاكه... فلا مكان للحلبات الفسيحة ولا للمروج."[١٦] إن الكلمة اليونانية "كيميليون" (keimelion)، المراد بها فى العادة "ثروة"، تدل حرفيًا على نفس الشيء الذى يمكن أن يترك جانبًا أو أن يكتنز. وفى القصائد فإن الكنز كان من البرونز أو الحديد أو الذهب، وفى أحيان أقل من الفضة ومن القماش الجيد، وعادة ما كانت المعادن تشكل فى هيئة كئوس وحوامل ثلاثية الأرجل، ومراجل. مثل هذه الأغراض كانت لها بعض القيمة العملية، وكان بالإمكان أن توفر إشباعًا جماليًا أيضًا، ولكن ليست لأىٍّ من هاتين الوظيفتين قيمة حقيقية بالمقارنة بقيمتها بوصفها ثروة رمزية أو ثروة تدل على المكانة. لقد كان الاستخدام المزدوج للثروة يتضح فى امتلاكها وفى التخلى عنها، على الرغم مما يبدو عليه ذلك الأمر من تناقض. وحتى تسنح الفرصة المناسبة للهدية، فإن الثروة كانت تحفظ فى مكان آمن ومغلقًا عليها بالقفل والمفتاح. إنها لم تكن "تستخدم" بالمعنى الضيق لتلك الكلمة.

وعندما تم إقناع أجاممنون فى النهاية بأن ترضية أخيلّيوس ضرورية بشكل مطلق لمنع تدمير القوات الآخية، فإنه حاول أن يدور حول الأمر بأن يقدم ترضية من خلال الهدايا. واشتمل عرضه على بعض منها لتقديمه فى الحال، واشترط تقديم البعض الآخر بعد النصر. ويا لها من قائمة تلك التى عرضها: سبع مدن، وابنة له ليتزوجها ومعها صداق عظيم، "لم يعط أحد مثله لابنته" والفتاة بريسيس (Briseis) التى اندلعت المعركة بسببها، وسبع نساء من ليسبوس (Lesbos)، ماهرات فى الحرف، واثنى عشر من خيول السباق، وعشرين امرأة ممن يختارهن من نساء طروادة بعد الانتصار فى الحرب. وكانت هذه الهدايا، باستثناء الخيول، هدايا ذات فائدة. ولكن أجاممنون لم يبدأ بأىٍّ منها. لقد جاءت أولاً "الحوامل السبعة

---

(١٦) Odyssey 4.590-605.

الثلاثية الأرجل، التي لم يسبق أن وُضِعَت على النار، وعشرة تالينتات من الذهب وعشرين مرجلاً لامعًا،" وبعد ذلك، ومن الغنائم المتوقع الحصول عليها بعد النصر على طروادة، وعد أجاممنون بأن يعطيه ما تستطيع سفينته حمله من الذهب والبرونز.(*) كانت هذه هي الثروة، وتتضح أهميتها البالغة من الحرص الذي تم به تعدادها هنا، ومرة أخرى بعد ذلك في القصيدة. وتكررت الإشارة إلى هدية مينيلاوس لتليماخوس، وكلها ثروة، أربع مرات في الأوديسية، في ثلاثة كتب مختلفة.

وأيًا كان الغرض من المعدن أو كان مصدره، فإنه كان يمثل بالنسبة للبيت (oikos) منفردًا مشكلة خاصة فيما يتعلق بتوزيع البضائع. وفي غالبية الأحيان كان التوزيع يتم داخليًا ولم يكن يشكل بالتالي مشكلة على الإطلاق. وحيث إنه لم يكن هنالك عالم يشبه عالم روبنسون كروزو (Robinson Cruso)؛ إذ إن أبسط المجموعات البشرية كانت تتمتع بآلية بحكم الظروف، وهي الآلية ذاتها التي نجدها مع بعض الامتداد حتى في أكثر منازل الأمراء ضخامة وإتقانًا. لقد كان العمل المنتج بكافة أنواعه، من بذر وحصاد، ومن طحن ونسج، وحتى الصيد والإغارة، يتم لصالح المنزل ككل، على الرغم من أن الذي يقوم به هم الأفراد. وكانت المنتجات النهائية الجاهزة للاستهلاك تُجْمَع ويتم تخزينها مركزيًا، ومن المركز كان يعاد توزيعها، في إطار السلطة المنزلية بواسطة رب البيت في الوقت الذي يراه مناسبًا وبالقدر الذي يتراءى له.

(*) Iliad 9.121-56. اشتملت ثروة أفلاطون، كما ورد ذكرها في وصيته التي حفظها لنا ديوجينيس اللائيرتي (Diogenes Laertius, Lives, 3.41-43)، على "ثلاثة ميناي (minae) من الفضة، ووعاء فضي يزن مائة وخمسًا وستين دراخمة، وكوبًا صغيرًا يزن خمسًا وأربعين دراخمه، وخاتمًا ذهبيًا وقرطًا ذهبيًا يزنان معًا أربع دراخمات ونصفًا." هذه هي الثروة التي اقتصر مفهومها عندئذ على الذهب والفضة، والتي مثل ثروة أجاممنون، كانت تتكون من المعادن أو الأشياء المصنوعة من المعدن، دون تمييز بينها.

ولم يختلف الأمر جوهريًا فى حالة ما إذا كانت الأسرة داخل المنزل لا يزيد تعداها عن زوج وزوجة وطفل، أو كون البيت (oikos) لبرياموس (Priamos) ملك طروادة بأبنائه الخمسين وزوجاتهم، وبناته الاثنتى عشرة وأزواجهنّ، وبأحفاده الذين لا حصر لهم؛ أو ما إذا كان مثالاً أكثر معقولية كما فى حالة نستور (Nestor) فى بيلوس (Pylus)، بأبنائه الستة وبعض أزواجهم وزوجاتهنّ. وكان الأبناء يملكون أسلحة وثروات خاصة بهم، من الهدايا والغنيمة، وكانت الزوجات والبنات يمتلكن الأردية والحلىّ الجميلة. وما لم يترك الأبناء الذكور منازل آبائهم وما لم يؤسسوا بيوتًا (oikoi) خاصة بهم، فإن ممتلكاتهم الشخصية كانت فى الأساس عاملاً لا أهمية له. وفى العادة كما يبدو من الأشعار، على الرغم من أن الأدلة غير واضحة وليست باستمرار متوافقة، فإن الأبناء كانوا يظلون مع أبيهم فى حياته.

ومن الناحية المعمارية فإن قلب النظام كان المخزن. وعندما كان تِليماخوس يجهز لرحلته إلى بيلوس، "هبط إلى مخزن والده الفسيح ذى السقف المرتفع، حيث الذهب والنحاس فى أكوام، والملابس فى الصناديق، وزيت العطر الفواح بكثرة، وحيث تراصت جرار الخمر العذب المعتق، مملوءة بخمر إلهية خالصة، متجاورة فى صفٍ بمحاذاة الحائط."(١٧) وبطبيعة الحال كان المخزن يحتوى على كميات كبيرة من الأسلحة والحبوب. وبعد أكثر من ثلاثمائة سنة بعد هوميروس، كان كسينوفون (Xenophon)، وهو مزارع محترم وليس زعيم قبيلة أو ملكًا، ما يزال يضع العناية بالمخزن فى مقدمة الفضائل التى يجب أن تتحلى بها الزوجة.

وفى الحالات التى كان يتحتم فيها التوزيع خارج حدود البيت (oikos) عندئذ كان من الضرورىّ وضع آليات جديدة وخاصة. وكانت الحروب والإغارات من أجل الغنائم، وهى أمور لا تختلف عن بعضها البعض فى عيون عالم أوديسيوس،

---

(١٧) Odyssey 2.337-42.

أشياءً منظمة، وغالبًا ما كانت تضم اتحادًا مؤلفًا من أسرٍ، وغالبًا من مجتمعاتٍ. وباستمرار كان هناك قائدٌ، وكان من بين مهامه أن يقوم بدور الرئيس وأن يوزع الغنائم، التى كانت توضع جميعها أولاً فى نقطة تجميع رئيسية. وكان التقسيم بالقرعة، مثله فى ذلك مثل تقسيم الميراث فى حالة وجود ورثة عديدين. وعلى سبيل المثال، لم تكن كل مغامرات العودة لأوديسيوس مأساوية؛ ففى مرتين أو ثلاث مرات أتيحت له ولرجاله فرصة سارة للإغارة. لقد بدأ أوديسيوس حكاية تجواله، قائلاً: "من إيليون (Ilion) حملتنى الريح بالقرب من الـــ: "كيكونيس" (Cicones) إلى إيسماروس (Ismarus). وهنالك هاجمت المدينة، وقتلت الرجال، وحملت النساء وبضائع كثيرة، وقسمناهم حتى لا يخرج أحد مخدوعًا فى نصيبه العادل من خلالى."[١٨]

وكان الاستيلاء بالقوة، متبوعًا بالتوزيع بهذه الطريقة، إحدى سبل الحصول على المعدن أو على أية سلع أخرى من مصدرٍ خارجيٍّ. ويعتقد بعض الباحثين أن نواة الحقيقة التاريخية فى قصة الحروب الطروادية هى تحديدًا غارة جماعية بهذا الشكل من أجل إمدادات الحديد. وسواءً أكانوا صادقين أم لا، فإنه كانتْ هناك بالتأكيد حروب طروادية كثيرة أصغر من أجل هذا الغرض، ضد الإغريق وضد البرابرة كذلك. ولكن الحلَّ العنيف لم يكن دائمًا ممكنًا، ولا حتى مرغوبًا فيه باستمرار؛ فلو كان الجانب المتضرر قويا بالقدر الكافى فإن هذا الحل كان يدعو إلى الانتقام، وكانت هناك أوقات وظروف فَضَّل فيها حتى أشرس الأبطال اللجوء إلى السلم. وعندئذٍ كانت آلية المقايضة هى البديل الوحيد، وكان الأساس الوحيد هو تبادل الهدايا. ولم يكن هذا البديل اختراعًا إغريقيًا. وعلى العكس من ذلك، لقد وُجدت هذه الآلية المنظَّمة بين العديد من الشعوب البدائية، كما فى حالة جزر الـــ: "تروبرياند" (Trobriand Islands) حيث "تم اكتشاف أن غالبية التعاملات

---

(١٨) Odyssey 9.39-42. ويظهر البيت الأخير أيضًا فى الإلياذة (١١: ٧٠٥).

الاقتصادية -إن لم تكن جميعها- ترتبط بسلسلة ما من الهدايا المتبادلة والهدايا المقابلة لها."[19]

وينبغي علينا ألا نسيء فهم كلمة "هدية". ويمكن القول، كقاعدة في المجتمع البدائيّ والمجتمع القديم، إنه لم يكن هناك أحد يعطي أيّ شيء، سواءً أكان هذا الشيء سلعًا أو خدماتٍ أو أمورًا شرفيةً، دون تعويض مناسب، حقيقيّ أو مأمول، فوريّ أو بعد سنين؛ سواءً لنفسه أو لذويه. ولهذا فإن عملية العطاء كانت بمعناها الأساسيّ دائمًا النصف الأول من العمل المتبادل، بينما كان النصف الآخر لها هو الهدية المقابلة.

ولم تكن هدية المسافر تشكل استثناءً في هذا السياق، على الرغم من أن هذه الحالة تحديدًا كانت تشتمل على عنصر المخاطرة. لقد بدأ آخر مشاهد التعارف في الأوديسية بين البطل ووالده المُسِنّ بالطريقة المعتادة، بادّعاء أوديسّيوس أنه شخص آخر، غريب من أرض أخرى يبحث عن معلومات عن "أوديسّيوس". وقال للائيرتيس، إن ابنك زارني منذ حوالي خمس سنوات مضت وتلقى الهدايا المناسبة. "فمن الذهب جيد الصياغة أعطيته سبعة تالينتات، ومنحته وعاءً عليه رسوم مرسومة، جميعها من الفضة، واثنتي عشرة عباءة منفردة ومثلها من السجاجيد والمعاطف، إلى جانب عددٍ كبيرٍ من السترات، بالإضافة إلى أربع نساءٍ جميلاتٍ ماهراتٍ في العمل الرائع." وانخرط لائيرتيس في البكاء لأنه كان قد اقتنع منذ زمن بعيد أن ابنه قد هلك، ولم يكن باستطاعته أن يفكر في طريقة أفضل لكشف تلك الحقيقة للغريب من أن يُعلق على وضع الهدية. "الهدايا العديدة التي أعطيتها، أعطيتها عبثًا؛ لأنك لو وجدت هذا الرجل حيًّا في أرضه إيثاكه، لأرسلك وأنت في طريقك مزودًا بشكل جيدٍ بالهدايا في المقابل."[20]

---

(19) Bronislaw Malinowski, Crime and Custom in Savage Society, Humanities Press, New York, 1952, 40.

(20) Odyssey 24.274-85.

وبعدئذ يأتى مشهد مثير للاهتمام فى الكتاب الافتتاحىّ فى الأوديسية، الذى تظهر فيه الإلهة أثينا لتليماخوس متخفية فى هيئة مينتيس (Mentes)، وهو قائد من تافوس (Taphus). فعندما استعد القائد للمغادرة، اتبع الشاب العادة المتوقعة: "اذهب إلى سفينتك سعيدًا فى قلبك، حاملاً هدية ثمينة وفى غاية الجمال، وهى التى ستكون ثروتك منى، مثل التى يعطيها أصدقاء ضيوف أعزاء إلى أصدقاء ضيوف أعزاء."(*) وقد تسبب هذا القول فى خلق موقف حساسٍ بالنسبة للإلهة. فالمرء لم يكن يستطيع أن يرفض هدية معروضة، ومع ذلك فإنها لم يكن باستطاعتها قبولها تحت زعمها الكاذب لشخصيتها البشرية. (فالآلهة بوصفهم آلهة لم يكونوا فقط يتقبلون الهدايا من البشر، بل كانوا يتوقعونها ويطلبونها.) ولأنها كانت أذكى الآلهة، فإن أثينا وجدت على الفور الحل الكامل: "لا تبقينى مدة أطول حيث إننى تواق لأن أستأنف طريقى. وبالنسبة للهدية التى يحثك قلبك الصديق على إعطائها لى، أعطها لى عند عودتى حتى يمكننى حملها إلى وطنى. واختر واحدة غاية فى الجمال، حتى تحصل فى المقابل على هدية مساوية لها."[٢١]

ولم يقل تِليماخوس شيئًا بشأن الهدية المقابلة. ومع ذلك فإنه ومينتيس كانا يفهمان بعضهما البعض جيدًا: لقد كانت الهدية المقابلة متوقعة تمامًا مثل الهدية الأصلية عند الرحيل. وكان ذلك هو مفهوم إعطاء الهدايا فى هذا المجتمع. ولم تكن هناك ضرورة لأن يأتى المقابل على الفور، وربما أخذ أشكالاً متعددة. ولكنه كان عادة ما يأتى. "وفى مجتمع محكوم باحترامه للماضى، تصبح الهدية التقليدية فيه أقرب فى الحقيقة إلى أن تكون التزامًا."[٢٢] ولم يحظ أىّ تفصيل فردىّ فى حياة

(*) سوف يتم شرح مصطلح "أصدقاء ضيوف" فى الجزء الأخير من الفصل الرابع.

(٢١) Odyssey 1.311-18.

(٢٢) Marc Bloch, in The Cambridge Economic History, ed. by J. H. Clapham and Eileen Power, vol. I, Cambridge University Press, Cambridge, England, 1941, p.262. ويناقش بلوك العالم الجيرمانى المبكر كما يصفه تاكيتوس (Tacitus).

الأبطال بهذا القدر الكبير من الاهتمام فى الإلياذة أو الأوديسية بما حظى به إعطاء الهدايا؛ ودائمًا ما كانت هناك إشارة صريحة للوفاء بالحاجة والملاءمة والتعويض. "ولكن زيوس (Zeus) بن كرونوس (Cronos) سلب جلاوكوس (Glaucus) قدرته على التمييز، حيث إنه استبدل بسلاحه الذهبى السلاح البرونزىّ لديوميديس (Diomedes) بن تيديوس (Tydeus)، ما قيمته مائة ثور مقابل ما قيمته تسعة ثيران."[٢٣] ويعكس تعليق الشاعر -وهو تعليق فى منتهى الندرة بالنسبة له- عِظَمَ خطأ جلاوكوس فى التقدير.

ومن النادر وجود حدٍّ للمواقف التى يكون فيها إعطاء الهدايا نافذَ المفعول. وبدقة أكثر، فإن كلمة "هدية" كانت غطاءً شاملاً لتشكيلة ضخمة من الأفعال والمعاملات التى أصبحت فى وقت لاحقٍ تخضع لتصنيفات مختلفة واكتسبت تسميات خاصة بها. لقد وُجدَت مدفوعات للخدمات المقدمة والمرغوبة والمتوقعة؛ وما قد نطلق عليه اسم الرسوم والمكافآت والجوائز، وفى بعض الأحيان الرشاوى. وفى مثل تلك الإشارات كانت مادة الصيغ التعبيرية غنية، كما فى الأبيات التى رد فيها تليماخوس، وردت فيها بينيلوبى مرتين، على التفسير الموافق للهوى الذى قال به الغريب عن إشارة من الآلهة: "أيها الغريب، ليت هذه الكلمات تتحقق! فسرعان ما ستدرك عندئذ مدى صداقتى وهداياى العديدة، حتى إنَّ كل من سيقابلك بعد ذلك سيهنئك."[٢٤]

بعد ذلك كانت هناك ضرائبُ وحقوقٌ أخرى للسادة أو الملوك، وتعويضات بنغمة عقابية (هدية أجاممنون لأخيلِّيوس)، وحتى قروض عادية، ومرةً أخرى فإن الكلمة الهومبرية هى دائمًا "هدية". وفى دفاعه عن نفسه لأنه أعار تليماخوس سفينة ليبحر بها إلى بيلوس وإسبرطة، ليبحث عن معلومات عن أوديسيوس، قَدَّمَ نبيل

---

(٢٣) Iliad 6.234-56.

(٢٤) Odyssey 15.536-38, 17.163-65, 19.309-11

شاب من إيثاكه هذا التفسير: "ماذا يستطيع أحدٌ أن يفعل عندما يتوسل رجلٌ بهذا الشأن، وهو مضطرب القلب؟ سوف يكون من الصعب أن يرفض الهدية."(٢٥) وفي نمطٍ آخر ارتبط الدفع مقابل خدمةٍ ما باحتفالية ضرورية مصاحبة لحدثٍ مهمٍ. وهناك كلام كثير في الأوديسية عن "هدايا خطب الود،" وعن الخاطب الفائز، الذي لا يذكرنا بأي شيء سوى بالرجل الذي يقدم أعلى عطاءٍ في مزايدة من نوع ما، والذي يحصل على هدية مقابلة متمثلة في الصداق الذي لا يمكن عقد زواج بدونه. كذلك فإن كافة ما نطلق عليه العلاقات الخارجية والدبلوماسية في مظاهرها السلمية المتعددة، كانت تتم عن طريق تبادل الهدايا. وحتى في الحرب، كانت المناسبات تفرض نفسها، كما حدث بين ديوميديس وجلاوكوس، على سبيل المثال، أو بين أياكس (Ajax) وبين هيكتور، عندما توقف الأبطال من الجانبين المتصارعين، تمامًا في حلبة القتال، وأمام عيون رفاقهم الموافقين على ما يحدث، وتبادلوا الأسلحة فيما بينهم.

وتختلف التجارة في الأوديسية عن الأشكال المختلفة لتبادل الهدايا من حيث إن تبادل السلع كان يشكل النهاية في حدّ ذاته. ففي التجارة تغير الأشياء الأيادي لأن كلاً منها تحتاج ما في اليد الأخرى، وليس بهدف -ولو كان بشكل عارض- التعويض عن خدمة أو التصديق على تحالف أو دعم صداقة. فالحاجة إلى شيء محدد بعينه كانت الأساس للتعامل؛ وإذا كان بالإمكان إشباعها بوسائل أخرى فإن التجارة تصير عندئذٍ غير ضرورية تمامًا. ومن ثمَّ فإننا نقول في مصطلحاتنا الحديثة إن الواردات وحدها تشكل الحافز للتجارة، وليست الصادرات. ولم تكن هناك حاجة بتاتًا للتصدير بهدف التصدير، بل كانت هناك ضرورة الحصول على السلع الملائمة للهدايا المقابلة عندما لم يكن هناك مفر من الاستيراد.

---

(٢٥) Odyssey 4.649-51.

لقد اشترى لائيرتيس يوريكليا "مع (بعض) ممتلكاته...، وأعطى فى المقابل ما قيمته عشرين ثورًا."[٢٦] كانت الماشية مقياس تقدير القيمة؛ وفى هذا الصدد وبذلك المعنى فقط كانت الماشية نقودًا. ومع ذلك، لا الماشية ولا أى شىء آخر استخدم فى المجالات الأخرى العديدة التى استخدمت فيها النقود فيما بعد. وفوق ذلك لم تكن هناك وسيلة متداولة مثل العملة، وظيفتها الوحيدة جعل الشراء والبيع ممكنين عن طريق انتقالها من يدٍ إلى أخرى. وتقريبًا كان أىّ شىء مفيدٍ يؤدى الغرض، ومن الملاحظ أن مقياس القيمة، الماشية، لم يستخدم فى حدّ ذاته كوسيلة للتبادل. لقد ابتاع لائيرتيس يوريكليا مقابل سلع غير محددة تساوى عشرين ثورًا؛ إنه لم يقايض الثيران مقابل عبدة.

إن المعيار التقليدىّ لتحديد القيمة لا يزيد عن كونه لغة اصطناعية، مجرد رمز مثل "س" أو "ص" أو "ع" من رموز الجبر. وبمفرده لا يستطيع الرمز أن يحدد مقدار الحديد الذى يساوى قيمة بقرة واحدة أو يقابل أى مقدار من الخمر. وفى عالم آدم سميث (Adam Smith) كان ذلك التحديد يتم من خلال سوق العرض والطلب، وهى آلية مجهولة تمامًا فى طروادة وإيثاكه. فخلف "السوق" يكمن حافز الربح، وإن كان هناك شىء واحد محرم فى التبادلات الهوميرية فهو الربح فى عملية التبادل. وسواءً أكان الأمر يتعلق بالتجارة أم بعلاقة مبادلة أخرى، فإن المبدأ الثابت هو المساواة والفائدة المتبادلة. أما الكسب على حساب طرف آخر فكان ينتمى إلى عالم مختلف، إلى الحرب والإغارة، سواءً أكان يتم إنجازه عن طريق أعمال (أم تهديدات) بالقوة، وليس عن طريق المناورة أو التلاعب. لقد كان الربح من وراء التجارة "ربحًا جشعًا".

وعلى ما يبدو فإنه لا يسعنا سوى إدراك أن معدل التبادل كان تقليدًا رسميًّا ومتفقًا عليه. ويعنى ذلك أنه لم تكن هناك جهة رسمية تتمتع بالسلطة لكى تقرر

---

(٢٦) Odyssey 1430-31.

وضع معادلات تحدد أن مقدارًا معينًا من سلعة ما يقابل مقدارًا بعينه من سلعة أخرى. وبدلاً من ذلك فإن المزاولة الفعلية للتبادل عبر فترة طويلة من الزمن حددت النسب، وكانت النسب معروفة بشكل عام وتم احترامها. وحتى في توزيع الغنيمة، حيث تتولى الأمر السلطة المركزية، رب البيت (oikos) أو ملك أو رئيس الأركان، فإنه كان بوضوح مقيدًا بما يُعتقد بصفة عامة أنه يحقق الإنصاف. أما حالة عدم وجود من يستطيع محاسبته بسبب تجاهله العرف -كما في حالة الصراع بين أجاممنون وأخيليوس- فهي حالة غير مرتبطة بالقضية. ويرجع ذلك إلى أن الحقيقة ذاتها المتمثلة في كون هذا الموقف تحديدًا هو الذي أوجد موضوع الإلياذة تدل على مدى خطورة مخالفة العرف وتجاهله. ففي هذا العالم كانت العادة ملزمة للفرد مثل أكثر القوانين التشريعية صلابة في الأيام التالية. وكان المساهم في عملية التبادل -بالإضافة إلى ذلك- يتمتع بميزة على الطرف السلبيّ في توزيع الغنيمة. لقد كان باستطاعته دائمًا أن يرفض إتمام العملية لو تم الإخلال بالقواعد بشكل واضح، أو لو راوده مجرد الاعتقاد في حدوث ذلك.

لا يعني ما سبق ذكره أننا نقول إن أحدًا لم يكن يستفيد بشكل متعمد من المبادلة. ولكن المثل الاستثنائيّ أقل في أهميته بكثير من النقطة الجوهرية المتمثلة، بالمعنى الضيق، في أن أخلاقيات عالم أوديسيوس حرمت ممارسة التجارة كمهنة. ولم يكن اختيار ما كان مقبولاً وما ليس بكذلك يكمن في عملية التجارة، بل في مكانة التاجر، وفي أسلوب مباشرته للتعامل. لقد كانت الحاجة للمعدن في منتهى الشدة حتى إنه قد يبحر الملك، بكل شرف، بحثًا عنه. وعندما تجلت أثينا لتليماخوس على هيئة مينتيس زعيم تافوس، ذكرت في حكايتها أنها تحمل حديدًا إلى تيميسا (Temesa) بحثًا عن النحاس.(*) ولم يتسبب ذلك في أية صعوبات، وانتهت زيارتها بالحديث عن الهدايا الثمينة بين الأصدقاء الضيوف.

(*) إننا لا نعرف مكان تافوس ولا مكان تيميسا المذكورتين هاهنا، كما أن المحاولات العديدة التي باءت جميعها بالفشل لتحديد مواقع كل منها ومقابلتها بالأماكن التي توجد فيها هذه المعادن تدل هنا أيضًا على عقم محاولات "إضفاء الطابع التاريخي" على القصائد الهوميرية.

ولم يكن الغريب المسافر على سفينته يُقابل دائمًا بشديد الترحاب، ولم يكن أبدًا بعيدًا عن دائرة الشك. قد يكون أوديسّيوس أمام إسماروس (Ismarus) أو أخيلّيوس: "اثنتا عشرة مدينة من الرجال دمرتها وأنا على ظهر سفينة وإحدى عشرة مدينة وأنا على قدمي؛ أقول أنا، في المنطقة الخصبة لطروادة. من جميع هذه [الأماكن] أخرجتُ ثروة طيبة جدًا."[٢٧] ولا عجب أن بعض الإغريق اعترضوا أخيرًا على هوميروس كمعلم للهللينيين. فتعظيم القرصنة ورفض السرقة (الاستيلاء على السلع خلسة)، وتشجيع السلب (الاستيلاء على السلع والأشخاص بالقوة الجسدية) كلها أمور تعكس عالمًا ذا معايير أخلاقية مشوشة. لقد احتج أفلاطون، قائلاً: "إن سرقة الممتلكات أمرٌ وضيع، والاستيلاء بالقوة أمرٌ مشين، ولا أحد من أبناء زيوس يسعد بالخداع أو العنف، ولم يمارس أيًا منهما. وبناءً عليه يجب على المرء في هذه الأمور ألا يتعرض لإقناع زائف بواسطة الشعراء، أو بواسطة بعض قصاصي الأسطورة."[٢٨]

ومع ذلك كان هناك نمطٌ وكان هناك ثبات في القواعد الأخلاقية؛ وكان له معنىً على أساس من المقدمات المنطقية. لقد ارتكزت الاختلافات على بناءٍ اجتماعيٍّ معين، مصحوبة بأفكارٍ راسخة بقوة تجاه الطرق السليمة لكيفية تصرف الإنسان، فيما يتصل بالملكية، تجاه الناس الآخرين. فبمجرد حلوله بين الفاياكيين، وقبل أن يكشف عن هويته، وأن يحكي عن تجواله، لقي أوديسّيوس حفاوة من الملك ألكينوس. وبعد الوليمة تبارى شباب النبلاء في مسابقات رياضية. وبعد بعض الوقت اقترب لاوداماس (Laodamas)، ابن الملك، من أوديسّيوس ودعاه للمشاركة.

---

(٢٧) Iliad 9.328-31.

(٢٨) Laws 1941b.

"أقبِل، أيها الغريب والأب، انضم إلى الألعاب إن كنت بالصدفة ماهرًا فى أىٍّ منها؛ فيبدو أنك تعرف الألعاب. لأنه لا توجد شهرة عند المرء، ما دام حيًا، أعظم من تلك التى يصنعها بقدميه أو بيديه."

وطلب أوديسِّيوس إعفاءه، مبررًا ذلك بالعبء الثقيل لمآسيه. بعدئذ تدخل شاب آخر من النبلاء الشبان. "لا، حقًا! أيها الغريب، أنا لا أظن أنك تشبه رجلاً يمارس الألعاب، مثل هؤلاء يوجد الكثيرون بين الرجال، لكنك تشبه من يرتحل على سفينة ذات طوابق كثيرة، رئيس بحارة مسافرين، رجلاً عينه على الشحنة ومسئولاً عن السلع والمكاسب الجشعة."[٢٩]

لقد كانت إهانة لا تحتمل تحت كل الظروف، وبالنسبة لجمهور هوميروس فإنها حملت، ولا بد، وأضافت تعليقًا لاذعًا عندما وجهت ضد أوديسِّيوس. وهناك نوعٌ من الالتباس يتعلق بأوديسِّيوس بوصفه بطلاً، على وجه التحديد بسبب أكثر صفاته شهرة، وهى مَكْرُه. بل إن هناك أيضًا نقطة ضعف فى ميراثه: جده لأمه، الوسيم أوتوليكوس (Autolycus). الذى "فاق كل الناس فى نزعته للسرقة وفى القَسَمْ؛ لأنها كانت هبة منحت له من الإله هيرميس (Hermes)."[٣٠] وفى وقت متأخر تحولت شكوك إغريق كثيرين إلى احتقار وإدانة صريحة. يقول فيلوكتيتيس (Philoctetes) فى مسرحية لسوفوكليس: "إننى أعرف جيدًا تمامًا أنه سيحاول بلسانه كل كلمة شريرة وخِسَّة."[٣١] إن ما أنقذ أوديسِّيوس هو أن مكره كان يستخدم -فى حقيقة الأمر- فى متابعة الأهداف البطولية، ومن ثمَّ فإن هيرميس، إله الحيل والسرقة، ربما زوده بالسحر الذى أبعد بمقتضاه كيركى (Circe) الساحرة، ولكن أثينا كانت حاميته وملهمته فى أعماله البطولية. وردًا على الإهانة فى فاياكيا

---

(٢٩) Odyssey 8.145-64.

(٣٠) Odyssey 19.395-97.

(٣١) Philoctetes 407-408.

(Phaeacia)، فإنه أجاب أولاً بحديث ساخط، ولكن أوديسيوس دونًا عن كل الرجال لم يكن بالذى يقنع بتأكيد مكانته بالكلمات. وبعد انتهائه من إجابته وثب قائمًا، وأمسك بثقل أكبر مما ألقاه الشبان، وبدون أن يخلع عباءته، قام بإلقائه أبعد مما ألقوه.

ربما أنه كان هناك رجال، عددٌ قليل جدًّا من بين أولئك الذين لم يكونوا ممن يمارسون الألعاب، يعيشون فى ثنايا المجتمع، ويتنقلون فى سفن ذات طوابق متعددة ويمارسون التجارة. ومع ذلك لا توجد كلمة واحدة سواءٌ فى الإلياذة أو الأوديسية هى فى الحقيقة مرادفة لكلمة "تاجر". وعلى العموم، فإن تزويد العالم اليونانىّ بكل ما حصل عليه من الخارج بالطرق السلمية كان فى أيدى غير الإغريق، الفينيقيون، على وجه الخصوص. لقد كان هؤلاء فى حقيقة الأمر شعبًا تجاريًّا، أبحروا من طرف العالم المعروف إلى الطرف الآخر، حاملين معهم العبيد والمعدن والحلىّ والأقمشة الجيدة. وإذا كانوا مدفوعين بالكسب- "مشهورين بسفنهم، أناسًا جشعين"[٣٢] - فإن ذلك لا علاقة له بالإغريق، المشاركين السلبيين فى العملية.

وكانت الحاجة إلى المعادن أو أية حاجة مشابهة، شأنًا أسريًّا يتعلق بالبيت (oikos)، وليست مسألة فردية. وكان الحصول عليها، سواءً بالتجارة أو الإغارة، لهذا السبب مهمة أسرية، يقوم على إدارتها الرئيس. ربما أنها قد تكون أوسع نطاقًا، وتضم أسرًا كثيرة تعمل بتعاون فيما بينها. وداخليًّا، كان الموقف مختلفًا كلية. لقد كانت التجارة داخل الأسرة مستحيلة تحديدًا: فالبيت كيان واحدٍ ووحدة لا تتجزأ. ولأن قطاعًا عريضًا من السكان كان مشمولاً فى الأسر الكبرى فإنه أيضًا كان بعيدًا عن إمكانية التجارة الخارجية أو الداخلية. وفى النهاية كان الإجراء (thetes) استثناءً مطلقًا؛ فلأنهم لا يملكون شيئًا لم يكن لديهم ما يتبادلونه.

(٣٢) Odyssey 15.415-16.

ويتبقى لدينا بعد ذلك غير النبلاء وصغار الرعاة والفلاحين. وفى بيوت هؤلاء كان نقص المواد مزمنًا؛ فإذا لم يكن هذا النقص مطلقًا نتيجة لفشل المحصول أو لكارثة حلت بالقطعان، فإنه كان جزئيًا بسبب عدم التوازن بين العائد والمنصرف. ولم تكن مشكلاتهم موضوع الشعر البطولىّ، ولا تزودنا الإلياذة ولا الأوديسية بمعلومات فى هذا الخصوص. ومع ذلك باستطاعتنا أن نستنتج أن المقايضة كانت تخفف بعضًا من الصعوبات التى واجهوها، وأنها كانت تتم بين بعضهم البعض ودون آلية السوق أو العرض، التى لم تكن معروفة على الإطلاق فى ذاك العالم. لقد تبادلوا الضرورات، والمقومات، وبدون شك طبقًا لنفس مبادئ التكافؤ، وكانت النسب محددةً بالعادة، ولم يكن هناك مكسب.

وكان لدى الرعاة والفلاحين، بمن فيهم طبقة الأجراء (thetes)، باستمرار مَعِينٌ لينهلوا منه. لقد كان باستطاعتهم العمل. وكما كان الحال مع التجارة، كان أيضًا بالنسبة للعمل. لقد كان حكم المجتمع الأخلاقىّ موجهًا لا إلى الفعل ذاته بل للشخص والظرف. فبعد عودته إلى إيثاكه، وهو ما يزال متخفيًا فى صورة شحاذ، وردًا على عرض يوريماخوس الساخر له بتزويده بعمل، تحدى أوديسّيوس الخاطبَ بمباراة فى الحرث- مثلما تباهى وهو فى هيئته الحقيقية بتفوقه فى رمى النبال أو فى رمى الأثقال. ولكن أوديسّيوس لم يكن مطالبًا بالحرث لكى يعيش. وفى الواقع من الواضح أنه على الرغم من معرفته بكيفية الزراعة والرعى وبناء الطوب، فإنه نادرًا ما قام بعمل فى أبعاديته باستثناء ممارسة الرياضة. ذلك هو الحد الفاصل الهائل بين أولئك الذين كانوا مكرهين على العمل وأولئك من غير المكرهين. فالجماعة الأولى المكونة من الرجال ذوى المهارات الملهمة، الشعراء وصناع المعادن والآخرين، كانت تشكل الصفوة. وفوق كل ذلك، كان الاختبار كالتالى، أن "حال الرجل الحر هو أنه لا يعيش تحت إمرة آخر."[٣٣] ومن ثم كان

---

(٣٣) Aristotle, Rhetoric 1.9, 1367a32. وهو يكتب مشيرًا إلى العمل على وجه التحديد.

هناك فاصل حادٌ بين أولئك الذين هم سادة لأنفسهم، رغم كونهم يعملون، رعاة وفلاحين مستقلين، وبين الذين في الجانب الآخر، مثل الأجراء (thetes)، والعبيد الذين يعملون من أجل الآخرين، والذين لم تكن حياتهم ملك أيديهم. لقد كان العبيد، على الأقل، ضحايا القدر. وكان الأجراء (thetes) طبقًا لهذا المفهوم أسوأ الجميع حالاً: لقد كان الواحد منهم يتنازل طواعية عن سيطرته على عمله، وبمعنى آخر عن حريته الحقيقية.

ويوجد قدرٌ كبير من سيكولوجية العمل، بما تتضمنه من غموض يتمثل فى الإعجاب بالمهارة والصنعة، من ناحية، وفي رفض العامل بوصفه كائنًا وضيعًا وضيع بشكل أساسي ولا يمكن تغييره، يجد رمزًا له على جبل أوليمبوس. فبعد أن صور الشاعر الآلهة في شكل بشريّ، كان متناغمًا بالقدر الكافي الذى جعله يُدخل العمل ضمن المهن السماوية. ولكن ذلك الأمر استتبعته صعوبة مؤكدة. لقد كان زيوس محبًا للغزل لا يشبع، وكان أبوللون رامي السهام وفي الوقت ذاته موسيقيًا، وكان آريس إله الحرب، وكان هؤلاء جميعًا تجسيدًا لصفات وأنشطة نبيلة، من السهل إعادة خلقها في صورة بشرية. ولكن كيف يمكن وضع الصانع الماهر الذى شيد قصورهم، وصنع أسلحتهم وبزاتهم وزخارفهم على قدم المساواة معهم، بدون إلقاء ظلال على سلسلة القيم والمراتب التى يرتكز عليها المجتمع؟ إله فقط هو الذى كان يستطيع صنع السيوف للآلهة، ومع ذلك يجب أن يكون بطريقة ما بمعزل عن الآلهة الآخرين.

لقد تمت صياغة الحل بشكل رائع، ورائع للغاية في حقيقة الأمر. لقد كان الحرفيّ هنا هو هيفايستوس (Hephaestus)، بن هيرا (Hera). وكانت مهارته خرافية بحقٍ، ولم يكلّ الشاعر من الحديث عنها إطلاقًا، وكان يتباطأ عند الحديث عن كيره وعن منتجاته، كما لم يتغنَّ بأى حدادٍ في إيثاكه. ذاك هو الجانب الإيجابيّ من تكافؤ الضدين. وكان الجانب الآخر هو الآتي: فمن بين كافة الآلهة كان

هيفايستوس "وحشًا أعرجَ ضخمًا" وكانت لديه "رقبة ضخمة وصدر مشعر."[٣٤] لقد وُلد هيفايستوس أعرجَ وحمل علامة عاره على شخصيته بأكملها. فلو كان الآلهة الآخرون أقل من بشرٍ، تبعًا لذلك، ما كان هيفايستوس ليصبح المصدر الدائم لمرحهم. وذات مرة، عندما نشبت معركة مخيفة بين زيوس وهيرا، حاول الإله الأعرج أن يقوم بدور صانع السلام، وملأ الكئوس بالنكتار[*] لكافة المجتمعين: "وانفجرت موجة من الضحك الذى لا يتوقف بين الآلهة المباركين أثناء مشاهدتهم هيفايستوس وهو ينطلق بسرعة واهتياج فى القصر."[٣٥] لقد تم الحفاظ على النسيج الاجتماعىّ لعالم أوديسيّوس.

وفى الحقيقة فإن الصورة المعكوسة على جبل أوليمبوس ما تزال أكثر رقة. ففيما يتعلق بالفن والصنعة، ارتبطت أثينا باستمرار بهيفايستوس، كما فى التشبيه الذى جرت فيه مقارنة مع صانع الذهب، "رجل ماهر علّمه هيفايستوس وأثينا كل أنواع الصنعة، "تيخنى" (tekhne)،"[٣٦] ولكن ليس هناك شيء مشوه على الإطلاق، أو على الأقل يشوبه الهزل، فيما يخص أثينا، الأثيرة باستحقاق لدى والدها من بين كل الآلهة. فلم يكن من الضرورى الاعتذار لمهارة أثينا فى استخدام يديها؛ لأن النمط فيما يتصل بالعمل اختلف بعض الشيء فى حالة النساء. فبإنكار حقهنّ فى مسلك بطولىّ فى الحياة، وفى القيام بأعمال البطولة، وفى ممارسة الألعاب التنافسية، وفى قيادة نشاط منظم من أىّ نوع، عملت النساء جميعًا بغض النظر عن طبقاتهنّ. فبمساعدة الوصيفات قامت ناوسيكا (Nausicaa) ابنة ملك الفاياكيين بإنجاز غسيل الأسرة. واهتدت الملكة بينيلوبى فى أثناء عملية نسجها إلى حيلة عطلت بمقتضاها طالبى يدها. ومع ذلك فإن خطتها المتمثلة فى أن تفك فى أثناء

---

(٣٤) Iliad 18.410-15.

(*) الـ: "نكتار" هو شراب الآلهة. [المترجم]

(٣٥) Iliad 1.599-600.

(٣٦) Odyssey 6.232-34.

الليل ما نسجته بالنهار، وتكرارها ذلك لمدة ثلاث سنوات كاملة حتى كشفت إحدى وصيفاتها السر، توحي أن عملها لم يكن بالذى لا يمكن الاستغناء عنه. وكانت نساء الطبقة الأرستقراطية، تمامًا مثل رجالها، يمتلكن جميع المهارات الضرورية، وغالبًا ما قمن باستخدامها. ومع ذلك كان دورهنّ إداريًا. لقد كان المنزل هو مملكتهنّ، وكذلك كانت أمور الطبخ والغسيل والنظافة وحياكة الملابس. وكان الخط الفاصل بالنسبة لهنّ بدرجة أكبر فى الدرجة التى يؤدين بها بأنفسهنّ الأعمال والمهام ذاتها-بين اللاتى يشرفن ويعملن فقط لمجرد قضاء الوقت، وبين اللاتى تجبرهنّ الظروف على الطبخ والحياكة بجدٍّ وكدٍّ.

الفصل الرابع

البَيتَ وَالعَشِيرَةُ وَالمُجتَمَعُ

موضوع الشعر البطوليّ هو البطلُ، كما أن البطلَ هو ذلك الرجل الذى يتميز بسلوك معين ويسعى إلى تحقيق غايات محددة بواسطة شجاعته الشخصية وبسالته. ولا تشكل الخلفية الاجتماعية أكثر من خشبة المسرح الذى يتحرك عليه الأبطال. ولا يطالع أحد الإلياذة إلا وتستلفت انتباهه الطبيعة الخاصة للقتال. فعلى الرغم من وجود آلاف المقاتلين من الجنود، فإن الشاعر لا يلتفت إلا إلى أياكس (Ajax) أو أخيلّيوس (Achilles) أو هيكتور (Hector) أو أيْنِيَاس (Aenias). مثل هذا الأسلوب الأدبيّ فى حدّ ذاته أمر معروف وشائع، كما أن الفنان الذى يتمتع بالقدر الكافى من المنطق ومن القدرة على الابتكار، اللذين يجعلانه يُعِيد تقديم أعدادٍ كبيرةٍ من المقاتلين فى وصفه للمعارك، هو فنانٌ نادرٌ بحق. ولا توجد من ناحية أخرى أية مفارقة تاريخية فى الإشارة إلى المبارزة الفردية بين الأبطال، كما حدث بين أخيلّيوس وهيكتور، أو بين أياكس وهيكتور، وهى المبارزة الأكثر إثارة من نواحٍ عدة؛ لكونها تنتهى بالتعادل وبتبادل الهدايا. إن النغمة غير الدقيقة تتضح فى وصف المعارك الكبرى. فعندئذٍ تتجلى الفوضى بشكل لا يمكن وصفه: فلا أحد يتولى القيادة أو يعطى الأوامر، كما أن المقاتلين يدخلون ساحة القتال ويخرجون وقتما شاءوا، ويختارون الأعداء الذين يحاربونهم، مثلما أنهم يتجمعون ويعيدون تنظيم أنفسهم لأسباب شخصية محضة. وفيما يتعلق بسوء التنظيم، وعلى عكس التحركات الفوضوية التى نلحظها فى بعض القصص الحربية من قبيل قصة "شارةُ الشجاعةِ الحمراءُ" (The Red Badge of Courage)، فإنه لا يحدث نتيجة لفشل خطة حربية أساسية ومحددة، بل لعدم وجود اهتمام قويّ من جانب الشاعر بأيّ

شيء آخر سوى أبطاله، بوصفهم أفرادًا. وبطبيعة الحال فإن الشاعر يشير بالضرورة إلى الجيش ككل لكي يحافظ على الواقعية الضرورية لخلفية الأحداث، ولكنه يعود إلى الشخصيات الأساسية بأسرع ما يمكنه. إن الفوضى ذاتها تشكل بالنسبة لاستيفين كرين (Stephen Crane)، مؤلف القصة المشار إليها، الجزءَ الأكثرَ أهمية في قصته، أما بالنسبة لهوميروس (Homer) فإنها مجرد وضع لا يمكن تجنبه في الشعر البطوليّ.

وتوجد خارج ساحة المعركة مئات التفاصيل الصغيرة التي لا تهم بدرجة كبيرة الحبكة الدرامية أو أعمال الأبطال. إن حادثة شنق الإماء الاثنتي عشرة، وكذلك الإشارة إلى شحنة الحرير الخاصة بمنتيس (Mentes)، وشراء لانيرتيس (Laertes) ليوريكليا (Euryclea)، وزيارة تِليماخوس (Telemachus) للمخزن أو الكرار، تشكل جميعها استطرادات غريبة وهامشية للغاية لدرجة أنها لا ترقى إلى أن تكون مشاهد مستقلة، مثلما أنها جميعها ليست ضرورية لمسيرة الحكاية. وعلى الرغم من ذلك فإن الشاعر يقدمها على صفحة تلو الأخرى، وبشكل موجز وفي تعبيرات أو في سطور، وإن كان يفعل ذلك بأكبر قدر من المهارة والاهتمام. إن الحِرَفِية الواضحة في الحبكة الدرامية، وكذلك قبول الناس لها، يعتمدان إلى حدٍّ كبيرٍ على هذه الإشارات العابرة لكونها تلقي الضوء على بعض السلوكيات أو تركز عليها، في الوقت الذي تُذَكِّر المستمعين فيه مرة تلو الأخرى بصدق الوصف الذي يقدمه الشاعر. وبالإضافة إلى ذلك فإنها تتمتع بأهمية أخرى تتمثل في المساعدة في التعريف بنظام اجتماعيّ معقد وبما يشتمل عليه هذا النظام من قيم ومبادئ.

وفي أعمال كل بطلٍ على حدة فإن المكانة الاجتماعية (status) ربما تشكل العامل المكوّن الأساس، وللوهلة الأولى فإنها على وجه التحديد مكانة اقتصادية (class status). إن أعمال المرء وكذلك تقييم مهاراته، وما كان يقوم به وما يجب

عليه ألا يقوم به فيما يتعلق بالحصول على احتياجاته، وكذلك أسلوب تصرفه فيما لديه من مقتنيات، داخل البيت (oikos) وخارجه، كانت كلها أمورًا ذات دلالات مهمة بالنسبة لمكانته في المجتمع. لقد كان ذلك العالم يضم قيمًا ومُثلاً متعددة، ويشتمل على أوامر ونواه متنوعة. وفيما يتعلق بالعمل والثروة، على الأقل، فإن العامل المؤثر كان دائمًا الفئة الاجتماعية المحددة التي ينتمي إليها المرء، وليست مهاراته أو رغباته أو المشروع الذي يقوم به فرد ما. وكان الأبطال الرئيسون أفرادًا، وليسوا أشخاصًا آلية. وعلى الرغم من ذلك ففي كافة جوانب سلوكياتهم -وليس فقط في المجال الاقتصاديّ وحده- كانت الحدود الضمنية للمبادرة الفردية المسموح بها، وكذلك مدى تخطيها، حدودًا ضيقة للغاية: لقد كانت بين النبلاء، وكانت تتضح فقط في درجة قوة المرء وإقدامه، وفي حجم طموحاته للمجد، وفي مدى نمو الإحساس بما هو ملائم. وكانت هناك فروق في المزاج الشخصيّ أيضًا، كما يتضح من المهارة التي يتميز بها أوديسِّيوس (Odysseus)، أو من الحساسية المفرطة التي يتميز بها أخيلِّيوس، ولكنهما كانا شخصين محيَّرَيْن أكثر من أيّ شيء آخر.

ويزودنا أجامِمنون (Agamemnon) بصورة ملائمة للتعبير عن التأثيرات بعيدة المدى للمكانة الاجتماعية. لقد وصفه الشاعر عدة مرات بأنه "أكثر ملَكيَّة" من بقية الأبطال في طروادة، وبأسلوب خالٍ تمامًا من السخرية. وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يكن على الإطلاق أكثرهم بطولة في قدراته، أو في إنجازاته الشخصية. فلم يكن منصبه على رأس القوات الغازية نتيجة إنجاز شخصيّ، بل كان نتيجة لوضعه المتميز في السلطة، بوصفه القائد الذي استطاع أن يحضر أكبر وحدة عسكرية تشتمل على مائة سفينة. وكانت مكانته تتيح له القيادة، وبالتالي الحق في توزيع الغنائم واختيار جائزة الشرف. وقد منعت مكانته أيضًا أخيلِّيوس -الذي كان حانقًا عليه- من التعبير عن تحديه له بأكثر من الأسلوب السلبيّ المتمثل في التكشير الحادّ عن أنيابه، على الرغم من أن الأخير كان باعتراف الجميع القائد الأفضل.

ويزودنا تِليماخوس بمثال آخر. لقد كان ما يزال صغير السن بكل تأكيد، ومع ذلك توجد نبرة انفعال لا يمكن إغفالها فى كلمات أثينا التى وجهتها إليه، عندما قالت: "ينبغى عليك ألا تستمر فى أعمالك الصبيانية، حيث إنك الآن تخطيت هذه المرحلة".[١] ولم يكن البلوغ أمرًا يقتصر على بلوغ السن، لأن شابًا من هذه الطبقة ومن هذا الأصل كان يتوقع منه أن ينمو أسرع وأكثر ممن هم فى سنه، وأن يواجه بشكل أسرع الظروف التى تتطلب سلوك شخص بالغ.

لقد كانت أثينا توبخ تِليماخوس بقوة بسبب الموقف الصعب الذى تسبب فيه "راغبو الزواج" من والدته. وأشارت إلى أوريستيس (Orestes) بوصفه نموذجًا وأسوة له، قائلة: "ألم تسمع عن الشهرة التى حظى بها أوريستيس المعروف بين كافة الرجال، عندما ثأر من قاتل والده، الشرير أيْجيستوس (Aegisthus)؟"[٢] إن راغبى الزواج من بينيلوبى (Penelope) لم يرتكبوا أية جريمة، مثلما أنهم لم يهددوا بارتكابها (لقد حاولوا فيما بعد أن يوقعوا بتِليماخوس وأن يغتالوه دون أن يُوَفَّقوا). ومع ذلك فإن أوريستيس كان نموذجًا ملائمًا لابن أوديسيوس، وكان الاثنان بعيدين عن موضوع المجد والشرف الخاص بالبطل. لقد واجه كلٌ من الشابين التزامات من نفس النوع، بمعنى أنها كانت التزامات "نابعة من الأسرة"، فكان على أحدهما أن يثأر لمقتل والده، وكان على الآخر أن يحافظ على بيت والده (oikos).

---

(١) Odyssey I.296-9.

(٢) Odyssey I.298-300. فى كافة الأماكن التى ذُكر فيها أوريستيس فى الأوديسية لا توجد إشارة واحدة إلى أنه قتل أيضًا أمّه كليتايمنيسترا (Clytaemnestra) ، ومع ذلك فإن هذا العمل هو الموضوع الأساس فى مأساة أوريستيس فى الدراما اليونانية. وعلى أية حال، وكيفما أراد المرء أن يفسر صمت هوميروس، فإن التفاوت وكذلك الموضوع المعاصر بوضوح فى المسرحيات، فيما يتعلق بمشاهد البلاط، يزودانا بدليل آخر على أن المعلومات المأخوذة من المعالجات التالية لهوميروس للأساطير القديمة غير مفيدة إلى حدٌ كبير فى محاولتنا دراسة عالم أوديسيوس. لقد أعاد الشعراء والكتاب المسرحيون المتأخرون تشكيل المادة الأسطورية بحرية تامة ودون أىّ اهتمام بالتاريخ.

لقد كان أوريستيس وأيْجيسثوس وتِليماخوس، وكافة الثمانية ومائة خاطبًا، من النبلاء. ومع ذلك كان يوجد داخل الطبقة الاجتماعية الواحدة نوع آخر من العلاقة الجماعية والولاء الجماعيّ؛ هو الرابطة الأسرية. ربما يمكننا ملاحظة أن أجامِمنون كان مؤيَّدًا في حقه أن يقود الجيوش اليونانية بحقيقة إن أخاه مينيلاوس (Menelaus) كان الجانب المتضرر الذي خرجوا للثأر من أجله. وحيث كان الأمر يتعلق بأعمال إجرامية، فإن الأسرة -وليست الطبقة (أو أفراد المجتمع ككل)- هي المسئولة عن الحفاظ على قواعد السلوك وعن عقاب أية مخالفة لها.

ومن الناحية التاريخية هناك علاقة عكسية بين التوسع في فكرة أن الجريمة تمثل عملاً مضرًا بالشأن العام، وبين سلطة الجماعة التي تربطها صلة الدم. إننا نعرف العديد من المجتمعات البدائية التي لا يمكن أن نجد فيها أية مسئولية "عامة" لمعاقبة أيّ مرتكب لجريمة. وفي هذه الحالات إما أن تثأر الضحية أو أقاربها، وإما ألاّ يحدث أيّ شيء على الإطلاق. إن تطور فكرة الجريمة ونموها، وكذلك القانون الجنائيّ، يمكن كتابته، على وجه التقريب، بوصفه تاريخ التحول باتجاه تغيير هذه الحالة المبكرة من الصلاحيات واسعة المدى للأسرة. ولم تتطور المسألة كثيرًا في وقت أوريستيس وتِليماخوس، مثلما أن تطورها لم يبدأ في الأماكن التي كان الإنسان الغربيّ الحديث -بما يتمتع به من تقاليد أخلاقية مميزة- سيختارها بالتأكيد. لقد ظلّ القتل - بوصفه المثال الأكثر وضوحًا - إلى حدٍّ كبيرٍ مسألة شخصية. وبقدر ما كان الضمير الجماعيّ يعتقد أن العقوبة أمرٌ مرغوبٌ فيه، فإنه فشل في أن يتوصل إلى أية آلية لتنفيذها خارج نطاق العشيرة. وكانوا بدورهم يرفضون أن يميزوا بين حالات القتل لتحديد القتل المبرر والقتل غير المبرر. لقد دفع قتل أوديسيوس لراغبي الزواج أباءهم وأقاربهم إلى حمل السلاح؛ لأن هذا الأمر يقلل من مكانتهم، كما قال والد أنتينوس (Antinous): "حتى بالنسبة لأولئك الذين سيسمعون ذلك الأمر فيما بعد، إذا لم نثأر لمقتل أبنائنا وإخوتنا."[٣] ولولا أن أثينا

---

(٣) Odyssey 24.433-43.

تدخلت لإنهاء القصيدة، كما افتتحتها هي ذاتها، ما كانت أية قوة بشرية في إيثاكه لتستطيع أن تمنع مزيدا من إسالة الدماء.

إن قوة رابطة العشيرة اليونانية -عبر مراحل التاريخ اليونانيّ- تتضح بشكل مباشر من اهتمامهم بالأنساب. ولم يتغير هذا الأمر بشكل جذريّ في أية مرحلة من مراحل التاريخ، ومع ذلك تغيرت المصطلحات الأسرية، وكان الميل دائمًا باتجاه تصغير محيط الدائرة. إن هوميروس يستخدم كلمة بعينها، هي "إيناتير" (einater)، للإشارة إلى زوجة أخي الزوج، إذا ما رغبنا في الإشارة إلى مثال واضح، وسرعان ما اختفت هذه الكلمة من القاموس المعتاد. وليس من الصعب علينا أن نتوصل إلى السبب في هذا التغيير. ففي بيت مثل بيت برياموس (Priamus) كانت هناك نساء عديدات ممن كانت علاقتهنّ ببعضهن البعض تشبه علاقة زوج الأخت. وعندما اختفى هذا النوع من الأسر الكبيرة، عندما ذهبت البنات إلى بيوت أزواجهنّ، وأسس الأبناء بيوتهم الخاصة في حياة آبائهم، فإن التمييز الدقيق للـــ: "إيناتور" أصبح تمييزًا دقيقًا للغاية. لقد أصبحت الكلمة العادية "كيديستيس" (kedestes)، التي تطلق على أيّ شخص يَمُتّ للمرء بصلة النسب تفي بالغرض بالقدر الكافي.

لقد كان وجود ثلاث جماعات متميزة ومتداخلة في الوقت ذاته، "الطبقة والعشيرة والبيت (oikos)"، هو السمة التي تحدد حياة المرء، من الناحيتين المادية والمعنوية. وكانت متطلبات كل من هذه الجماعات الثلاث لا تتوافق في كافة الأحوال. وعندما كانت المتطلبات تتعارض بشكل واضح فعندئذ كانت تحدث توترات لا يمكن تجنبها، وكذلك حالات من عدم التوافق. وكانت هناك بالإضافة إلى ذلك مجموعة رابعة في الصورة. فبمجرد أن وضعت أثينا بعض الشجاعة في قلب تليماخوس، دعا بناءً على مشورتها أهالي إيثاكه إلى الاجتماع. وسأل أول المتحدثين، وهو نبيل يُدعى "أيجوبتيوس" (Aegyptius)، عن الداعي إلى الاجتماع

وعن الهدف من ورائه. وردًا عليه أعاد تِليماخوس صياغة السؤال جزئيًا، عندما قال: "لم أسمع أية أخبار عن أن الجيش (أىْ: أوديسِّيوس ورجاله) عائد... كما أننى لن أعلن شيئًا أو أتحدث عن موضوع عام." وبعد ذلك أضاف تِليماخوس، ولكننى سأتحدث "عن موضوع خاص بى، لأن الشرّ حلّ ببيتى، وهو شرّ مزدوج."[٤]

وكان الشرُّ المزدوج يتمثل فى فشل أوديسِّيوس فى العودة وفى رفض راغبى الزواج من أمه الابتعاد عنها. وكان هؤلاء الخاطبون جميعًا هم مشكلة تِليماخوس الخاصة. ولكن أيجوبتِيوس اعتقد أن الدعوة للاجتماع كانت لمناقشة شأن عام، مثلما أن وجود مثل هذا الاعتقاد أمرٌ مهمّ. لقد كان المجلس (agora)[٥] أمرًا غير معروف بين الكوكلوبيس (Cyclops)، وكان هو ثانى العناصر التى ذكرها أوديسِّيوس بوصفه علامة على حالتهم غير المتحضرة تمامًا (وكان غياب "العدالة" (themis)[٦] هو العامل الثالث).

ولم يكن المجلس مؤسسة بسيطة، لقد كان يتطلب مسبقًا وجود مجتمع مستقر وهادئ نسبيًا، ويتكون من عدد من البيوتات والجماعات التى تربطها صلة الدم. وبمعنى آخر فإنه كان يتطلب إقامة بناءٍ علوىّ إقليمىّ من نوع ما، على صلة الدم. ويعنى ذلك أن بيوتًا عديدة وكذلك جماعات أسرية أكبر قد حلّ محلها - لأجل الوجود المادىّ المتقارب - معيار للوجود المشترك، مجتمع، وهو ما يدل على أنها

---

(٤) Odyssey 2.42-46.

(٥) المجلس هو المعنى الأساسىّ لكلمة (agora)، بوصفها مكان الاجتماع والاجتماع ذاته. أما دلالة "السوق" التى ارتبطت بها بدرجة أكبر فى الفكر الحديث فهى متأخرة جدًا. ولا يوجد أىّ أثر لهذا المعنى فى هوميروس.

(٦) إن كلمة (themis) من الكلمات التى تصعب ترجمتها. إنها هدية من الآلهة، وعلامة على الوجود المتحضر، وتعنى أحيانًا العادات المستقرة، والإجراء الملائم، والنظام الاجتماعىّ، كما أنها تعنى أحيانًا مجرد إرادة الآلهة (كما تعبر عنها النبوءة، على سبيل المثال)، مع قدر قليل من فكرة "الحق".

تخلت جزئيًا عن استقلالها. وفي هذا البناء الاجتماعيّ الجديد والأكثر تعقيدًا كانت المسألة الشخصية من الأمور التي ظلت داخل دائرة السلطة المنفردة للبيت (oikos)، أو الجماعة المرتبطة بصلة الدم، مثلما أن المسألة العامة كانت المسألة التي يصدر القرار فيها بواسطة رؤساء كافة الجماعات المنفصلة بعد أن يتشاوروا فيما بينهم.

وبينما لا يمكننا وصف بدايات المجتمع اليونانيّ ولا تاريخه المبكر، ولم يكن اليونانيون هم أول من هاجر إلى منطقة شرق البحر المتوسط مثلما أنهم لم يكونوا مجرد صيادين بدائيين. لقد كانوا قومًا رعاة، كما تشير الدلائل، وعرفوا أيضًا العمل بالزراعة. ومن الواضح أن تنظيمهم كان قبليًا، وإن كان قد تعدل ببعض المستجدات الوقتية في أثناء ترحالهم. ولكن العالم الذي دخلوه كان أكثر تعقيدًا، على وجه الخصوص في أطرافه، حيث كانت توجد في مصر وفي الشرق الأدنى تجربة طويلة سابقة، فيما يتعلق بالتنظيمات الإقليمية واسعة المدى. وفي غضون الألف عام تقريبًا التي تلت البدايات وحتى عصر أوديسيوس، فإن تاريخ التنظيم الاجتماعيّ والسياسيّ يتصف بكونه معقدًا نسبيًا. فلم يحدث أبدًا أن استقرت الأوضاع لمدة ألف عام، كما أن الحركة لم تكن أبدًا في خط مستقيم أو في اتجاه واحد، تصاعديًا كان أم تنازليًا. لقد مرت قرون تعجّ بأحداث عنيفة وكوارث، تاركة آثارًا واضحة لا يمكن تفسيرها بوضوح على السجل الأثريّ. وفي بعض الأحيان كانت هذه الأحداث تتصف بالقوة التي تقضي على المؤسسات مع ما تدمره من حوائط حجرية وما تحصده من أرواح الناس.

لقد كانت إيثاكه (Ithaca) في عهد أوديسيوس تمثل كيانًا يفوق المجتمع الذي تربطه علاقة الأسرة أو صلة الدم، ويقلّ تكاملاً عن المجتمع المدنيّ. وكانت تفوق –على الرغم من ذلك– العديد من المراكز المتحضرة في المراحل السابقة. ويجعلنا ذلك نستنتج أن التدمير الذي كان شاملاً تقريبًا لشرق البحر المتوسط في المدة ما

بين ١٢٠٠ و ١١٠٠ ق.م، سواءً أكان يرجع إلى الغزو الدوريّ المذكور فى الروايات القديمة أم إلى أية قوة أخرى، قضى على كثير من البنيات السياسية القائمة، وأحلّ محلها مبدأ رابطة العشيرة المطلقة. وهناك أيضًا دلالة أخرى، على أية حال، تتمثل فى أن العودة البطيئة للمجتمع لم تكن شيئًا جديدًا بين أبطال القصيدة، وأن المجلس (agora) والعدالة (themis) وفكرة أن هناك أمورًا شخصيةً وأخرى عامة، كانت ذات أساس جيد فى تفكيرهم. لقد تحيّر أهالى إيثاكه عند اجتماعهم بسبب الجوانب العديدة لدعوات تِليماخوس، ولم تكن هناك أية علامة على القلق أو الشك فى الكيفية التى يجب أن تدار بها شئون المجلس.

وكانت القواعد بسيطة نوعًا ما. لقد كان المجلس يجتمع عادة بناءً على طلب من الملك حسبما يتراءى له، دون أية إعلانات مسبقة. وعندما كان الناس يخرجون فى حملة من الحملات، فإن المجلس كان يجتمع فى المعسكر للنظر فى الموضوعات المتعلقة بالحرب.(٧) وسواءً أكان الاجتماع فى مكان الإقامة أم فى معسكر القتال فإنه لم تكن هناك مواعيد محددة للاجتماع، مثلما أنه لم يكن هناك عدد محدد للجلسات. ففى أثناء غياب أوديسّيوس مرّ على إيثاكه ما يزيد على عشرين عامًا دون عقد المجلس. ومع ذلك يبدو أنه كان هناك أناس آخرون يتمتعون بالصلاحية للدعوة إلى عقده إذا ما رغبوا فى ذلك، كما فعل أخيلّيوس عندما جمع الآخيين فى ميدان القتال على الرغم من أن أجاممِنون، وليس هو، كان القائد العسكريّ الأعلى. لقد كان تساؤل أيْجوبتيوس فى إيثاكه يشير - بدون شك - إلى صحة الاجتماع الذى دعا إليه تِليماخوس، ولم يكن يتملك الشيخ الكبير سوى مجرد الرغبة فى معرفة الشخص الذى كسر جدار الصمت الذى استمر عشرين عامًا.

---

(٧) فى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كان اجتماع القوة العسكرية للحلف الإيتولى يقوم فى بعض الأحيان بعمل المجلس المعتاد للحلف.

وكان الوقت المعتاد للاجتماع هو الفجر: "وعندما طلع الصبح – وليد الفجر – ذو الأصابع الوردية، استيقظ الابن العزيز لأوديسيوس من سريره وارتدى ملابسه... وعلى الفور أمر المنادين ذوى الأصوات العالية بدعوة الآخيين ذوى الضفائر المنسدلة إلى الاجتماع. ونادى أولئك واجتمع هؤلاء فى الحقيقة على وجه السرعة."(٨) لقد كان الموضوع الوحيد على جدول الأعمال هو الشأن الذى يريد الداعى إلى الاجتماع مناقشته. وكان كل من يرغب فى الحديث يقوم ليعبر عن رأيه، وبينما كان يتحدث كان يمسك بالصولجان الذى يضعه الحاجب فى يده. وطبقًا للمعنى الحرفىّ فإن الصولجان كان عصا سحرية تجعل المتحدث محصنًا ضد الاعتداء الجسدىّ. وأعطت التقاليد كبار السن الفرصة الأولى للحديث. وبعد ذلك كانت الكيفية تتحدد طبقًا لمسار المناقشة، أكثر منها طبقًا لنظام محدَّد للأفضلية. وكان الاجتماع ينفض بعدما ينتهى المتحدثون من مناقشاتهم.

ولم يكن المجلس يصوّت أو يصدر قرارًا. لقد كان دوره مزدوجًا: أن يستكشف من خلال المناقشات المؤيدين والمعارضين لفكرة ما، وأن يوضح للملك أو للقائد العسكرى الجانب الذى تميل إليه الآراء. وكان الأسلوب الوحيد للتعبير عن الرأى هو التهليل، وفى غالبية الأحيان فإنه كان يتم بطريق أقل تنظيمًا، مثل الصياح للتعبير عن رفض رأى لا يحظى بتأييد عام. وكان الملك حرًا فى أن يتجاهل الآراء وفى أن يفعل ما يتراءى له. وفى الحقيقة فإن هذا الأمر تحديدًا هو الذى يزود ملحمة الإلياذة بموضوعها. لقد أتى كاهن إلى معسكر الآخيين لكى يفتدى ابنته الأسيرة خروسيس (Chryseis). وقدم طلبًا موجزًا "وهلل كافة الآخيين الآخرين موافقين على احترام الكاهن وعلى قبول الفدية الكبيرة، ولكنها لم تَسُرّ قلب ولد أتريوس، أجامِمنون، وصرفه بخشونة."(٩) ونزل الإله أبوللون (Apollo) بحنق

(٨) Odyssey 2. 1-8.

(٩) Iliad 1.22-25, 376-79.

شديد من أوليمبوس (Olympus) ولمدة تسعة أيام صب سهامه على جيش الآخيين. "واشتعلت الأكوام متجاورة لحرق الموتى بشكل متواصل" حتى أشفقت عليهم هيرا (Hera) وطلبت من أخيلِّيوس أن يدعو المجلس إلى الاجتماع. وعندئذ استجاب أجاممنون بعد مشاجرة عنيفة مع أخيلِّيوس، ووافق على إطلاق سراح ابنة الكاهن، وأصدر قرارًا شخصيًا، وأحاديّ الجانب، بأن يأخذ بدلاً منها فى كوخه بريسيس (Briseis)، الجائزة التى حصل عليها أخيليوس ضمن أسراه.

لقد تحدث أخيلِّيوس ست مرات فى الاجتماع، وتحدث أجاممنون أربعًا، ولكنهما كانا يحدثان بعضهما البعض فى أثناء ذلك بشكل مباشر، مثل رجلين يتجادلان فى إطار شخصيّ داخل منزل أحدهما. وبمجرد أن انتهى أجاممنون مما يقوله لأخيلِّيوس التفت إلى المجتمعين، وأعلن عن قراره بتسليم خروسيس وعن الإجراء الواجب القيام به لاسترضاء الإله. وباستثناء هذه اللحظة وحدها، فإن المتناقشين كانا يتحدثان فقط إلى بعضهما البعض. وعندما تدخل نستور (Nestor) قرب النهاية لكى يحثهما على التصالح فإنه تحدث فقط إلى البطلين. وأخيرًا "عندما انتهى الاثنان من شجارهما بالكلمات النابية، فإنهما صرفا المجلس المنعقد بجوار سفن الآخيين."(١٠) وفى هذه الحالة –وعلى عكس غيرها فى الإلياذة– فإن الجيش لم يُظهِر أىّ نوعٍ من التفضيل لرأى من الآراء أو أية مشاعر أخرى.

مثل هذا الأداء، ومثل هذه المؤسسة غير الرسمية التى تتضح فى هذا النوع من المجالس، لا يمكن تقييمهما بسهولة طبقًا للقواعد البرلمانية. فلم يكن الملك أو القائد العسكرى يخضع لقيد من أىّ نوع لكى يدعو لعقد اجتماع، ومع ذلك كان للنبلاء، وبشكل معين حتى للعامة، الحق فى أن يعبروا عن رأيهم، لأنه لا يوجد أحد آخر غير الملك يستطيع أن يوجه الدعوة للاجتماع. وكان زعماء النبلاء يخدمون الملك بوصفهم مجلسًا للشيوخ. وهنا أيضًا لم يكن هناك شيء ملزم فيما

---

(١٠) Iliad 1.304-305.

يتعلق بتوجيهاتهم. وعلى سبيل المثال فقد حدث فى إحدى المرات أن جمع الملك ألكينوس الفاياكيين "القادة والشيوخ" وأخبرهم بقراره بالتجهيز لعودة أوديسيّوس إلى إيثاكه، وقادهم بعد ذلك إلى الوليمة دون أن يتوقف حتى لسماع رأيهم أو لمعرفة ردّ فعلهم.

ومع ذلك فإن الإلياذة والأوديسية تمثلثان بمشاهد اجتماعات ومناقشات، ولم تكن هذه مجرد أدوار في مسرحية. وبالنظر إليها بالمفهوم الضيق للحقوق الرسمية، فإن الملك كان يتمتع بالقدرة على أن يصدر قراراته بمفرده ودون استشارة أحدٍ آخر. وغالبًا ما كان يفعل ذلك. ولكن كانت هناك أيضًا "ثيميس" (themis) أيْ العادات والتقاليد والأساليب الشعبية والقواعد الأخلاقية، كيفما شئنا تسميتها، التى كانت قوتها الكبيرة "تَنفُذ (أو لا تَنفُذ)". لقد كان لدى عالم أوديسيّوس إحساس استثنائىّ إلى حدٍّ كبير بما هو ملائم ومناسب. لقد حدث مرة واحدة فى القصيدتين أن حاول أحد أفراد العامة أن يتحدث أمام المجلس، وضربه أوديسيّوس على الفور. لقد تصرف ثيرسيتيس (Thersites) بشكل غير لائق: لأن عامة الناس كانوا يوافقون أو يرفضون وهم يستمعون إلى ما يقال، ولكنهم هم أنفسهم لم يكونوا يتقدمون بأية اقتراحات. لقد كان هذا الأمر من صلاحيات الأرستقراطيين الذين كان دورهم أن يشيروا بالرأى، وكان للملك أن يستجيب إذا رغب فى ذلك. لقد قال نستور لأجاممنون في اجتماع مع كبار الشيوخ "إنه يليق بك أكثر من أى شخص آخر أن تتحدث وأن تنصت."[١١] وكان الملك الذى يتجاهل المشاعر السائدة يمارس حقه، ولكنه كانه يواجه عندئذٍ خطرًا. لقد كان على أى حاكم أن يحسب حسابًا لاحتمال أن أولئك الذين تحتم عليهم القوانين أو العادات أن يطيعوه يمكن أن يرفضوا طاعته يومًا ما، سواءً بالمقاومة السلبية أو بالعصيان المباشر. وهكذا فإن المجلس الهوميرىّ كان يؤدى خدمة للملك بوصفه مقياسًا للرأى العام، مثلما أن مجلس الشيوخ كان يكشف عن الآراء السائدة بين النبلاء.

---

(١١) Iliad 9.100.

ويوجد قدرٌ كبيرٌ من عدم التكلف، ومن اليسر ومن المرونة، يميز كافة المؤسسات السياسية في ذلك العصر. لقد كانت هناك حدود للمسئولية وللسلطة، وكانت الحدود مفهومة عادة، ولكنها كانت غالبًا ما يتم تخطيها، وعندئذٍ كانت تحدث بعض المشكلات. وإذا كان باستطاعة الملك أن يتجاهل رأى المجلس، بغض النظر عن مدى وضوحه ومدى الإجماع عليه، فإن من الصحيح بالقدر ذاته أن العالم اليونانيّ عاش حياته دون مشكلات وبدون ملوك لمدة عشرة أعوام، وعاشتها إيثاكه لمدة عشرين عامًا. وكان ذلك الأمر ممكنًا لأن نظام المجتمع الذى يعلو نظام الأسرة والعشيرة، بوصفه وحدة إقليمية يحكمها ملك، أضعف الوضع السائد فى هذا النظام، وإن كان ذلك بشكل جزئيّ ومن بعض الجوانب المحددة. ويرجع السبب فى ذلك إلى الحرب التى كانت على وجه الخصوص دفاعية، والتى كانت نشاطًا للمجتمع ككل، فى الوقت الذى كانت فيه الأنشطة السلمية المعتادة، وكان الحصول على موارد العيش، والتفاعل الاجتماعيّ وإدارة العدالة، والعلاقات مع الآلهة، وحتى العلاقات غير الحربية مع العالم الخارجى، تتم إلى حدٍّ كبيرٍ، كما كان الحال فى العصر السابق، من خلال القنوات المتشابكة للبيت والعشيرة والطبقة.

وكان فكرُ العشيرة يتخلل كل شيء. وحتى المؤسسات الجديدة نوعًا ما فى المجتمع، غير المعتمدة على رابطة الدم، كانت تتشكل إلى حدٍّ كبيرٍ على غرار النظام الأسريّ. لقد كان الرمز الكامل، بطبيعة الحال، هو صورة الملك بوصفه "أبًا" (وعلى جبل الأوليمبوس كان زيوس يلقب بأنه "والد الآلهة"، وهو لقب إذا ما أخذناه حرفيًا وجدناه يعنى أنه كان والدًا لبعضهم دون البعض الآخر). وطبقًا لبعض مهام الملك فى المجلس، على سبيل المثال، أو عند تقديم القرابين للآلهة، كان الملك يقوم فى الحقيقة بدور البطريرق، رجل الدين. وقد استخدم الشاعر الفعل اليونانيّ anassein، الذى يعنى "يسود، يحكم"، فى القصائد للإشارة إلى الملك basileus وإلى رب البيت oikos دون أى تمييز بينهما على الإطلاق. كذلك فإن

الأمر ينطبق بالقدر نفسه على الآلهة، فإن زيوس، على سبيل المثال، "يحكم anassein الآلهة والبشر."[١٢]

إن معنى أن يحكم المرء تعنى -فى نهاية الأمر- أن تكون لديه سلطة ما سواءً أكانت فوق أشياء أم فوق أناس (عن طريق أناس آخرين أو إله ما)، أو فوق البشر والآلهة معًا (بواسطة زيوس). ولكن الصيغ التى يستخدمها الشعراء الغنائيون تضيف فى بعض الأحيان لمسة قليلة ذات دلالة. ففى خمس حالات وُصِف فعل "يحكم" بكلمة أخرى هى: iphi، التى تعنى "بالقوة"، لتوضح أن حكم الملك (وليس حكم ربّ الأسرة الذى لم يوصف أبدًا بهذه الصفة) هنا هو حكم بالقوة. لا ينبغى علينا بأية حال أن نفسر هذه الكلمة أنها تعنى الطغيان، أو أنها تشير إلى حكم مفروض طبقًا للمعنى الكريه للكلمة. فعندما طلب هيكتور من ابنه أن "يحكم بالقوة فى إيليون (Ilion)،"[١٣] كان يطلب من الآلهة أن يخلفه ابنه على العرش، وليس أن تمنحه صفات الطاغية أو خصائصه. وعندما أطلق أجاممنون اسم "إفياناسا" (Iphianassa) على ابنته، كان يعنى أنها "أميرة" تمامًا مثلما أن اسم "إفيجينيا" (Iphigeneia)، الذى يعنى "ابنة الأقوياء"، يشير إلى أصل ملكىّ.

إن كلمة "إيفى" iphi تلفت الانتباه بهدوء إلى الخطوط المتوازية بين رب البيت وبين الملك. ويتمثل أحد المعايير المهمة فى مسألة الخلافة. لقد كان الملوك -مثل هيكتور- مهتمين شخصيًا بالتأكيد على صورة الأسرة إلى حدّ يجعل أبناءهم يستطيعون بشكل تلقائى أن يتبعوهم على العرش تمامًا مثلما يتبعونهم فى البيت oikos: "مات الملك، يحيا الملك!". لقد كان هذا الشعار يمثل الانتصار الأخير للمبدأ الأسرىّ فى النظام الملكىّ. ولكن هذا الشعار لم يكن يرفع أبدًا فى عالم أوديسيّوس بواسطة الحاجب، فلم تكن الملَكية قد وصلت إلى هذه المرحلة المتقدمة، مثلما أن

---

(١٢) e.g. Iliad 2.669.

(١٣) Iliad 6.479.

بعض الأرستقراطيين الآخرين غالبًا ما كانوا ينجحون فى فرض شعار بديل مؤداه: "مات الملك، بدأ الصراع على العرش". وبهذه الكيفية يمكننا تلخيص الجزء الخاص بإيثاكه فى الأوديسيه. لقد كان "الحكم بالقوة"، بمعنى آخر، يعنى أن الملك الضعيف ليس ملكًا، وأن الملك إما أن يتمتع بالقدرة على الحكم وأما ألا يحكم على الإطلاق.

لقد تحدث تِليماخوس فى أحد لقاءاته المتكررة مع راغبى الزواج من أمه باستغراب نوعًا ما، قائلاً: "وعلى أية حال يوجد فى إيثاكه ملوك آخرون basileis عديدون بين الآخيين، صغارٌ وكبارٌ، ويمكن لأحدهم أن يملأ المكان، لأن أوديسِّيوس العظيم قد مات."[١٤] وتختلف هذه الملاحظة عما يصف به نستور أجاممنون من أنه "أكثر الملوك مهابة،" لأن المقارنة هنالك كانت مع الأبطال المجتمعين فى طروادة الذين كان عدد كبير منهم فى حقيقة الأمر ملوكًا فى بلادهم، بينما كان تِليماخوس يعنى نبلاء إيثاكه الذين لم يكن أىّ منهم ملكًا. وباستطاعتنا أن نتجاهل هذه الفقرة بوصفها محاولة أولى تنقصها الخبرة من جانب تِليماخوس، الذى بدأت مسيرة بلوغه فى ذلك اليوم تحديدًا، لكى يقلد خدع والده، ولو أنها كانت الوحيدة من نوعها. لكن التصعيد بين الملك بوصفه بازيليوس basileus والملك بوصفه رئيسًا basileus لبيت أرستقراطىّ بما يضمه من خدم وعبيد، يتكرر مرة تلو الأخرى فى القصائد الهوميرية، وبواسطة العديد من الكُتّاب الآخرين المبكرين. كذلك فإن هذه الحادثة لا تُعَدُّ مثالاً للافتقار إلى الكلمات؛ إذ إنه باستطاعتنا أن نستشعر خلف المصطلحات ضغطًا قويًا من الأرستقراطيين لتقليل نفوذ الملكية إلى الحدّ الأدنى. لقد كانت الأرستقراطية سابقة للنظام الملكىّ من الناحية المنطقية والتاريخية والاجتماعية. وفى الوقت الذى كان النبلاء فيه يعترفون بالنظام الملكىّ فإنهم كانوا يقترحون الحفاظ على الأفضلية المميزة لمكانتهم، وأن يجعلوا المَلِك على مستوى لا يتعدى معه كونه الأول بين أقرانه.

---

(١٤) Odyssey 1.394-96.

وتتضح ملامح الصراع الأساسيّ بوضوح وبكل ما يتصف به من تعقيد في الكتاب الأول من الأوديسيه. وتأتي إشارة تِليماخوس إلى الملوك العديدين في إيثاكه ردًّا على استثارة أنتينوس، أحد راغبي الزواج من والدته، والتي يقول له فيها: "لا جعل كرونيون (Cronion) (أيْ: زيوس) منك ملكًا على إيثاكه المحاطة بالبحار، التي هي ميراثك بحق المولد." لقد أقرَّ تِليماخوس بحزن أن هذا الأمل وتلك النبوءة يمكن أن يتحققا، وذهب إلى حدّ المطالبة بأن يُرَدّ إليه بيته، بوصفه شيئًا مختلفًا عن المُلك. وكان ردّ أحد الخطاب الآخرين، وهو يوريماخوس (Eurymachus) الأكثر حذقًا، قائلاً: "تِليماخوس، إن الأمر حقيقة في حِجْرِ الآلهة، من الذي سيكون ملكًا على الآخيين في إيثاكه المحاطة بالبحار، ولكن باستطاعتك أن تحتفظ بممتلكاتك، وأن تكون سيدًا anassein في بيتك."[١٥] اجعل بينيلوبي تختار خليفة لأودسيسوس ملكًا وزوجًا لها، وسوف يعود السلام إلى إيثاكه. عندئذٍ سيأخذ الخاطب الناجح العرش، وسيستطيع تِليماخوس "بكل سرور أن يتمتع بكل ميراثه، طاعمًا وشاربًا، بينما تقيم هي في بيت رجل آخر."[١٦] وبدون ذلك سوف تستمر الولائم اليومية بهذا القدر الغريب من الإسراف حتى يجد تِليماخوس نفسه يومًا ما بلا بيت يستحق أن يُوَرث.

إن عامل القوة السافرة لا يغطيه هنا أيّ نوع من الحجب أو الأقنعة. لقد كان ترك الجانبين تحديد الأمر للآلهة علامة على التقوى، ولكن الحكمة كانت تقتضي أن تسترشد الآلهة في قرارها بما في سواعد البشر من قوة. وفي المجلس قليل الفائدة الذي جمعه تِليماخوس في اليوم التالي حذَّر ليوكريتوس (Leocritus) بوضوح وبحدة من أن: "أوديسّيوس ذاته لو عاد إلى إيثاكه، وحدثته نفسه أن يبعد النبلاء راغبي الزواج الذين يولمون في بيته عن القصر، فإن زوجته لن تشعر

(١٥) Odyssey 1.386-402.
(١٦) Odyssey 20.336-37.

عندئذٍ بأى سرور لمجيئه، على الرغم من كونها تشتاق إليه. وعلى العكس من ذلك فإنه سيلقى نهاية مأساوية، إذا ما رغب فى قتال أعدادٍ كبيرةٍ من الناس."[١٧]

لقد كان ليوكريتوس عرّافا سيئًا، ولكن أوديسّيوس فى حقيقة الأمر لم يسترد مكانته الملكية بعد عودته بشكل تلقائىّ. لقد كان عليه أن يواجه العديد من المشكلات، وأن يحارب بكل ما لديه من قوة وحيلة لكى يسترد عرشه. لقد أغفل ليوكريتوس أمرًا واحدًا، هو اهتمام الإلهة أثينا بأوديسّيوس. "لقد كنت سألقى فى قصرى المصير المحتوم الذى لقيه أجاممنون بن أتريوس (Atreus)، بكل تأكيد، لولا أنك أيتها الإلهة أخبرتنى بدقة عن كل شىء."[١٨]

ربما يمكن القول هنا إن كل ذلك يمثل محاولة للوصول إلى دلالة تاريخية وسط ما لا يزيد عن كونه الخط العام للقصيدة. فلولا أن أوديسّيوس لم يعد، عندئذ ما كانت الأوديسية لتوجد فى المقام الأول. ولو أنه لقى المصير الذى أنقذته الآلهة منه، فإن الرواية كانت ستأخذ عندئذٍ اتجاهًا آخر مختلفًا تمامًا. هذا الرأى صحيح. ولكن ينبغى علينا أن نتذكر أن أوديسّيوس هو اسم تقليدى لملك نستطيع الإشارة إليه بأنه الملك "فلان". وإذا ما وضعنا جانبًا التفاصيل الأسطورية والحبكة الدرامية، فإن الأشكال المتنوعة لعودة الملوك هى بالتحديد ما كان سيحدث فى ذلك العالم الذى يتصف بكونه هشًا، ويسهل تغيير موازين قواه. لقد واصل نستور ومينيلاوس حكمهما كما كان الحال تمامًا قبل الحملة – على الرغم من أن كلاً منهما فعل ذلك فى ظروف شخصية مختلفة عن الآخر، بينما قُتل أجاممنون على يد أيجيسثوس الذى تزوج من امرأته، وأصبح سيدًا على بيته وملكًا. أما أوديسّيوس فقد احتال لكى يتجنب ذلك المصير على الرغم من أنه كان يواجه ثمانية ومائة خاطب يرغبون فى فعل ما قام به أيجيسثوس. ومن الناحية التاريخية والاجتماعية، فإن

---

(١٧) Odyssey 2.246-51.

(١٨) Odyssey 13.383-85.

هذه الروايات تعنى ببساطة أن بعض الملوك كانوا يتمتعون بقدر من السلطة والنفوذ الشخصيين بحيث لا يستطيع أحد معارضتهم، وأن البعض الآخر استطاعوا القضاء على معارضيهم. وكان هناك أيضًا البعض الثالث ممن أدركوا أن منصب "الأول بين أقرانه" لم يكن بالذى يتيح للمرء دائمًا أن يتطلع إلى حياة طويلة من الرغد والراحة. كذلك فإن الحروب الطروادية لم تكن بالضرورة الفتيل الذى أشعل النار، على الرغم من أن الغياب الإجبارى كان عنصرًا سَهَّلَ بوضوح تعبئة القوى المعادية للملوك.

إن سمات عدم الاستقرار فى النظام الملكىّ يمكن أن نعود بها خطوة أخرى إلى الوراء فى حياة أوديسِّيوس المبكرة. ماذا بشأن لاتيرتيس؟ لقد كان فى الحقيقة شيخًا كبيرًا، ولكنه لم يكن طاعنًا فى السن. لماذا لم يجلس على عرش إيثاكه؟ لقد كان نيستور على الأقل كبيرًا بالقدر نفسه، ويبلغ حوالىّ سبعين عامًا فى الإلياذة، ولم يحكم فقط قبل الحرب وبعدها، بل إنه أيضًا صحب الجيش إلى طروادة. فهناك، على الرغم من أن فائدته للجيش كانت فقط معنوية ونفسية، فإنه كان عضوًا أساسيًّا فى مجلس الشيوخ المحيط بأجاممنون. هناك أيضًا برياموس المُسنّ. لقد كانت القيادة الفعلية فى الأزمات الشديدة تقع على كاهل هيكتور، ولكن برياموس كان ما يزال ملكًا دون مناقشة. وبعد أن تصالح أخيلِّيوس مع أجاممنون وعاد إلى المعركة، أتى أينياس (Aenias) يطلب مبارزته منفردين. وعندما سأله أخيلِّيوس عن السبب و"عما إذا كان قلبك يريدك أن تحاربنى على أمل أن تصبح سيدًا على مملكة برياموس وعلى الطرواديين الذين يروضون الخيول؟ ولكن، كلا! فحتى لو قتلتنى فإن برياموس لن يمنحك هذا الحق للسبب التالى: لأن لديه أبناء، وهو رابط الجأش ثابت الجنان."(١٩)

(١٩) Iliad 20.179-83.

كذلك فإنه لا توجد أية إشارة إلى أن أوديسّيوس اغتصب مكانة والده، وعلى العكس من ذلك فإن جزءًا كبيرًا من الأنشودة الأخيرة فى القصيدة مخصص لمشهد حب وإخلاص بين الأب وابنه. ومع ذلك كان الملك السابق بعيدًا عن السلطة إلى حدٍّ إن الخاطبين كانوا يهددون طوال ذلك الوقت بتدمير موارد العيش لابنه ولحفيده، وإلى حدٍّ إنه لم يستطع أكثر من أن ينسحب إلى حياة العزلة فى مزرعته حيث قضى وقته فى غمّ وحزن. لقد كان النبلاء يعيشون فى المدينة وليس فى خيامهم. ومع ذلك فإن لائيرتيس: "لم يعُد يأتى إلى المدينة، ولكنه يعانى البؤس بعيدًا فى الحقول، تحت رعاية امرأة عجوز تقدم له اللحم والشراب عندما يدب التعب فى أطرافه، وهو يجر نفسه صاعدًا بستان كرمه المرتفع."[٢٠]

من العبث أن نحاول تخمين الظروف التى أحضرت أوديسّيوس إلى العرش مكان لائيرتيس. ويكفى أن نقول إن لائيرتيس، لمدة طويلة سابقة للأيام التى كان يستطيع فيها مجرد أن يجر قدميه فى بستانه، كان عاجزًا عن أن يحكم بالقوة iphi. ولهذا انتقل الحكم إلى ابنه بشكل ما. ونوعًا ما، فإن ما يسميه الملوك المحدثون "مبدأ الشرعية" تحقق فى هذه الحالة، وهو المبدأ الذى تلفظ به أخيلّيوس لأينياس، والذى دافعٍ عنه لأجل والده بيليوس (Peleus) ولنفسه بين الميرميدونيين. لقد كان اهتمام أخيلّيوس الأول فى هاديس عندما زاره أوديسّيوس بأن يسأل: "أخبرنى عن بيليوس العظيم، إذا كنت سمعت عنه شيئًا." هل ما زال يشغل مكانه الشرعىّ أم أنه قد أزيح عنه، "لأن كِبَرَ السن قد أمسك بتلابيبه قلبًا وقالبًا؟" لأننى "لم أعد عونًا له تحت أشعة الشمس" مدافعًا عن حكمنا بقوتى.[٢١]

(٢٠) Odyssey 1.189-93. يجب أن نذكر هنا أن هناك وصفًا آخرَ أقل شفقة فى مكان آخر فى الأوديسية، وبخاصة في الكتاب الأخير الذي يعتقد أنه نُظم فى مرحلة متأخرة نوعًا ما: "مزرعة لائيرتيس الجميلة والمحروثة جيدًا. هنالك يوجد منزله وحوله عدد كبير من الأكواخ فى كل جانب، يأكل فيها العبيد الأمناء ويشربون وينامون، الذين يعملون وفقًا لمشيئته." (٢٤: ٢٠٥-٢١٠). كذلك فإننا نقابل فى هذا الكتاب تحديدًا الإشارة الوحيدة الواضحة إلى أن لائيرتيس كان ملكًا فى وقت من الأوقات.

(٢١) Odyssey 11.494-503.

وفى إيثاكه لم يستطع راغبو الزواج من بينيلوبى على الإطلاق، على الرغم من كل تهديداتهم المعلنة باستعمال العنف، أن يتغاضوا عن حق الأسرة فى المطالبة بالعرش. ولا يوجد هناك سبب جيد على السطح يفسر السبب الذى جعلهم يستمرون فى هذه اللعبة لعدة سنوات. لو كانت القوة هى العامل الوحيد، فإن لائيرتيس كان على حق عندما قال إنهم يفوقون عددًا أية معارضة ممكنة، وفى الحقيقة لم تكن هناك أية معارضة مرئية. ومع ذلك فإنهم لم يحجموا فقط عن اغتيال لائيرتيس وتليماخوس والوصول إلى السلطة (على الرغم من أنهم دبروا مؤامرة فى اللحظة الأخيرة لاغتيال الأخير)، بل إنهم أيضًا أقروا علانيه وفى مناسبات عديدة بمطالبة تليماخوس بأن يعود إليه بيته oikos. لقد وضعوا القرار فى أغرب مكان يمكن تخيله، فى يد امرأة. ولم يكن هناك فيما يتعلق بالمرأة بينيلوبى، سواءً من حيث الجمال أو الحكمة أو الروح، وبوصفه مجرد إنجاز شخصىّ لها، ما يجعلها تتمتع بهذا الحق غير المسبوق وغير المرغوب فيه والمتعلق بتحديد الملك التالى. لقد كان هذا المجتمع من الناحية الدستورية بالإضافة إلى ذلك مجتمعًا "أبويا" بشكل قوى، وكان باستطاعة حتى تليماخوس أن يأمر أمه أن تغادر صالة الوليمة، وأن تعود إلى مهامها النسائية اللائقة.(٢٢)

إن الشاعر لا يفسر لنا السبب فى منح بينيلوبى هذه السلطة. وفى الحقيقة فإن السبب ليس واضحًا كما أنه ليس متوافقًا إلى حدٍّ كبير فيما يتعلق بالصورة القانونية. لقد كان تليماخوس يملك بوضوح معيارًا من النفوذ بوصفه وريثًا لوالده، كما أن أثينا أشارت إلى حلٍّ من الحلول عندما قالت: "بالنسبة لوالدتك، إذا تحرك قلبها للزواج، دعها تعود إلى قصر والدها عظيم القوة، لسوف يرتبون لها حفل الزواج ويعرضون العديد من الهدايا، وكل ما يجب أن تُزود به ابنةٌ عزيزة."(٢٣)

---

(٢٢) Odyssey 1.356-59; 21.350-53.

(٢٣) Odyssey 1.275-78.

وفى المجلس الذى انعقد فى اليوم التالى، أعطاه أنتينوس ويوريماخوس النصيحة ذاتها، وكررها الأخير بنفس الكلمات التى قالتها أثينا. ولكن تِليماخوس "الحكيم" تراجع. "لسوف يسوءنى أن أعيد دفع مقدارٍ كبيرٍ من الأموال إلى إيكاريوس (Icarius) (والد بينيلوبى) إذا أعدت أنا نفسى والدتى إليه."[٢٤] وكان "المقدار الكبير من الأموال" هو المهر الذى كانت تجب إعادته فى مثل هذه الظروف.

وفى بداية الاحتفال الذى كشف فيه أوديسّيوس عن نفسه فجأة، وقتل الخاطبين، أصدر تِليماخوس إشارة إلى واحد منهم تنم أيضًا عن سلطته، ولكن فى اتجاه آخر. "إننى لا أقف عائقًا أمام زواج أمى. على العكس من ذلك إننى أطلب منها أن تتزوج ممن تشاء، كما أننى أيضًا أعرض تقديم هدايا لا حصر لها. إننى أخجل من أن أخرجها من القصر على غير رغبة منها، وبكلمة إجبار من جانبى."[٢٥] ولكن إذا كان تِليماخوس يملك الحق فى أن يأمر أمه بشأن موضوع زواجها، سواءً بإعادتها إلى والدها أو بإجبارها على (أو بمنعها من) الاختيار من بين الخاطبين، كيف يتأتى لنا أن نشرح -فى ضوء الحقيقة أو القانون- اندفاع أثينا لإسبرطه حيث كان تِليماخوس يزور مينيلاوس، وطلبها منه العودة على الفور، "لأن والدها (أى: بينيلوبى) وأخاها،" كما قالت الإلهة، "يطلبان منها أن تتزوج يوريماخوس؛ لأنه فاق بهداياه كافة الخاطبين، كما أنه زاد كثيرًا فى هدايا الخِطْبة."[٢٦]

ربما أن مسألة بينيلوبى أصبحت غير واضحة عبر الرحلة الطويلة السابقة لتاريخ الأوديسية حتى إن الموقف الفعلىّ، الاجتماعىّ والقانونىّ، أصبح لا يمكن استرجاعه. لقد رأى بعض الدارسين فى هذا الموقف رمزًا مشوشًا لنظام المجتمع

---

(٢٤) Odyssey 2.132-33.

(٢٥) Odyssey 20.341-44.

(٢٦) Odyssey 15.16-18.

"الأموىّ" الذى يعتقدون أنه كان سائدًا بين اليونانيين فى قرون سابقة. إنهم يجدون بعض الآثار المشابهة فى فاياكيا، وفى الحقيقة فإن الشاعر يستخدم بعض العبارات الغامضة فى الإشارة إلى الملكة أريتى (Arete)، ابنة أخى ألكينوس وزوجته، وصل بها إلى حد الإشادة بـــ: "رجاحة عقلها" ومهارتها فى حل النزاعات بين الرجال.[٢٧] لقد نصحت ناوسيكا (Nausicaa) أوديسّيوس ألا يتوقف، عندما يدخل القصر، عند عرش والدها وأن يذهب مباشرة إلى أمها وأن يتضرع إليها. "فإذا تعطفت عليك بقلبها، فإن الأمل معقود عندئذ فى أن ترى أصدقاءك، وأن تعود إلى بيتك سالمًا لتعيش فيه، وإلى بلادك التى خرجت منها."[٢٨] لقد اتضح بعد ذلك أن أريتى وألكينوس تعطفا عليه، وتم الترحيب بأوديسّيوس ترحيبًا جمًّا. وبعد أن حكى بعض مغامراته، نادت الملكة التى شاركت مشاركة كاملة فى الوليمة –على عكس كافة القواعد السلوكية المتبعة فى المجتمع اليونانىّ فى ذلك الوقت– على بعض النبلاء لإحضار هدايا قيمة. "إنه ضيفى، على الرغم من أن كلاً منكم يشارك فى هذا الشرف."[٢٩] إن كليتايمنيسترا ذاتها ما كانت لتتحدث بهذه الطريقة، على الرغم من أنها لم تُحجِم عن الاشتراك فى تدبير مؤامرة للتخلص من زوجها أجاممِنون.

لقد أخبر أحد النبلاء الفاياكيين كبار السن أريتى أنه –على الرغم من أن طلبها معقول– فإن: "الكينوس هو الذى يحدد بالقول والعمل ما يجب فعله هنا."[٣٠] كذلك فإن ناوسيكا أيضًا، قبل أن تشير على أوديسّيوس أن يلجأ إلى أريتى، قدمت نفسها على أنها: "بنت الرجل الشجاع ألكينوس، الذى تعتمد عليه قوة الفاياكيين وصلابتهم."[٣١] وطوال الجزء الطويل بشكل واضح، والخاص بالفاياكيين فى

(٢٧) Odyssey 7.73-74.

(٢٨) Odyssey 6.313-315. وهو ما كررته أثينا فى: Odyssey 7.75-77

(٢٩) Odyssey 11.338.

(٣٠) Odyssey 11.346.

(٣١) Odyssey 6.196-97.

القصيدة، فإن ألكينوس يمارس تكرارًا ومرارًا السلطة الملكية التي لا يخطئها المرء، ولا ينازعها أحد. إن هناك بعض الصعوبات الأخرى والمتناقضات الواضحة في هذا الجزء، وربما أن هناك قصتين متعارضتين تم دمجهما في رواية مركبة يعتورها بعض النقص. ولكن فرضية أن الذكريات القديمة عن نظام أموىّ قديم تظهر في بعض الأبيات تبدو فرضية واهنة. فلا أريتى ولا بينيلوبى تقابل أىّ منهما المتطلبات العِرقيّة المميزة لنظام أموىّ. لقد كانت أريتى بنتًا للأخ الأكبر لألكينوس، ولم تكن هناك أية رابطة قرابة على الإطلاق بين بينيلوبى أوديسّيوس.(٣٢)

أيًا كان التفسير وراء اكتساب بينيلوبى المفاجئ لهذا القدر المحيّر من سلطة اتخاذ القرار، فإن الحقيقة الأساسية تتمثل فى النهاية في وجود "عدد كبير من النبلاء الذين يتمتعون بسلطة قوية فى الجزر، فى دوليخيون (Dulichion) وسامى (Same) وزاكينثوس (Zacynthus)، وعددٍ كبيرٍ من السادة في جزيرة إيثاكه الصخرية."(٣٣) وباختصار فإن كافة الأرستقراطيين في إيثاكه، وما حولها، كانوا متفقين على ضرورة أن يتحول "المُلك" عن بيت أوديسّيوس. وبالإضافة إلى الحُكْم كان على خليفته أيضًا أن يأخذ زوجته، أىْ: أرملته -كما كانوا يعتقدون- وكانوا مصرين بقوة على هذا الأمر. وباستطاعتنا اقتراح أن قناعتهم كانت تتمثل فى أن اختيار بينيلوبى لخاطب لينام فى سرير أوديسّيوس كان أمرًا يضفى ظلاً من الشرعية على الملك الجديد، بغض النظر عن كون هذا الظل معتمًا وخياليًا. لقد قال تِليماخوس فى خطابه الأول إلى المجلس: "إن الخاطبين يُحجمون عن الذهاب إلى

---

(٣٢) لقد كان الرجل الذى يُعيَّن خليفة للحاكم المتوفَّى بين المجتمع الأموىّ للإيروكويين (Iroquois)، على سبيل المثال، يتم اختياره بواسطة أكبر سيدة فى أسرة والدته.

(٣٣) Odyssey 1.245-47. وهو ما تكرر بعد ذلك (١٦: ١٢٢-١٢٤)، وببعض الاختلافات فى موضع ثالث (١٩: ١٣٠-١٣٢).

بيت والدها إيكاريوس؛ لكى يزوج ابنته ويعطيها إلى من يختاره هو لها."[٣٤] لقد كان إيكاريوس بطبيعة الحال سيختار أعلى مزايد، الرجل الذى يعطى أكثر هدايا العرس قيمة، ومع ذلك فإن تقاعس الخاطبين عن اتباع هذا الإجراء المقبول كان يرجع بالتأكيد إلى ما هو أكثر من صفة البخل. فلو اختار إيكاريوس الزوج التالى لبينيلوبى فإن أعلى مزايد سيحصل على زوجة وليس على المملكة. ولم يكن الحكم فى إيثاكه شأنًا من شئون إيكاريوس، الذى كان غريبًا عنها. لقد كان هذا الحق يرجع بشكل غامض نوعًا إلى بينيلوبى.

وكانت بينيلوبى هى الحل الوحيد أمام النبلاء. وبناء على توجيهات أثينا فإنها احتالت على راغبى الزواج منها، وجعلتهم يسمحون للبطل العائد، المتنكر فى ثياب شحاذ، أن يأخذ القوس الكبير فى يديه، الذى لم يستطع أحد غيره أن يثنيه، وبواسطته، وبمعاونة تِليماخوس وعَبْدَيه المخلصين فيلويتوس (Philoetus) ويومايوس (Eumaeus) قتل أوديسيّوس المتطفلين. ومرة أخرى فإن تفاصيل الرواية تشير إلى عنصر أساسىّ فى حياة أوديسيّوس: فلكى يستعيد عرشه لم يكن الملك يستطيع الاعتماد على أحد سوى زوجته وابنه وعبديه المخلصين. وبمعنى آخر فإن سلطة الملك كانت سلطة شخصية. ولا شيء يمكن أن يجعلنا نسيء الفهم أكثر من المقارنة بين وضع الملوك فى مواجهة البارونات قرب نهاية العصور الوسطى، التى كان النصر النهائىّ فيها لمبدأ المَلَكيَة يعتمد على تأييد عامة الناس. ففى الحرب كان عامة الناس فى إيثاكه أو إسبرطه أو أرجوس يحملون السلاح. وعندئذ كان المجتمع حقيقيًا وذا معنى، وكان الملك بوصفه رئيسه وممثله يحصل على التأييد والخضوع. وفى أوقات السلم كان يحق للملك المطالبة ببعض الأمور، وفى الظروف العادية فإنها كانت تقدم بحرية. ولكن عندما كان النبلاء يصطرعون مع بعضهم فإن القرار كان عادة قرارًا يخصهم وحدهم.

---

(٣٤) Odyssey 2.52-54.

وعلى الرغم من الصمت التام فى القصيدة حول أعمال عامة الناس فى بلاد اليونان، يوجد دليل مباشر على هذا الأمر. فقرب نهاية الاجتماع الذى دعا إليه تليماخوس اشتكى مينتور (Mentor): "فى الحقيقة إننى الآن غاضب من عامة الناس (demos) لأنكم جميعًا تجلسون فى صمت، ولا توبخون الخاطبين، ولا تجعلونهم يتوقفون، على الرغم من كونهم قلة ومن كونكم كثرة."(٣٥) وفى نهاية الحديث وبعد مقتل الخاطبين، وبعد أن احتفل أوديسِّيوس ووالده احتفالاً صغيرًا بعودته فى مزرعة والده الشيخ، كان هناك أيضًا اجتماع آخر فى الأجورا (agora). وكان هذا الاجتماع للأقارب الغاضبين للضحايا، يطلبون الأخذ بالثأر، ولكنه لم يكن اجتماعًا رسميًا. لقد اجتمع الرجال لأن: "إشاعة الرسول انتشرت فى المدينة" بأخبار القتل.(٣٦) الإشاعة التى هى رسول الإله زيوس، وإن كانت لم توصف أبدًا بأنها رسول فى إيثاكه. لقد أوضح الشاعر أن هذا الاجتماع للأرستقراطيين (وإذا كان بعض العامة قد حضروا الاجتماع فإنهم حضروه بوصفهم أتباعًا للبيوت الأرستقراطية، وليس بوصفهم أعضاءً فى مجتمع إيثاكه). ولهذا فإن الشاعر لا يستخدم هنا أبدًا كلمات من قبيل "عامة الناس" (demos) أو "العامة"، على الرغم من أن بعض المترجمين قد استخدموا خطأً كلمة "الناس" فى ترجمتهم لهذه السطور.

لقد كانت المطالبة بالدم أمرًا طبيعيًا. وقد توقع أوديسِّيوس ذاته مثل تلك الخطوة عندما قال لتليماخوس بعد قتل الخاطبين: "دعنا نفكر فى أن الأمور ستسير على ما يرام. لأن الرجل الذى يقتل رجلاً فى بلد –ولو كان رجلاً ليس لديه الكثيرون ممن يساعدونه– فإنه يهرب ويهجر أهله وبلاده. أما نحن فقد قتلنا أعمدة المدينة وأكثر الشباب أرستقراطية فى إيثاكه."(٣٧) وكان هذا الثأر شخصيًا. ولكن ما

(٣٥) Odyssey 2.239-41.
(٣٦) Odyssey 24.413.
(٣٧) Odyssey 23.117-22.

هو الهدف فى بداية القصيدة من وراء عقد المجلس لمناقشة الأمر الذى وصفه تليماخوس بوضوح بأنه موضوع خاص؟ إن تليماخوس لم يتحدث فى هذا المجلس مباشرة إلى عامة الناس. لقد تحدث إلى الخاطبين، وكرر أمام الناس ما سبق أن طلبه منهم فى سياق خاص، أن يتخلوا عن أسلوبهم غير اللائق فى طلب الزواج. وفى النهاية فقط التفت مينتور إلى عامة الناس (demos)، وقال إنه غير راضٍ عن موقفهم لأنهم لا يتدخلون. لقد فشل تليماخوس بوضوح فى تحقيق هدفه، الذى يتمثل فى حشد الرأى العام ضد الخاطبين، وفى أن يحول بالتالى موضوعه الخاص إلى مسألة عامة فى الواقع. ولأن مينتور أدرك ذلك فإنه عرض الأمر علانية، ولم يحالفه الحظ أيضًا. ولهذا السبب كان باستطاعة ليوكريتوس أن يرد عليه بسخرية، قائلاً: "من الصعب أن تقاتل ضد أعداد أكبر بشأن وليمة."[٣٨] لقد ركز مينتور على القوة المحتملة لعامة الناس، عندما قال: "إنهم (أىْ: الخاطبين) قليلو العدد، وأنتم تفوقونهم." ولكن ليوكريتوس ردّ موضحًا أن الكثرة غير مهتمة بالأمر ومحايدة، ولهذا "فإننا وأقاربنا وأتباعنا نفوقك، ونفوق القوة التى تستطيع حشدها. إن أوديسّيوس ذاته سوف "يلقى مصيرًا مشئومًا، إذا حارب ضد أعدادٍ أكبر."[٣٩]

إن الحياد حالة عقلية، مثلما أن أىّ شخص يدخل الساحة لكى يحارب من أجل السلطة يجب أن يضع الجمهور نصب عينيه وأذنيه. إن ميول عامة الناس يمكن أن تتغير فجأة، ويمكن أن يدلوا بدلائهم وأن يأخذوا هذا الجانب أو ذاك. وبعد فشل محاولة تليماخوس فى حصار الخاطبين، تشاور أنتينوس مع الآخرين، وأخبرهم أن أىّ تأخير يمثل خطورة. واقترح عليهم أن يأخذوه إلى الأدغال وأن يتخلصوا منه لأن "نظرة عامة الناس لم تعد حسنة من جميع الجوانب. هيا بنا، قبل أن يدعو الآخيين إلى اجتماع،" وقبل أن يخبرهم عن مؤامراتنا ضده. "إنهم لن

(٣٨) Odyssey 2.244-45.
(٣٩) Odyssey 2.250-51.

يوافقوا إذا علموا بهذه الأعمال السيئة. ولهذا عليكم بالحذر من أن يُلحِقُوا بنا الأذى، ويطردونا من أرضنا، ويلجئونا إلى أرض غريبة."[٤٠]

لقد كان أنتينوس يخشى أن عامة الناس، الذين لم يتحركوا لنصرة تليماخوس، يمكن أن يغيروا مواقفهم. ومن الملاحظ أنه لا توجد أية إشارة إلى الحقوق فى هذا الخطاب. إنه لم يكن يتوقع إثبات بعض الحقوق العامة، ولكنه فكَّر فى إمكانية وصول تليماخوس إلى سن البلوغ بسرعة، وفى أن يبدأ فى الحكم بالقوة، وفكر كذلك فى خطورة أن يستطيع إقناع عامة الناس أن يتخلوا عن حيادهم وأن يلعبوا دورًا مباشرًا. وربما أن أنتينوس كان ما يزال يذكر اليوم الذى فرَّ فيه والده إلى أوديسيُّوس لاجئًا إليه وفارًّا من عامة الناس "لأنهم كانوا غاضبين بشدة؛ لأنه ذهب مع القراصنة التافيين (Taphioi) للإغارة على الثيسبروتيين (Thesprotioi) الذين كانوا على علاقة صداقة معنا."[٤١]

من المفترض -على الأقل- أن الاحتمال المقابل كان أيضًا ممكنًا، بمعنى أن عامة الناس يمكن أن يميلوا إلى جانب الخاطبين. فعندما كان تليماخوس فى ضيافة نستور، سأله الأخير سؤالاً مباشرًا عن السبب الذى يجعله يعانى من الخاطبين: "أخبرنى، هل أنت راضٍ عن الأمر؟ أم أن الناس يكرهونك فى أرجاء البلاد وهم يطيعون صوت إله ما؟"[٤٢] عندئذٍ لم يجبه تليماخوس إجابة مباشرة، ولكنه سُئِل السؤال ذاته فى مناسبة أخرى، وكان موجهًا إليه هذه المرة من أوديسيُّوس وهو متنكر فى زى شحاذ.[٤٣] وفى هذه المرة الأخيرة أجاب تليماخوس بالنفى عن كل من الاحتمالين. لقد كان السبب الوحيد فى سلبيته هو افتقاره إلى القوة.

---

(٤٠) Odyssey 16.375-82.
(٤١) Odyssey 16.425-27.
(٤٢) Odyssey 3.214-15.
(٤٣) Odyssey 16.95-96.

وفي الحقيقة فإننا لا نعرف شيئًا أبدًا عن أفكار عامة الناس فى إيثاكه عن الموضوع برمته. لقد وصل الخط الدراميّ للقصيدة إلى نهايته دون أى تدخل من جانبهم لنصرة أيّ من الطرفين، على الرغم من كافة الطلباتَ والشكوك والمخاوف والمحاولات للتأثير على الرأى العام. ومثل النساء اللاتى يشير إليهنّ إليوت (Eliot) فى مسرحية كانتربرى (Canterbury) فإن لسان حال عامة الناس (demos) فى إيثاكه يعبر عن موقفهم الحيادىّ:

حُكْمُ الملوك أو حُكْمُ البارونات

....

إننا نعيش حياتنا في غالبية الأحوال بأسلوبنا

ونحن راضون إذا ما أغفلونا وتركونا لشأننا.

لقد فشل الخاطبون فى قبول اقتراح أنتينوس بأن يحلُّوا الأمر باغتيال تليماخوس. وسواءٌ أكان لمخاوفه ما يبررها أم لا، فإننا لا نستطيع توضيح الأمر. لقد كانت تُنْسَج عندئذٍ خيوط نهاية أخرى. فبينما كان المؤتمر منعقدًا، كان أوديسّيوس مختبئًا فى إيثاكه، وكان مقدرًا للخاطبين أن يلاقوا حتفهم على يديه. ربما كان باستطاعتنا أن نخمن ما كان سيحدث لو أصاب سهم طائش أوديسّيوس فى هذه اللحظة. ما كان لينجم عن ذلك بالضرورة أن يهب عامة الناس (demos) مطالبين بالثأر. فلم يكن هناك فى قواعد السلوك المتعارف عليها -سواءٌ أكانت توجيهات أو عقائد إلهية- أم تقاليد بشرية، ما يفرض عليهم القيام بعمل ما. ولم يكن القتل جريمة ذات مفهوم أو طابع عام، وكان قتل الملك مجرد نوع من أنواع القتل. ولو فرض وقُتِلَ أوديسّيوس فإن تليماخوس كان سيواجه حتمية الاختيار بين أمرين: إما أن يلعب دور هاملت (Hamlet) وإما دور أوريستيس. لقد كان هذا الدور واجبه الأسرىّ، ولم يكن هناك واجب على المجتمع. لقد قال نستور لتليماخوس:

"حتى أنت سمعت عن ابن أتريوس، على الرغم من بعد المسافة، كيف أنه عاد وكيف دبر أيجيستوس له نهاية شريرة. ولكنه فى الحقيقة جنى ثمار ما قدمت يداه. جميل حقًا أن يخلف الرجلَ الميتَ ولدٌ [يثأر له]، مثلما أخذ هذا الابن الثأر من أيْجيستوس الشرير الذى قتل والده."(٤٤) لقد كان من سوء حظ تِليماخوس، الذى كان لا يواجه عدوًّا واحدًا بل ثمانية ومائة رجلٍ، أنه ينحدر من صلب أسرة أنجبت ابنًا واحدًا، وليس له أية أخوة يطلب منهم المساعدة.

إن الثأر هو المؤشر الأكثر حيوية الذى يدل على أن القوة الشخصية كانت تعنى فى عالم أوديسيّوس قوة الأسرة والعشيرة. وطبقًا لهذا المفهوم فإن مسألة جعل قوة الملك قوة شخصية كانت تصل إلى مستوى عميق. ربما أن الخاطبين أنكروا أية نوايا سيئة ضد بيت oikos أوديسيّوس، ولكن هذا الموقف كان غير تقليدىٍّ من كافة جوانبه. وفى النهاية اقترح أنتينوس أن يقتلوا تِليماخوس وأن يُقسّموا ضيعته فيما بينهم. لقد كانت القاعدة هى وجود هوية متكاملة تجمع بين ثروة الملك وبيت oikos الملك، تمامًا مثلما أن أتباعه الشخصيين كانوا موظفيه العموميين. لقد كان الذهب والبرونز والغلال والخمر والملابس الفخمة التى شاهدها تِليماخوس موجودة فى المخازن المغلقة تخص والده وكان سيرثها هو ذاته، سواءً أكان أوديسيّوس جمعها بوصفه ملكًا أم بوصفه مجرد رجل أرستقراطىّ. ولهذا فلا عجب أن تِليماخوس قال بتأثر ساحر برىء، عندما تراءى له أن الخاطبين لا بد سينتصرون: "لأنه فى الحقيقة ليس أمرًا سيئًا أن يكون المرء ملكًا. إن بيته يصبح ثريًّا ويصبح هو ذاته ذا مكانة مهيبة"(٤٥).

لقد كانت قاعدة الثروة الملكية ترتكز على ممتلكات الأراضى والمواشى التى بدونها لا يستطيع أى إنسان أن يصبح ملكًا فى المقام الأول. وعندما يحكم الملك

---

(٤٤) Odyssey 3.193-98.

(٤٥) Odyssey 1.392-93.

فإنه كان يستغل أيضًا إقطاعية أخرى منفصلة تسمى "تيمينوس" (temenos)، يضعها المجتمع تحت تصرفه.[٤٦] وكانت هذه الإقطاعية هي الاستثناء الوحيد للقاعدة المتمثلة في أن كافة الممتلكات والمتحصلات الملكية كانت تذوب في بيته الخاص oikos. وتلي ذلك في قائمة العوائد الملكية الغنائم، وهي كلمة شاملة تضم الماشية والمعادن والجواري والأسرى وكافة ما يمكن الحصول عليه باستثناء الأراضي، للسبب البسيط المتمثل في أن الحروب لم تكن تتم لأجل الحصول عليها أو ضمها. لقد افتخر أوديسِّيوس وهو متنكر في زي شحاذ من كريت أمام يومايوس بأمجاده السابقة، قائلاً: "لقد قدتُ الرجال والسفن تسع مرات ضد رجل في أراضٍ أخرى، وحصلت على نصيب وافر من الغنائم التي كنت أختار منها ما يروق لي، وحصلت عندئذٍ على الكثير بالقرعة."[٤٧] وهكذا فإن الحاكم لم يكن فقط يشترك مع رجاله في التوزيع العام للغنائم، الذي تتحقق المساواة فيه بالاقتراع، بل كان أيضًا يحصل على نصيب إضافيّ، بأن يختار أولاً ما يرغب في الحصول عليه. وفي أية حملة كبرى كان القائد يحصل على نصيب الملك، على الرغم من أنه كان يصحبه ملوك آخرون. لقد قال أخيلّيوس لأجاممنون: "إن يديَّ تحملان آثار القتال العنيف، ولكن عندما يحلُّ وقت التوزيع [للغنائم] فإن حقوقك أكبر، وأذهب أنا إلى سفني حاملاً شيئًا بسيطًا، ولكنه ثمين بالنسبة لي، عندما يَحُلُّ بي التعب بعد القتال."[٤٨] وعلى الرغم من أن تعبير "شيئًا بسيطًا" يقلل نوعًا ما من متحصلات "فاتح المدن"، فإننا لا يمكننا أن نخطئ مدى امتعاضه من أجاممنون الذي كان أقلَّ منه في الجسارة، ولكنه كان يفوقه منزلة، بحق المكانة، في عملية اقتسام الغنائم.

---

(٤٦) كانت هذه الكلمة ذاتها تستخدم في الإشارة إلى الأراضي الخاصة بالمعبد التي كانت تخصص للإله. ومع اختفاء النظام الملكي في بلاد اليونان -بعد العصر الهوميريّ- فإن هذا المعنى الأخير للكلمة أصبح هو معناها السائد.

(٤٧) Odyssey 14.230-33.

(٤٨) Iliad 1.165-68.

وبالإضافة إلى ما سبق هناك الهدايا التى كانت تعطى بلا حساب ويتحدثون عنها بلا حدود. إننا لا نجد أية كلمة في القصائد تفيد الإجبار بشكل مباشر، مثل كلمة "الضرائب،" أو حتى "المدفوعات" الإقطاعية، للإشارة إلى ما يدفعه الناس للحاكم، باستثناء سياق الحق الخاص فى أثناء توزيع الغنائم، وفى أثناء توزيع لحوم الأضحيات. لقد قال أجاممنون: "وسوف أعطيه سبع مدن ذات مواقع جيدة... وهنالك يقطن أناس يملكون قطعانًا كثيرة من الماشية، وسوف يكرمونه مثل إله بالهدايا."(٤٩) إن تفاصيل عملية إعطاء الهدايا هذه بواسطة الناس غير محددة، كما أنها لا تَرِدُ على الإطلاق فى حالة إيثاكه. ومع ذلك لا يمكننا سوى أن نؤكد أنها كانت تحدث، مع ذلك، إلى جوار ظاهرة الغنائم، بوصفها عاملاً مهمًا ومستمرًا يفسر "أن كون المرء ملكًا ليس بالأمر السيئ."

وفى بعض الأحيان كانت الهدايا، مثل الأعمال الكريمة للملك تشارلس الأول (Charles I) -تبدو شيئًا أقل طواعيةً. لقد قال الملك ألكينوس- ملك الفاياكيين، للنبلاء فى حفلة وداع أوديسيوس: "هلم بنا، وليعطه كل واحدٍ منا شمعدانًا كبيرًا ودورقًا، وفي المقابل سوف نجمع نحن من الناس، وسوف نُعوض أنفسنا، لأنه عبء على المرء أن يعطى بمفرده دون تعويض."(٥٠) وعلى الرغم من ذلك فإننا نسيء الفهم عندما لا نرى شيئًا أكثر من محاولة التلطُّف فى القول من جانب الشاعر في إصراره على تسمية هذه المدفوعات "هدايا". وهناك سبب واحدٌ لذلك هو أنها كانت تفتقر إلى انتظام "الضرائب" أو "المستحقات"، مثلما أنها لم تكن محددة القيمة. فحتى هذا العامل المحدود المتمثل فى حرية الاختيار وفى الوقت

---

(٤٩) Iliad 9.149-55. إن وصف أجاممنون الطويل للهدية التى يقترحها لاسترضاء أخيليوس يتكرر على لسان أوديسيوس موجهًا الحديث لأخيليوس كلمةً كلمة (٩: ٢٦٤-٢٩٨). والفقرة المقتبسة هنا من السطور (٢٩١-٢٩٧). إن حق أجاممنون فى التصرف فى سبع مدن حق فريد، ولا يوجد ما يفسره في القصائد.

(٥٠) Odyssey 13.13-15.

وفى قيمة المدفوعات، كان يضفى عليها ظلالاً من المشاعر ومن القيمة، وهى أمور تفتقر إليها مسألة جمع الضرائب. إن من الصعب علينا قياس هذا البعد النفسىّ، ولكنه لا يمكن تجاهله لهذا السبب. "عظِّموه كإله بالهدايا". ليخش كلٌ منّا الآلهة كما يشاء، ولكنهم ليسوا فى نهاية الأمر محصلين للضرائب، كما أن علاقة الإنسان بهم ذات نمط مختلف. وبالكيفية ذاتها، فإن الهدية المقدمة للحاكم -حتى عندما تكون مفروضة من كافة جوانبها العملية- تتصف بأنها ذات نمط آخر مختلف عن الضريبة المحددة ذات السمة الإجبارية الواضحة، بسبب كونها من الناحية الرسمية ذات صفة تطوعية.

ما هى الهدية المقابلة المقدَّمة للناس؟ إن الإجابة توجد بشكل أساسىّ فى المنطقة التى نسميها الشئون الخارجية. لقد كان الملك القوى والمؤثر يزودهم بالحماية وبسبل الدفاع، عن طريق تعاملاته مع الملوك فى الخارج، وبتنظيمه لمثل هذه الأنشطة من قبيل بناء الأسوار وقيادته الشخصية للجيش فى القتال. لقد كان "راعى الناس"، وهو وصف يتكرر فى أعمال هوميروس ويخلو من أية ملامح لصورة الراعى الأركادية، وإن كان يتطابق مع مفهوم جوته (Goethe) الذى يقول فيه: "من لا يستطيع أن يكون محاربًا لا يمكن أن يكون راعيًا."[٥١] لقد ذكر ساربيدون (Sarpedon)، قائد الحملة الليكية المؤيدة للطرواديين، هذا الدور بوضوح عندما قال محدثًا صديقه: "جلاوكوس (Glaucus)، لماذا نحن الاثنين أرفع الناس مكانةً فى ليكيا (Lycia) فى مقاعد الشرف، وفى مجالس الطعام والشراب، وينظر الجميع إلينا كما لو كنا آلهة؟ ولماذا نتحكم فى مساحة كبيرة على ضفاف نهر كسانثوس (Xanthus) ذات بساتين وأراضٍ منتجة للغلال؟ لهذا كله يجب أن نقف فى الصفوف الأولى أمام الليكيين، وأن نشترك فى القتال الضروس حتى يقول

---

(٥١) الاقتباس مأخوذ من: Fränkel, Die Homerischen Gleichnisse (Göttingen: Vandenhoeck, 1921), p. 60.

عنا بعض الليكيين المسلحين بخوذاتهم القوية "إن ملوكنا الذين هم سادة فى ليكيا لا يفتقرون إلى المجد. إنهم يأكلون الخراف السمينة ويشربون أفضل الخمور لذيذة الطعم؛ بلى! إنهم أيضًا أولى بأس شديد لأنهم يحاربون فى الصفوف الأولى لليكيين."[٥٢]

لقد كان الملك يشغل منصب القائد العسكريّ، ويزود شعبه بالحماية، وكان دوره فيما عدا ذلك محدودًا، على الرغم من بعض الإشارات إلى العدالة الملكية (والظلم الملكىّ)، المتناثرة فى الأوديسية، والتى تَرِدُ إحداها فى لوحة خضراء وطويلة نوعًا ما: "يا سيدتى [بينيلوبى] لا أحد بين البشر الفانين على الأرض الواسعة بكاملها سوف يلومك، لأن شهرتك تصل إلى عنان السماء، مثلما تصل (شهرة) ملكٍ فاضلٍ، يخشى الآلهة ويحكم بين بشر كثيرين أقوياء، يراعى قواعد التقوى، بينما تغلّ الأرض السوداء القمح والشعير، والأشجار محملة بالثمار، وتحمل الماشية دون إجهاضٍ، فى عهده."[٥٣] هذه الرابطة المباشرة بين الحُكم العادل وبين ثمار الطبيعة تمثل مفارقة زمنية، تمامًا كما هو الحال مع فكرة الخوف من الآلهة. إنها أفكار لا ترجع إلى عالم أوديسيوس، بل إلى القرن السابع قبل الميلاد عندما بدأت تدخل عقولَ الناس فكرةُ أن العالم تُنَظّمه عدالة إلهية. إنها تنتمى إلى عالم قصائد هيسيودوس (Hesiod) وليس إلى عالم الأوديسية. إن كل شىء يخبرنا عنه هوميروس يدل على أنه سمح هنا بدخول فكرة معاصرة له، وأنه جعلها مع ذلك محدودة بتشبيه غير مخل، وهكذا فإنه تفادى أية تناقضات محتملة مع الحبكة الدرامية ذاتها. إن عودة أوديسيوس إلى عرش إيثاكه كانت أمرًا عادلاً وصحيحًا، ولكنها كانت مسألة شخصية ولأسباب شخصية، ولم تكن انتصارًا للعدالة فيما يتعلق بالصالح العام.

---

(٥٢) Iliad 12.310-21.
(٥٣) Odyssey 19.107-14.

ولا حاجة بنا إلى التساؤل عن السبب الذى جعل ألكينوس لا يطلب من العامة أن يقدموا هداياهم مباشرة إلى أوديسيوس. لقد كانت الشمعدانات والأباريق تمثل ثروة وأشياء لا يستطيع سوى الأرستقراطيين امتلاكها بأعداد كبيرة. كذلك فإنه ما كان من الملائم أن يقدم عامة الناس الهدايا لكى يبدأ البطل رحلته بسرعة. ففى مجتمع يتصف بالقيود الطبقية، وتكتسب فيه عملية تقديم الهدايا صفة الأعمال المرتبطة بالطقوس، لا يستطيع أى إنسان أن يقدم هدية لأى إنسان آخر. لقد كانت هناك خطوط محددة للتقديم ومستويات ودرجات مختلفة للأشياء، وبمعنى آخر فإن الهدية والعلاقة بين مقدم الهدية وبين مَنْ تُقَدَّم له لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض. إن ما يصعد السلم الطبقىّ من عامة الناس إلى ملكهم كان أمرًا مختلفًا عما يذهب إلى شخص أجنبىّ، ولم يكن مسموحًا أبدًا الخلط بين هذين الأمرين.

وعلى الرغم من ذلك فإن علماء النفس يدركون الجانب العاطفىّ فى عملية إعطاء الهدايا هذه، فمن الناحية الوظيفية تُقَدَّم الهدايا فى أثناء الزواج وفى حالات القوة العسكرية، بوصفها عملاً تتحدد من خلاله علاقات اجتماعية ذات صفة ومكانة محددة، وما يمكن لنا أن نسميه التزامات سياسية. لقد كان عالم أوديسيوس ينقسم إلى مجتمعات عديدة تشبه بشكل أو بآخر منطقة إيثاكه. وبين هذه المجتمعات، وبين كل مجتمع على حدة، وبين كل مجتمع وآخر، كانت العلاقة المعتادة هى علاقة كراهية وفى بعض الأحيان كانت عدائية سلبية، من نوع الهدنة المسلحة، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت علاقة عدائية حربية نشطة. فعندما دخل الخاطبون المقتولون هاديس (Hades)، كان الوصول الجماعىُّ لخيرة رجال إيثاكه أمرًا ملفتًا للنظر، وبشكل تلقائىّ تم تفسيره بأحد سببين. لقد سألهم شبح أجاممنون: "هل حرك بوسيدون (Poseidon) رياحًا ثقيلة وأمواجًا عاتية قلبت سفينتكم؟ أم أن رجالاً معادين لكم قتلوكم على أرض صلبة بينما كنتم تستولون على قطعان ماشيتهم أو بينما أنتم تدافعون عن مدينتكم ونسائكم؟"(٥٤)

---

(٥٤) Odyssey 24.109-23. وفى المشهد السابق من هاديس حيًا أوديسيوس شبح أجاممنون بكلمات مماثلة (١١: ٣٩٩-٣٠٤).

في مثل هذه البيئة التي يسودها عداء دائم كان مسموحًا للأبطال أن يبحثوا عن حلفاء، ولم يتطلب منهم ميثاق الشرف أن يقفوا وحدهم في مواجهة العالم. ولم يكن هناك شيء في نظامهم الاجتماعيّ يتيح الفرصة لوجود مجتمعين يستطيعان، والحال هكذا، أن يدخلا في تحالف. لقد كانت هناك فقط سبل شخصية من خلال قنوات الأسرة والعشيرة. وكانت أولى هذه القنوات هي الزواج الذي كان وسيلة من بين وسائل عديدة أخرى لتأسيس خطوط جديدة من القرابة، وبالتالي الالتزام المتبادل، التي تتخطى أجزاء العالم الهلّينيّ وتتعدى حدوده. وكان الرجال وحدهم هم الذين يرتّبون الزيجات، وكان المعتوه -الذي سلبه زيوس عقله وحده- هو الذي يستطيع أن يتجاهل اعتبارات الثروة والقوة والتأييد، عند اختياره زوجة له.

وبعد عدة أجيال من مثل هذا التعامل المحسوب في تزويج البنات والأقرباء من النساء وجدت شبكة من الالتزامات الدقيقة والمحيرة أحيانًا. وكان هذا سببًا وحيدًا وراء تخليد الأبطال لأنسابهم بعناية، ولكونهم يتغنون بها في أحيان كثيرة. فعندما التقى ديوديموس (Diodemus) وجلاوكوس وسط الجيشين، متشوقين إلى القتال، وقف الأول وسأل سؤالاً: "من أنت أيها البطل الشجاع، بين البشر؟ إنني لم أرك من قبل في ساحة القتال الرهيب." وكان ردّ جلاوكوس قصيدة طويلة، تشتمل على خمسة وستين بيتًا كاملاً، وتدور غالبيتها حول أعماله البطولية ومولد جدّه بلليروفون (Bellerophon). وكانت كلماته الأخيرة فيها: "إلى هذا الأصل والدم، أفخر أنا بالانتساب."

ويُعقِّب الشاعر: "هكذا تحدث هو، وسَعِد ديوديموس صاحب صيحة الحرب الشجاعة، [وقال] في الحقيقة، إنك صديق لي من جهة الأب لأن أوينيوس (Oineus) المجيد استقبل في وقت من الأوقات بلليروفون المعظم في قصره واستضافه لمدة عشرين يومًا، وأعطى كل منهم للآخر هدايا قيمة عربونًا للصداقة... ولذلك فإنني صديق عزيز لك في قلب أرجوس، وأنت [لي] في ليكيا

عندما آتى إلى بلادك. ولهذا فليتجنب كل منا رماح الآخر. إن هناك طرواديين بما يكفى لى لمحاربتهم، ويونانيين لك. دعنا نتبادل سلاحنا حتى يعرف الجميع أيضًا أننا نلتزم بعلاقات الصداقة التى ربطت بين آبائنا."[٥٥] (وقد حدث عندئذٍ أن فقد جلاوكوس قدرته على التمييز، وأعطى سلاحه الذهبىَّ مقابل آخر من البرونز).

هذه المشاهد ليست أعمالاً كوميدية، إذ إن هوميروس لم يكن مثل برنارد شو (Bernard Shaw)، ولم يكن ديوديموس جنديًا من الورق أو الحلوى. لقد كانت علاقة الصداقة والضيافة نظامًا جادًّا للغاية، وكانت البديل للزواج فى الروابط الخارجية بين الحكام. وليس هناك اختبار أكثر فاعلية لتقييمها كوسيلة للحفاظ على شبكة من العلاقات من مثل تلك اللحظة الحرجة. لقد كان الصديق المضياف وعلاقة الصداقة والضيافة تفوق مجرد مظاهر الشاعرية التى تُمَيِّز العواطف البشرية، وتدل عليها. ففى عالم أوديسيوس كانت هذه أسماءً اصطلاحية لعلاقات صلبة لا تقل عن الزواج فيما تشير إليه من حقوق رسمية وفيما تتطلبه من التزامات. وظلت كذلك لمدة طويلة. إن هيرودوتوس (Herodotus) يخبرنا أن كرويسوس (Croesus) ملك ليديا (Lydia) أرسل فى القرن السادس قبل الميلاد "سفراءً إلى إسبرطه "يحملون العديد من الهدايا ويطلبون عقد تحالف" وقد "سُرَّ الإسبرطيون لمجىء الليديين، وأقسموا عهد الصداقة والضيافة والتحالف."[٥٦]

إن قصة هيرودوتوس توثق استمرار علاقة الصداقة والضيافة، مثلما تُظْهِر أيضًا المسافة التى قطعها العالم اليونانىّ مبتعدًا عن أيام أوديسيوس. لقد تبادل كرويسوس عهود الصداقة والضيافة مع الإسبرطيين، ولكن هوميروس لم يعرف مثل تلك الرابطة بين أهالى أرجوس وأهالى ليكيا (Licia)، وبين سكان جزيرة تافوس وأهالى إيثاكه، لقد وجدت الرابطة عنده فقط بين أفراد – ديوديموس

---

(٥٥) Iliad 6.119-231.

(٥٦) Herodotus 1.69.

وجلاوكوس، ومينتيس (Mentes) وتليماخوس. إن الكلمة اليونانية التى تعنى "غريب" و "أجنبى" هي ذاتها التى تعنى فى بعض الأحيان "ضيف". ويرمز هذا الخلط إلى الغموض الذى يميز كافة التعاملات مع الغرباء فى هذا العالم القديم.

إن أول ما نعرفه عن الفاياكيين – الذين يُذَكِّرُوننا على الفور بالعالم الفاضل فى القصيدة – هو أنهم يعيشون فى عزلة كاملة تقريبًا. وفى الحقيقة فإن والد ألكينوس الذى يدعى ناوسيثوس (Nausithous) نقل أتباعه من هيبيريا (Hypereia) إلى اسخيريا (Scheria)، وهما أماكن أسطورية، لهذا الغرض تحديدًا. فلا داعى هنالك للخوف، كما طمأنت ناوسيكا (Nausicaa) خادماتها عندما هربن من أوديسيُوس على الشاطئ، قائلة لهن: "إن هذا الإنسان لا يوجد، مثلما أنه لم يوجد بعد ذلك الذى يأتى إلى أرض الفاياكيين معلنًا الحرب، لأننا وثيقو الصلة بالآلهة. إننا نعيش بعيدًا، يحيط بنا البحر برياحه وعواصفه، فى أقصى المعمورة ولا يتعامل معنا أحدٌ من البشر."(٥٧) لقد بالغت ناوسيكا فى وصفها للموقف قليلاً. فبعد أن اصطحبت ناوسيكا أوديسيُوس إلى البلدة، وغطته أثينا بغمامة حتى تطمئن إلى وصوله سالمًا إلى القصر، قالت له الإلهة محذرة: "لا تنظر إلى أى رجل ولا تسأل أحدًا عن شيء؛ لأنهم فى الحقيقة لا يميلون إلى التعامل مع الغرباء."(٥٨)

لقد كان الخوف يمثل أحد الأقطاب، بما يعنيه من شك ومن عدم ثقة فى الغرباء. ومع ذلك كان الغريب يفتقر أيضًا إلى أية حقوق وإلى أية أقارب لكى يحبوه ويثأروا له، كما كان الحال، إذا ما أسيئت معاملته. وفى الجانب المقابل كانت هناك الالتزامات الإنسانية العامة المتعلقة بالضيافة: لقد كانت إحدى صفات زيوس أبى البشر أنه "كيسنيوس" (Xenios)، أىْ "إله الضيافة". وقد حدث فى فاياكيا على وجه التحديد أنه تم الترحيب بكرم بأوديسيُوس بعد معاناته السابقة،

---

(٥٧) Odyssey 6.201-205.

(٥٨) Odyssey 7.31-32.

حتى إن الملك ألكينوس وبلاطه أصبحا مضرب الأمثال بين اليونانيين في العصور التالية بفضل حياتهم الرغدة المترفة. وكان هذا التناقض نموذجًا للتناقض الأساسيّ في عالم الأبطال تجاه الغريب الذي يحضر دون دعوة، ونموذجًا للانتقال السريع من الخوف العميق المبرَّر إلى الضيافة السخية.

إن الشاعر يلفت النظر إلى هذا الأمر بأسلوب آخر بين الكيكلوبيس الذين كانوا يعيشون أيضًا في بلاد ولق الواق. لقد كانت الكلمة التي بدأ بها أوديسّيوس الحديث هي طلب الضيافة المتعارف عليها، وكان ردّ بوليفيموس (Polyphemus) بسخرية واضحة للغاية: "سوف ألتهمك آخر أصحابك، حتى يكون ذلك هدية ضيافتي لك."[٥٩] لقد كان بوليفيموس يقف عند أحد القطبين فقط، ولم يكن هناك شيء مُحَيِّر وغير مؤكد بشأن عداوته التامة لكافة الغرباء. وهنا أيضًا فإن هوميروس يعبر عن الظلال الحقيقية. لقد قال الكيكلوبس: "إننا لا نأبه بزيوس المتدثر بالدرع، الـ: أيجيس (aigis)، ولا بالآلهة المكرمين، بقدر ما نحن نَفْضُلهم."[٦٠] لقد دفع العملاق ثمن غروره وتجبره (hypris) بسرعة عندما أوقعت به الحيل الأكثر مهارة لأوديسّيوس الذي يخشى الآلهة. إن خلف هذه الحكاية توجد، كما هو واضح، رؤية مختلفة عن التطور الاجتماعيّ. ففي المراحل البدائية يبدو الشاعر وكأنه يقترح أن البشر كانوا يعيشون في حالة من الصراع الدائم ومن الحروب حتى الفناء، ضد الغرباء. وبعد ذلك تدخلت الآلهة، ومن خلال توجيهاتها ومن خلال عدالتها (themis)، وضعت مثلاً جديدة أمام الإنسان، وبخاصة أمام الملك، تتمثل في الالتزام بالضيافة: "إن كافة الغرباء والشحاذين يأتون من عند زيوس."[٦١] ومنذ ذلك الحين كان على البشر أن يسلكوا طريقًا وعرًا بين الاثنين: بين حقيقة مجتمع ما يزال الغريب فيه يمثل مشكلة وخطرًا من نوع ما، وبين القيم الأخلاقية الجديدة التي كان هذا الغريب يدخل فيها بشكل ما تحت درع (aigis) زيوس.

---

(٥٩) Odyssey 9.370.

(٦٠) Odyssey 9.275-76.

(٦١) Odyssey 14.57-58.

ومن ناحية النظم الاجتماعية فإن علاقة الصداقة والضيافة هي التي أضعفت -أكثر من أى شيء آخر- التوتر بين القطبين. ربما أن التجارة أزالت العداوة على السطح لفترة ما، ولكنها لم تترك آثارًا دائمة في هذا المجال. وعلى العكس من ذلك فإن التجارة كانت تميل دائمًا إلى تقوية الشك في الغرباء على الرغم من الحاجة الماسة إليها. إن الصورة القلقة والسلبية تمامًا الموجودة في هوميروس عن الفينيقيين توضح هذا الأمر بجلاء. ومرة أخرى فإننا نجد المسألة في سياق عالم فاضل خياليّ. لقد كان الفينيقيون البحارة المثاليين ورجالاً -على عكس اليونانيين أنفسهم- لا يهابون البحر وليس لديهم ما يخشونه منه: "لأنه لا توجد في سفن الفينيقيين ربابنة ولا دفة، كما في السفن الأخرى، بل إن السفن ذاتها تفهم أفكار الرجال ورغباتهم."[٦٢] وعلى الرغم من أنه لا توجد أية إشارة إلى تجارة بين الفاياكيين، فقد حدث في فاياكيا ذاتها أن تلقى أوديسّيوس الإهانة البالغة عندما شُبه بأحد التجار.

وكانت علاقة الصداقة والضيافة ذات مفهوم ونظام مختلفين تمامًا. لقد كان الغريب الذي يملك صديقًا مضيافًا (xenios) في أرضٍ غريبة، وكان كل مجتمع آخر يمثل أرضًا أجنبية، يملك بديلاً عمليًا لصلة القرابة، وحاميًا وممثلاً وحليفًا له. وكان يملك ملجأ إذا اضطر للفرار من بلاده، ومكانًا يستطيع أن يلجأ إليه إذا اضطر إلى السفر، ومصدرًا للرجال والأسلحة إذا اضطر إلى القتال. وكانت هذه العلاقات جميعها شخصية، ولكن البعد الشخصيّ فيها كان يتداخل مع السياسيّ عند الحكام الأقوياء. وهكذا أصبحت علاقة الصداقة والضيافة النسخة الهوميرية، أو الشكل المبكر للتحالفات السياسية والعسكرية. ولا يعني ذلك أن كل صديق مضياف كان يستجيب بشكل تلقائيّ ومحدد المعالم للدعوة إلى حمل السلاح، فإن ذلك يعني نمطًا من التوافق لم يتحقق -ولا يمكن تحقيقه- في ظل الأوضاع السياسية المتغيرة

---

(٦٢) Odyssey 8.557-59.

وغير المستقرة فى عالم أوديسّيوس. لقد كان الصديق المضياف من هذه الناحية يشبه الملك، من حيث إن قيمته كانت تتناسب تناسبًا مباشرًا مع نفوذه. وفى خلال الأعوام التى قضاها أوديسّيوس فى الغربة دون أية أخبار عنه، فإن كافة أصدقاء ضيافته الأجانب (xenioi) ربما كانوا سيوافقون والده لاتيرتيس عندما قال لأحدهم: "إن كافة الهدايا التى أعطيتّها قد ذهبت أدراج الرياح."[٦٣] وعندما دخل الخاطبون هاديس وجّه شبح أجاممنون الحديث إلى أمفيميدون (Amphimedon) على وجه التحديد قائلاً: "هل تذكر المرة التى أتيت فيها إلى بيتك هنالك (فى إيثاكه) مع مينيلاوس، شبيه الآلهة، لكى نحثّ أوديسّيوس على أن يأتى معنا إلى طروادة فى السفن القوية؟ لقد قضينا شهرًا كاملاً قبل أن نبحر عائدين عبر البحر الواسع بعد أن استطعنا بصعوبة أن نقنع أوديسّيوس فاتح المدن."[٦٤] لقد بذل أجاممنون بطبيعة الحال أقصى ما فى وسعه للاستفادة من أحد أصدقاء ضيافته؛ لكى يجمع جيشًا من بين الغرباء للحرب من أجل صراع أسرىّ بسبب اختطاف زوجة، بادئ ذى بدء. ولكن لأنه نزل على أمفيميدون لأجل عامل الضيافة، فمن الواضح أن أجاممنون لم يطلب منه المساعدة العسكرية. لقد ذهب من أجل هذا الأمر إلى أوديسّيوس، الملك، الذى لم تكن تربطه به عندئذٍ علاقات رسمية.

لسوف يكون من العبث أن نحاول تخمين السبب فى أن أمفيميدون ظل فى بيته أو فى أن أوديسّيوس -الذى تم فى النهاية إقناعه وجمع جيشه- لم يأخذ معه عددًا كبيرًا من النبلاء الإيثاكيين فى الحملة. إن واقع الأمر يدل على أن الشاعر يتركنا فى ظلام دامس فيما يتعلق بكيفية تشكيل جيش الأخيين. ربما أن الإجراء المتبع فى إيثاكه كان هو ذاته المتبع بين الميرميديين الذين يحكمهم أخيلّيوس.

---

(٦٣) Odyssey 24.283.

(٦٤) Odyssey 24.115-19. ربما كان هذا الحديث موجهًا إلى والد أمفيميدون. لقد كان ميلانيوس (Melanius) هو الذى أتى إليه أجاممنون لأن أمفيميدون كان ولا بد عندئذٍ غلامًا. وفى الفقرات التالية سوف أشير إلى أمفيميدون من قبيل التيسير.

فهنالك كان يتم اختيار أحد الأبناء بالقرعة.(٦٥) وربما أن الاحتمال الأكبر هو أن الأساليب كانت تختلف من مجتمع إلى آخر، طبقًا للأهواء والمصالح وفوق كل ذلك تبعًا لنفوذ الملوك والنبلاء المعنيين. ولأنه لم يكن هناك هجوم على المجتمع اليونانيّ، ولا حتى تهديد بذلك، فإن الاشتراك فى الحملة الطروادية لم يكن أمرًا ملحًّا بشكل مباشر لعامة الناس (demos).

ويُذكرنا الشاعر مرة أخرى بمدى سيولة المشهد السياسيّ. لقد كان لأجاممِنون، أقوى الحكام العديدين الذين شهدهم العالم الهلّلينىُّ عندئذٍ، صديق ضيافةً في إيثاكه، ولم يكن هذا الصديق ملكها، أوديسِّيوس، بل أحد الأرستقراطيين غير الحاكمين، أمفيميدون. ولم يكن هناك شيء غريب أو نادر بشأن هذا الوضع. لقد كان متكررًا فى كافة أرجاء العالم اليونانىّ، تمامًا مثل الزواج، الذى كان مرتبطًا ارتباطًا قويًّا بحدود الطبقة الاجتماعية، وكان مقبولاً بين الملك وأبناء الملك، وبين بنت أحد النبلاء ممن ليسوا ملوكًا. لقد كان تعبير "الأول بين أقرانه" يعنى مساواة فى المكانة فيما يتعلق بالعلاقتين السياسيتين اللتين يمكن قيامهما خارج حدود المجتمع: الزواج وعلاقة الصداقة والضيافة. ولم توجد عندئذٍ أية فكرة عن دم ملكيّ في عالم كان المجتمع فيه يضم "عددًا كبيرًا من الملوك الآخرين."

لقد كان هناك على الرغم من ذلك نوع آخر ثالث من العلاقات تتضح فيه عدم المساواة، وهو علاقة الكفالة أو التبعية. فبينما كانت علاقة الزواج وعلاقة الصداقة والضيافة تتخطيان حدود المجتمع، الأولى أحيانًا والأخرى دائمًا، فإن علاقة الكفالة كانت على وجه التحديد نظامًا اجتماعيًّا داخليًا. وكانت تحتم نوعًا من التدرج غير المحدد بين نبلاء المجتمع، وكانت تلعب دورًا أساسيًّا فى تشكيل نظام قواه الداخلية. ويمكن شرح الوضع بأسلوب آخر. لقد كان التابعون يشكلون العنصر الأساسىّ الثالث فى البيت الأرستقراطىّ بالإضافة إلى أعضاء الأسرة والقوى

---

(٦٥) Iliad 24.397-400.

العاملة (سواءً من العبيد أو الأجراء). إن كلمة "تابع" غير محددة المعنى بدقة، ولهذا السبب فإنها ترجمة مناسبة للكلمة اليونانية "ثيرابون" (therapon). ففي أحد معانيها تشير الكلمة إلى أفرادٍ من الأحرار، وإن كانوا بالتحديد لا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية، الذين يحضرون ولائم القصر، والذين يؤدون المهام "التي يخدم فيها الأدنى مرتبة مَنْ يَفضُلونهم."(٦٦) وعلى النقيض الآخر كان يوجد بطل مثل ميريونيس (Meriones)، الذي كان تابعًا (therapon) للملك إيدومينيوس (Idomeneus) الكريتيّ. لقد كان ميريونيس يتمتع ببعض أكثر النعوت فخرًا في القصائد من قبيل "صنو آريس (Ares) السريع" و "قائد الرجال."(٦٧) وكان أحد الرؤساء الثانويين القلائل للغاية الذين ذكرت أسماؤهم في قائمة السفن، كما أن شجاعته في القتال أشارت إليها سطور عديدة في الإلياذة. ومع ذلك يجب أن نفترض أن ميريونيس، بوصفه "ثيرابون"، كان يتبع إيدومينيوس إلى طروادة، كنوع من الالتزام، وليس لأنه قد تم "إقناعه" بالذهاب.

إن الالتزامات التي من هذا النوع والتي بهذا القدر من القوة، مثل الالتزامات المفروضة طبقًا لصلة القرابة، كانت شخصية. ولم يكن هذا الوضع يعني أنها كانت اعتباطية أو ضعيفة أو غير محددة، بل يعني أنها كانت بعيدة عن روابط المجتمع وكانت خارجها إلى حدٍّ كبير. ربما أفضل من ذلك أن نقول إنها كانت تعلو روابط المجتمع. لقد كان مينيلاوس هو الذي حلت به المصيبة بفرار هيلينا (Helen) وليست إسبرطه. وكان أخوه أجاممنون هو الذي قاد الحرب للثأر وليست مدينة موكيناي. وكان أمفيميدون وأوديسيّوس هما اللذين طلب منهما أجاممنون العون وليست إيثاكه. ولكن –في المقابل– كانت طروادة بأكملها هي التي حاربت –ليس بسبب ولائها لباريس (Paris)– أو حتى للعجوز برياموس، الذي كان يستطيع أن يقف إلى جوار ولده، ولكن لأن اليونانيين الغزاة كانوا يهددونهم جميعًا بالفناء.

---

(٦٦) Odyssey 15.324.

(٦٧) Iliad 13.295, 304.

إن التداخلات المستمرة بين البيت والعشيرة والمجتمع، فى البلدان وخارجها، أوجدت عددًا كبيرًا من المواقف والصعوبات المتنوعة والمعقدة. ومع ذلك كان هناك نمط محدد واتجاه أساسىّ. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تمييزه فعلاً فى القصائد ذاتها، فإنه يمكن مشاهدته فى أكثر الأدوات المفيدة التى يستخدمها المؤرخون، وهى أسلوب النظر إلى الأحداث ومحاولة إدراكها بعد وقوعها. إن علماء الأنثروبولوجيا يعرفوننا بشكل المجتمع الذى تربطه صلة الدم فى أبسط صوره. ومما يميز كثيرًا من مجتمعات "العالم البدائى" أن سلوك الأفراد تجاه بعضهم البعض ينتظم إلى حدٍّ كبير على أساس صلة الدم التى تتحدد طبقًا لأنماط محددة من السلوك المرتبطة بكل درجة من درجات صلة القرابة."[٦٨] ولا يمثل هذا وصفًا لعالم أوديسّيوس الذى كانت رابطة الأسرة فيه، على الرغم من قوتها، محددة تحديدًا ضيقًا، والذى كانت تقوم فيه علاقات أخرى قوية، وربما أكثر إلزامًا خارج حدود الجماعة التى تربطها صلة الدم. وطبقًا لمعايير التطور، بقدر ما يمكننا استخدامها بشكل صحيح، فإن عالم القصائد الهوميرية كان قد ابتعد عن هذه المراحل البدائية. لقد كانت صلة القرابة، العشيرة، عندئذٍ مجرد أحد المبادئ المنظِّمة العديدة، ولم تكن الأساس الأكثر فاعلية. لقد كان العامل الذى يسبقها هو البيت (oikos)، البيت الأرستقراطىّ الكبير، بما يضمّه من عبيد وعامة، ومن أتباعٍ أرستقراطيين، ومن حلفاءٍ بين أقاربه وأصدقائه وضيوفه.

وداخل المنزل -كما كان الحال بين الأقارب- فإن أنماط سلوك المرء تجاه الآخر (أو تجاه الأخرى) كانت متدرجة ومحددة. وكما كان الحال بين الأسر وبعضها، كانت هناك قواعد كثيرة متعارف عليها حول ما هو ملائم وما هو غير لائق. ويجب علينا أن نوقن أنها كانت تطبق فى التعاملات اليومية بوصفها أمرًا

---

(٦٨) A. R. Radcliffe-Brown, Structure and Function in Primitive Society, (London: Cohen &West, 1952), p. 29.

مألوفًا. ولكن لم توجد مع ذلك عندئذٍ قوة علوية إجبارية، لكون أساس المجتمع ما يزال إلى حدٍّ كبير بسيطًا؛ ولهذا ففى معرض تنافس أحد بيوت (oikos) النبلاء مع إحدى الأسر الأخرى من أجل الحصول على ثروة أكبر وعلى نفوذ أقوى، ومن أجل مكانة أعلى ومنزلة أكثر رفعة، كانت المخالفات لهذه القواعد متكررة الحدوث وبشكل يتسبب فى حدوث التوتر الذى كان سمة مميزة لوجود الأبطال والذى كان لا يتوقف أبدًا. لقد ناقش المعلمون الأخلاقيون العظام فى العصور التالية هذا الصراع حول المكانة الاجتماعية فى جانب والعدالة الإلهية (themis) فى جانب آخر، أما الأبطال ومن معهم من العرافين فلم يكونوا مفكرين ولا مصلحين. لقد كانت المبادئ الأخلاقية والأفكار الفلسفية المجردة بدون شك موجودة فى حكاياتهم، ولكن الشعراء قنعوا ببساطة بأن يرووا الحكاية.

لقد قالت إحدى الشخصيات فى الحكاية: "ليس أمرًا سيئًا أن يكون المرء ملكًا." ومع ذلك فإن المرء بحاجة إلى أن يقلب صفحات هوميروس أو أن يقرأ بشكل عشوائىّ فى الأساطير اليونانية ليكتشف أن حالات الخيانة والاغتيال كانت المصير الأكثر شيوعًا بين الحكام. ولم يصبح زيوس الأوليمبىّ ذاته كبيرًا للآلهة إلا بعد أن أطاح بوالده كرونوس (Cronos)، وبالعمالقة الآخرين، كما أن كرونوس ذاته وجد طريقه إلى السلطة دمويًّا بالقدر ذاته. وباستطاعة المرء أن يحدد دلالات الرموز الأسطورية كيفما يتراءى له، مثلما أن باستطاعته على سبيل المثال أن يفسح المجال لحقيقة أن الشعر الروائىّ شعر درامىّ، وأن الأعمال الدموية كانت تشكل غالبية الموضوعات قبل التوصل إلى موضوعات الحب العاطفية. ومع ذلك فمن الصعب علينا أن نفهم أن الحكايات كان يمكن أن تظل أحادية الجانب بهذا القدر فيما تشتمل عليه من أحداث قتل واغتصاب وغوايات وقتل الإخوة وقتل الآباء ومؤامرات، لو كان النظام الملكىّ فى حقيقة الأمر يشكل نظامًا مستقرًّا يتمتع بامتيازات وله طابع أسرىٌّ منتظم.

كذلك فإن هذه الأوضاع لم تكن مجرد مسألة صراع مفتوح حول من يجب أن يشغل العرش. لقد كانت توجد خلف ذلك مسألة أساسية بدرجة أكبر، وفى نهاية الأمر، أقوى تأثيرًا. ففى أثناء محاولة الملك الأرستقراطىّ دعم مصالح بيته أصبح هذا الملك مركز قوة فى فكرة المجتمع: فما دام مفهوم المجتمع كان قويًا وكانت تأثيراته واسعة، كان الملك أعظم وأكثر أمنًا فى موقعه. وفى المقابل كانت الأرستقراطية تطلب القيادة لبيوتها (oikoi) ولطبقتها، تحت حكم ملك إذا كان الأمر ممكنًا، وبدونه إذا اقتضى الأمر. ويسجل هوميروس عددًا كبيرًا من المواقف فى هذا الصراع، ولا يخفى تفضيله للحكم الملكىّ، كما يتبين من تصويره المثالىّ للحكم الملكىّ بين الفاياكيين. إنه لا يعرفنا بأية دلالات عن النتائج، ولكننا نعرفها جيدًا. ففى الوقت الذى كتبت فيه الأوديسية كانت هزيمة الملوك قد أصبحت كاملة إلى حدّ أن النظام الملكىّ كان قد اختفى من غالبية بلاد اليونان. لقد حلّ محله حكم الأرستقراطيين بوصفهم جماعة حاكمة، وكانوا متساوين فى المكانة دون أن يتقدمهم واحد منهم.

لقد وجد الأرستقراطيون أنفسهم عندئذ فى مواجهة مصدر جديد للإزعاج لم يكن يحلم به أحد فى عالم أوديسيوس. لقد بدأت عامة الناس -الذين كانوا دائمًا مشاهدين سلبيين فى الصراعات السياسية المبكرة- يدركون قواهم وقدرتهم على القيام بدورٍ فى نظام الحكم. ففى الإلياذة والأوديسية كانوا يصيحون مزمجرين أو يصفقون، ولكنهم كانوا يتلقون الأوامر. وكان هذا الدور هو الدور المقبول من ذوى المكانة الدنيا تجاه من يعلونهم: "أن يُكرّموه كما لو كان إلهًا." وفى إحدى المناسبات حاول أجاممنون أن يطبق القواعد النفسية مع جنوده، وأصاب قدرًا ضئيلاً من النجاح بالقدر الذى جعل الفزع يستولى عليهم، وتحول الجيش اليونانىّ بأكمله إلى مجموعة من الغوغاء، وبدءوا يركبون السفن بدون نظام، وقرروا أن

يبحروا عائدين، وأن يتوقفوا عن القتال. لقد تدخلت هيرا وأرسلت أثينا إلى أوديسِّيوس بتعليمات مؤدّاها أن يتمالك نفسه، وأن يضع حدًّا لهذا الفرار المشين. وأخذ أوديسِّيوس صولجان أجاممنون، وذهب إلى الجنود، وهو يداهن ويتزلف في أثناء سيره.

"وعندما كان يأتي إلى واحد من الملوك ورجلٍ ذي مكانة، كان يقف إلى جواره ويكبح جماحه بكلمات لطيفة. . . . ولكنه عندما كان يقابل رجلاً من عامة الناس (demos) ويراه وهو يصيح، فإنه كان يضربه بالصولجان ويوبخه بهذه الكلمات: "يا أخي، قف هادئًا واستمع إلى كلمات أولئك الذين يَفضُلونك، أنت الذي لست بمحارب ولا ضعيف، ولست ذا صفةٍ سواءً في المعركة أو في المجلس."(٦٩)

لقد ظل هذا المبدأ ثابتًا لا يتغير في عصر أوديسِّيوس. وأيًّا كانت الانقسامات والصراعات بين بيوت النبلاء وأسرهم، فإنهم كانوا دائمًا ما يتفقون على أنه يجب عليهم ألاَّ يعبروا الخط الكبير الذي يفصل الأفاضلَ (aristoi) عن غالبية الناس، والأبطال عن غير الأبطال.

---

(٦٩) Iliad 2.188-202.

الفصل الخامس

القِيَمُ والأخلاقَ

يَدُور جزء كبير من الكتاب العشرين من الإلياذة حول وصف الألعاب الجنائزية التى أقامها أخيلِّيوس تكريما لباتروكلوس (Patroclus). وأمام جيش الآخيين بأكمله تنافس أفضل الرياضيين من بين الأبطال في مباريات يونانية تقليدية: في سباق العربات وسباق الجرى وفى الملاكمة والمصارعة ورمى الأثقال. "ومن سفنه أحضر أخيلِّيوس جوائز تضم شمعدانات وحوامل ثلاثية الأرجل وخيولاً وأبقارًا وثيرانًا قوية وكذلك نساءً ذوات عباءات وأيضًا [قطع] حديد رمادية."[١] وكان أول الأحداث التى وصفها الشاعر ببراعة ومقدرة رائعتين هو سباق العربات، الذى فاز فيه بالمرتبة الأولى ديوميديس (Diomedes). وبالكاد احتل أنتيلوخوس (Antilochus) بن نستور (Nestor) المرتبة الثانية بدلاً من مينيلاوس (Menelaus)، ولكنه فعل ذلك بعد أن خادع الملك الإسبرطيَّ فى الدورة الأخيرة. واحتل ميريونيس (Meriones) المرتبة الرابعة، وتلاه فى المركز الأخير سيىء الحظ يوميلوس (Eumelus)، الذى وقع من عربته بعد أن انكسر قائمها، واضطر إلى أن يكمل السباق على قدميه وهو يجرُّ عربته من خلفه. وكانت هناك جائزة لكل متسابق، طبقًا للترتيب الذى حدده أخيلِّيوس فى البداية. وعلى الفور أخذ ديوميديس الجارية والحامل المخصصين للفائز الأول، وبعد ذلك اقترح أخيلِّيوس أن يحصل يوميلوس على الجائزة الثانية وهى فرَسة، كدليل على تعاطفه مع حظه السيىء، وصاح المشاهدون علامة الموافقة، كما لو كانوا جالسين فى اجتماع رسميّ، الأمر الذى جعل أنتيلوخوس يقف ويتحدث مطالبًا بحقه، قائلاً: "يا

---

(١) Iliad 23.259-61.

أخيلّيوس، سوف أغضب غضبًا شديدًا إذا نفّذت ما تقول،" وبالنسبة ليوميلوس "فإنه كان ينبغي عليه أن يدعو الآلهة، فعندئذٍ ما كان سيأتي في نهاية السباق. وإذا كنت تشفق عليه، وإذا كان عزيزًا على نفسك، فإن لديك ذهبًا كثيرًا في كوخك، لديك نحاسٌ ومواشٍ، لديك جوارٍ وخيولٌ غير مروضة، خذ منها وأعطه إن شئت جائزة أكبر. ولكن هذه الجائزة لن أتخلى عنها؛ لأنني من أجلها سوف أقاتل بيدي هاتين من يرغبُ في القتال." عندئذٍ ابتسم أخيلّيوس ووافقه على رأيه.

"ولكن مينيلاوس وقف أيضًا بينهم، وهو يشعر بحنق شديد في قلبه، وكذلك بالإهانة من جانب أنتيلوخوس. ووضع الحاجب الصولجان في يده، وأمر الآرجيين أن يهدءوا." وعندئذ تحدث الرجل الذي يشبه الإله (وتعني كلمة (isotheos) حرفيًّا المساوي في مكانته لإله) قائلاً: "أنتيلوخوس، لقد كنت عاقلاً قبل الآن. ما هذا السلوك الذي بدر منك؟ لقد أهنت قوتي، وزاحمتَ مع خيولي، ودفعت بخيلك إلى الأمام، مع أنها أقل شأنًا بكثير. ولكن، هلموا يا رؤساء الآرجيين وقادتهم، وافصلوا في هذا الأمر." غير أن مينيلاوس غيَّر رأيه، على أية حال، واقترح إجراءً بديلًا "ولكن تعالَوا؛ أنا نفسي سوف أقرر الحق، وإنني أعتقد أنه لن يلومني أحد من الدانائيين؛ لأنه سوف يكون واضحًا. تعال يا أنتيلوخوس، يا محبوب زيوس (Zeus) إلى هنا، وكما هو متعارف عليه (themis)، قف أمام خيلك وعربتك، واقبض بيدك على السوط الرفيع الذي قدتهما به من قبل، والآن، ويدك على الخيول أقسم بـ: بوسيدون (Poseidon)، الذي يحرك الأرض ويزلزلها أنك لم تتدخل متعمدًا بعربتك لخدعة ما." ولكن ابن نستور "الذي كان عاقلاً" حتى أجبرته رغبته في الفوز على الخداع، عاد إلى رشده عندئذٍ بالقدر الذي جعله يرفض هذه الدعوة إلى الحلف زورًا باسم بوسيدون. لقد اعتذر وأعطى الفرسة إلى مينيلاوس، وعاد بذلك السلام بينهما"(٢).

---

(٢) Iliad 23.542-85.

لقد أعطى هوميروس لهذا المشهد الشكل الخارجيّ للمجلس (agora) المعتاد، وهو أمر غير صحيح بدون جدال. ولم يكن هناك في حقيقة الأمر ما يحتم أن يكون الوضع كذلك. لقد طلب مينيلاوس حقه، وكان لديه حق اختيار الأسلوب، ولم يكن من بين هذه الأساليب ما يتطلب وجود مجلس. لقد كان يمكن حل المشكلة بينه وبين أنتيلوخوس بواسطة التحكيم، كما اقترح في البداية، وكان يمكن تحديدها أيضًا بحلف اليمين. وكان الأسلوبان متساويين في مدى ملاءمتهما، وكان يمكن تمامًا استبدال أحدهما بالآخر. وكان كل منهما أسلوبًا "لتقرير الحق"، وكان نهائيًا ولا مجال لاستئنافه أمام أية سلطة دنيوية أعلى. وإذا حدث وكانت نتيجة التحكيم غير عادلة، ولم تعط الحق لصاحبه، فإن الآلهة عندئذٍ كانت ترتب من لَدُنّها عقوبة مناسبة. وعلى سبيل المثال، لو قبل أنتيلوخوس التحدي وأقسم زورًا، فإن بوسيدون بدون شك سوف يثأر منه بلا رحمة لهذه الإهانة الكبرى لاسمه المقدس. ولكن مسألة توجيه تهمة شهادة الزور كانت أمرًا خارج مسئولية البشر.

لقد كانت القضية المتعلقة بالحقوق والسابقة لقضية مينيلاوس بين أنتيلوخوس ويوميلوس. واختار أنتيلوخوس أسلوبًا ثالثًا، هو المبارزة المسلحة. وكان هذا الخيار متاحًا إذا مال إليه المرء، مثلما أنه كان أيضًا نهائيًا؛ فعندئذٍ يكون المنتصر هو صاحب الحق المبين. وتوجد هنا لمسة لطيفة -على الرغم من كونها غير وثيقة الصلة بالموضوع- فلم يكن هناك خلاف بين أنتيلوخوس ويوميلوس على حقيقة؛ لأن يوميلوس كان آخر من أنهى السباق، وكان أنتيلوخوس سيفوز عليه حتى لو أكمله الآخر حتى نهايته. ومع ذلك فإنه كان باستطاعة أنتيلوخوس أن يطلب التحكيم أو الحلف باليمين، تمامًا مثلما كانت الفرصة متاحة أمام مينيلاوس لأن يحتكم في نزاعه مع أنتيلوخوس إلى السيف. ومع بعض التفاوت في التفاصيل، كانت هذه السبل الثلاثة هي السبل المتاحة للأبطال الهوميريين لكي يفضّوا نزاعاتهم حول ما يرى الواحد منهم أنه حقٌ له. وباستثناء اللحظة التي صفّق فيها الناس موافقين على نظرة أخيليوس المتعاطفة مع يوميلوس، فإن المجتمعين أبطالاً

وعامة (demos)، سواءً بسواءٍ، ظلوا مشاهدين لا أكثر ولا أقل. لقد كان الدفاع عن الحق مسألة شخصية بحتة. وكانت تقع على المرء الذى يشعر بالظلم مسئولية اتخاذ الخطوات اللازمة لاسترداد حقه، وكان له الحق فى اختيار أىٍّ من الأساليب المتاحة. ربما كان باستطاعة أقاربه أو ضيوفه أو أتباعه أو مؤيديه أن يتدخلوا لدعمه، ولكن التصرف كان مع ذلك سلوكًا شخصيًا. وعلى الرغم من وجود بعض التعبيرات المتناثرة فى القصائد عن العدالة الملَكية، فإنها إشارات معاصرة للشاعر، وترجع بالتالى إلى مرحلة تالية لسياقها التاريخىّ. لقد كان الشاعر يَنْظُمُ قصائده فى وقت تطورت فيه أسس المجتمع لدرجة تتيح الفرصة لوجود إدارة عامة ومحددة للعدالة. ولكنه كان يتغنى بعصر لم يشهد مثل هذه الأوضاع، باستثناء القوة غير المحسوسة للرأى العام. ربما أننا لا نستطيع تقدير قوة مثل هذا الرأى، ولكنه كان مهمًّا بكل تأكيد، ولا بد أنه أدّى فى بعض الأوقات إلى تدخل أناس من الخارج لفضِّ النزاع. ومع ذلك ظلّ مبدأ أن الحقوق الخاصة الخالصة يجب الدفاع عنها شخصيًا قائمًا. فبغير هذه الوسيلة لا يمكننا فهم موضوع راغبى الزواج فى الأوديسية، وبدون الإصرار الوقح لهؤلاء الخاطبين فى مواجهة عجز تِليماخوس، ما كانت ملحمة الأوديسية لتُنظَم فى الأساس.

لقد كان مينيلاوس وأنتيلوخوس متساويين فى المكانة. وهذه الحقيقة أساسية للموضوع، لأن العدالة بين الأبطال، مثل العدالة فى ميثاق الشرف الأرستقراطىّ فى العصور الأكثر تطورًا، كانت مسألة لا توجد إلا بين الأكفاء. ولم يكن مينيلاوس يستطيع أن يطلب من ثيرسيتيس (Thersites) أن يحلف اليمين، تمامًا مثلما أنه لم يكن باستطاعة أىّ أرستقراطىّ فى برلين أن يطلب صاحب محل فى برلين إلى المبارزة. يجب علينا أن نتذكر أن أوديسّيوس أوقف الذعر فى القوات اليونانية بأن تلطف فى حديثه إلى القادة؛ وبأن استخدم عصاه، وأصدر أوامره إلى عامة الناس وبسطائهم. ولم يقنع الشاعر بأن يختم المشهد بهذه الملاحظة، وبدلاً من ذلك انتهز الفرصة ليكتب مقالاً صغيرًا عن الطبقات الاجتماعية، وعن أنماط

السلوك الملائمة لكل منها. فبمجرد أن نجح أوديسِّيوس فى إعادة الرجال إلى الاجتماع (agora) أخذت الرواية منحىً جديدًا.

"عندئذٍ جلس كافة الناس الآخرين، وانتظموا فى مقاعدهم، إلا ثيرسيتيس فظّ اللسان، الذى أخذ فى توجيه اللوم، وقلبه مليء بالكلمات الكثيرة غير المرتبة، وتشاجر بغرور مع الملوك وبدون ترتيب جيد للكلمات. . . وكان أقبح رجل أتى إلى إيليون (Ilion). لقد كانت ساقاه مقوستين، وكان يعرج بإحدى قدميه، وكان كتفاه مقوسين وينحنيان على صدره، وفوقهما رأس مشوهة الخلقة، وينمو عليها بعض الشعر المتناثر هنا وهناك." وكان مضمون شكوى ثيرسيتيس هو "ما لنا والقتال من أجل تكديس الغنائم من أجل أجاممنون؟ دعونا نَعُدْ إلى بيوتنا."

وأسرع أوديسِّيوس إلى ثيرسيتيس، وأمره أن يتوقف عن الإساءة إلى ملوكه، وهدد بأن يسوقه عاريًا وباكيًا خارج الاجتماع. "وتحدث بهذه الكيفية وضربه على ظهره وعلى كتفيه بالصولجان، حتى انكفأ [ثيرسيتيس]، وسقطت دمعة كبيرة منه، وظهرت خطوط دامية على ظهره تحت تأثير ضربات الصولجان الذهبىّ. بعد ذلك جلس خائفًا وهو ينتفض ألمًا، بائس المنظر، ومسح دمعته. أما الآخرون، فعلى الرغم من أنهم كانوا خائفين، فقد ضحكوا بخفة عليه، وأخذ كل منهم يتحدث –وهو ينظر إلى جاره– بهذه الكيفية: "نعم، لقد فعل أوديسِّيوس فى الحقيقة أعمالاً كثيرة لا تحصى من قبل، لكونه من أصحاب المشورة الأوائل، وفى قيادته للمعارك، ولكنه هذه المرة فعل أفضل شيء بين أهالى أرجوس، عندما جعل هذا السليط يتوقف عن كلماته البذيئة. إننى أرى أن قلبه لن يتشجع ثانية على معارضة الملوك بكلمات التوبيخ." هكذا تحدث عامة الناس فيما بينهم."[٣]

هذه الكلمات الأخيرة، التى يقول فيها الشاعر: "هكذا تحدث عامة الناس"، تستلفت الانتباه بقوة فى هذا السياق. ويبدو الأمر كما لو أن الشاعر نفسه أحسّ أنه

---

(٣) Iliad 2.211-78.

حدَّد المواجهة بشكل أكثر مما ينبغي؛ إن مفاد كلماته الأخيرة أنه يريدنا ألا نعتقد أنه يتحدث بميول أرستقراطية، أو أنه منحاز إلى الأرستقراطيين. فحتى عامة الناس بين الهللينيين وقفوا مشدوهين أمام إحساس ثيرسيتيس غير الصحيح بما هو ملائم. وعلى الرغم من أنهم أشفقوا عليه لكونه واحدًا منهم، فإنهم وافقوا بكل قلوبهم على التوبيخ الذى وجهه إليه أوديسِّيوس، وعلى الأسلوب الذى اتبعه معه. "لقد فعل أفضل شيء بين أهالى أرجوس" فى الحقيقة، لأن ثيرسيتيس كان يحاول تقويض الأسس التى يعتمد عليها عالم أوديسِّيوس.

وبطبيعة الحال كان هوميروس يتحدث إلى الأرستقراطيين، من أول سطر فى الإلياذة إلى آخر جملة فى الأوديسية. ولكن، ما دلالة هذا الأمر؟ هل يعنى ذلك، على سبيل المثال، أننا لا نستطيع الوثوق به عندما يضع فكرة ما، أو مشاعر من نوع ما على لسان شخص مثل ثيرسيتيس أو يومايوس (Eumaeus)؟ إن الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب تعنى أننا نتخيل مجتمعًا يعيش الأرستقراطيون والعامة فيه طبقًا لمجموعتين متعارضتين تمامًا من القِيَم والمعتقدات، ومثل هذا المجتمع لم يشهده العالم على الإطلاق. لقد كان هناك، بدون شك، مستويان فى بعض مجالات السلوك، فيما يتعلق بالنظرة الأخلاقية (ethos) إلى العمل، على سبيل المثال، أو فيما يتعلق بالدفاع عن الحقوق. لقد كان استخدام أوديسِّيوس للصولجان يمثل رمزًا جيدًا، ففى هذه المناسبة تحديدًا كان الصولجان لأجامِمنون، وكان هدية من زيوس (Zeus) نفسه. وكان الذى صنعه هو الإله هيفايستوس (Hephaestus) لأجل ملك الملوك، وأعطاه زيوس إلى بيلوبس (Pelops)، وبعده انتقل إلى أتريوس (Atreus) ثم إلى ثويستيس (Thuestes) ثم إلى أجامِمنون حفيد بيلوبس، وأصبح فى نهاية الأمر تراثًا مقدسًا فى مدينة خايرونيه (Chaeroneia) التى ولد فيها بلوتارخوس (Ploutarch). ولم يكن الصولجان، أىّ صولجان، مجرد رمز للسلطة؛ بل كان أيضًا علامة على ما هو عدل (themis)، والإجراء الملائم، وكان يُعطَى لكل متحدث فى المجلس على الترتيب لكى يضمن حصانته، كما حدث عندما وقف مينيلاوس لكى يعرض قضيته ضد أنتيلوخوس. ولكنه عندما استُخدِمَ ضد

ثيرسيتيس تحول إلى هراوة، لأن ثيرسيتيس كان واحدًا من "أولئك الذين لا يُحسَبُ لهم حساب في المعركة أو في المجلس." لقد تحدث في المجلس بدون وجه حق (themis)، فلم يعطه الحاجب أيّ صولجان، ولهذا كان من الملائم بالنسبة له أن يتلقى ضربات الصولجان على ظهره.

وتتلخص المشكلة في أننا لا نعرف ببساطة كيف كان يتم تحديد الحقوق عندما يتعلق الأمر بعامة الناس، سواءً عندما يكون الأمر بين أحد النبلاء وأحد أفراد العامة، أو بين أحد أفراد العامة وبعضهم البعض. إن هوميروس لم يهتم بمثل هذه الموضوعات، ولم يهتم بها مستمعوه، وليس لدينا أيّ مصدر آخر للمعلومات. ويصل هذا التجاهل إلى مراحل أعمق، ليشمل تقريبًا كافة موازين القيم. وليس أمامنا سوى أن نُخَمِّن، وأن نفعل ذلك على بعض القواعد البسيطة التي نفترض على أساسها. إن الأدلة على ما يُعْرَف باسم الشعر البطوليّ المعروف لدى المزارعين، وهو شعر ملحميّ كان يُنْظَم ويُتَغَنَّى به بين المزارعين أكثر منه في صالات البارونات، وكان منتشرًا جدًّا في مناطق عديدة في أوروبا وآسيا، يميل إلى توضيح أنهم كانوا يرددون الحكايات نفسها، عن الأنواع نفسها من الأبطال، وبقيم وفضائل مماثلة لما نجده في الشعر الأرستقراطيّ الموجود في القصائد الهوميرية. وفي مواجهة هذا الوضع فإننا نقابل المرارة في شعر هيسيودوس، بما لديه من توجهات المزارع، كما أننا نواجه أيضًا استنتاجًا قويًا مؤدّاه أن لامبالاة هوميروس بعامة الناس -في مجال الديانة على الأقل- كانت في الحقيقة تمثل رفضًا متعمدًا من جانبه لمعتقداتهم وطقوسهم الدينية. ومن المفترض أن عامة الناس في إيثاكه كانوا يقفون في مكان ما في المنتصف، من حيث إنهم كانوا يشتركون في كثير من المعتقدات والمشاعر مع أوديسّيوس، ولكنهم كانوا يعطون البعض الآخر لونًا مختلفًا. وبشكل عام من العبث أن نحاول البحث عن هذه الظلال. إن ما نقابله في المشهد الكبير والضخم هو الأخلاق والقيم المميزة لثقافة المحاربين، ويجب علينا أن نقتنع بذلك.

إن كلمة "المحارب" وكلمة "البطل" مترادفتان، كما أن الموضوع الأساسيّ لثقافة المحارب يعتمد على أمرين: الشجاعة والشرف. وتشكل الأولى السمة الأساسية المميزة للبطل، بينما تشكل الأخرى الهدف الأساسيّ الذى يسعى إليه. إن كل قيمة، وكل حكم، وكل عمل، وكافة المهارات والمواهب تعلب دورًا إما فى تحديد مفهوم الشرف أو فى تحقيقه. ويجب ألا تقف مسألة الحياة فى الطريق. لقد كان أبطال هوميروس يعيشون حياتهم فى عنف، مثلما أنهم كانوا يشعرون بكل شيء ويفعلون كل شيء بمشاعر قوية، ولا يمكننا تخيل أناس لديهم الميل إلى الاستشهاد والتضحية أكثر منهم. لقد كان يجب على الحياة نفسها أن تفسح مجالاً للشرف والمجد. وكان مقدرًا لأهم شخصيتين فى الإلياذة، أخيلّيوس وهيكتور، أن يعيش كل منهما حياة قصيرة، وكان كل منهما يعرف ذلك. وكانا أبطالاً؛ ليس لأنهما سارا إلى حتفهما عند سماعهما لنداء الواجب وهما يترنمان بالأناشيد الدينية للآلهة والوطن- فعلى العكس من ذلك لقد كانا ذاهبين بوضوح لمواجهة مصيرهما، مثلما أن أخيلّيوس، على الأقل، لم يشك بعد أن وصل إلى العالم السفلى هاديس (Hades). وكانا بطلين؛ لأنهما عندما سمعا نداء الشرف، أطاعا ميثاق البطولة بدون أىّ تردد وبدون أىّ معارضة.

لقد كان ميثاق البطولة كاملاً وواضحًا إلى الحدّ الذى يحول دون أىّ مناسبة لمناقشته من جانب الشاعر أو من جانب شخصياته. وكانت تحدث هنالك خلافات فى الرأى، حول ما إذا كان يجب الانسحاب فى موقعة أم لا، وما إذا كان يجب اغتيال تِليماخوس أم لا، وما إذا كان أوديسيّوس ما يزال حيًا أم مات، ولكن هذه كانت مجرد اختلافات حول موضوعات عملية أو بدائل تكتيكية. ولم نجد فى أىّ من هذه المواقف أية ضرورة لمناقشات مطولة. ومن ناحية أخرى كانت هناك بعض المواقف الحرجة التى تتطلب معرفة خاصة، مثل الطاعون الذى أصاب به أبوللون الآخيين عندما أهانوا كاهنه. عندئذ كان من الضرورى البحث عن إجابة من الآلهة، وكان هذا الأمر يقع بين الطرواديين على عاتق العراف كالخاس

(Calchas)، وعلى عائق أخى هيكتور، هيلينوس (Helenus)، اللذين كانا ماهرين فى تفسير كيفية تحليق الطيور. وهنا أيضًا لم تكن هناك فرصة لمناقشات كبيرة أو مهمة: لقد أعطى العراف الإجابة، وكان على الأبطال إما أن يطيعوا وإما لا، تبعًا لما تمليه عليهم رغباتهم. وفى النهاية كانت هناك لحظات يشعر فيها حتى أعظم الأبطال بالخوف، ولكنه كان يكفى عندئذٍ أن تسمع صيحة "جبان! امرأة!" لكى يعود سريعًا إلى رشده.

إن الحقيقة المهمة هى أنه لا توجد لا فى الإلياذة ولا فى الأوديسية أية مناقشة عقلانية، بمعنى الاعتبار القوى والمُنَظّم للظروف ولدلالتها، وللمسارات المحتملة للأحداث ولما لها من مميزات وعواقب. لدينا مناقشات مطولة، مثل تلك التى دارت بين أخيلّيوس وأجاممنون، أو بين تِليماخوس والخاطبين، ولكنها مشاجرات وليست مناقشات، يحاول كل طرف فيها أن يتغلب على الآخر بالوعيد وأن يستميل إلى جانبه المجتمعين بأن يحرك مشاعرهم، سواءً باستمالتهم إليه أو بتحذيرهم. لقد كانت للمهارة الخطابية فائدتها واستخداماتها عندما يتعلق الأمر بالصراع على الرأى العام: كما يتبين من تذكير فوينكس (Phoenix) لأخيلّيوس بأنه هو الذى علمه "أن يكون متكلمًا بالكلمات وصانعًا للأعمال."[٤] ومع ذلك فلم يحدث أيضًا أن تم حل نزاع عن طريق الحديث، بل كان الحلُ دائمًا قرارًا من الآلهة يتم تنفيذه من خلال شجاعة الأبطال.

ربما أن شخصية نيستور هى أكثر الشخصيات توضيحًا لهذا الأمر. لقد أصبح نيستور بمرور الوقت مثالاً للحكمة المصاحبة لكبر السن، وصوتًا للتجارب، ولكن نيستور الذى نقابله فى هوميروس لم يكن تلك الشخصية على الإطلاق. فلم يحدث فى أبدًا فى أحاديثه الكثيرة أن اعتمد على خبرته بوصفها أساسًا للاختيار بين البدائل المقترحة. وفى الحقيقة فإنه فى الإلياذة لا يقدم سوى اقتراحٍ واحدٍ يمكن

(٤) Iliad 9.443.

فى حقيقة الأمر وصفه بالاقتراح المهم والعاقل، هو اقتراحه أن يبنى الآخيون حائطًا دفاعيًا ضخمًا أمام معسكرهم على الساحل. وباستثناء هذا الموقف الوحيد، فإن حديث نيستور كان عاطفيًا ونفسيًا على طول الخط، وكان موجهًا إلى دعم المعنويات أكثر منه إلى التأثير فى مسيرة الأحداث. ولهذا الغرض فإن أعوام خبرته كانت مهمّة جدًا، ولكنها مهمّة من مفهوم فريد يجعله صاحب أكبر مخزون من الحوادث التى يمكن للمرء أن يأخذ منها نماذج للسلوك البطولىّ، ويجعل منه ذكريات تُعرّف بسبل تحقيق المجد والشرف. ومن ناحيةأخرى كان أوديسّيوس رجلاً ذا حِيل عديدة، وكانت مهارته الفائقة فى هذا المجال تأخذ شكل الخداع والتحايل. لقد قالت له أثينا "إن الخداع والحكايات المنمقة محببة إليك فى أعماق قلبك،"[٥] ولم يكن ذلك على سبيل النقد. لقد كان أوديسّيوس يكذب طوال الوقت، على افتراض أن الكذب لم يكن يتسبب فى أىّ أذى وأنه ربما أثبت فائدته فى النهاية؛ وكان يكذب بمهارة. ربما كان هذا خداعًا هادفًا بالمعنى العام، ولكنه لم يكن سلوكًا عقلانيًا رشيدًا. وبالتأكيد فإنه لم يكن حكمةً.

ربما شعر القارئون المُحْنَكون بأن الصيغ العديدة، التى تتكرر بأشكال مختلفة والتى تتحدث عن رجل ذى رأى، صيغًا مضللة. فبالنسبة لنا يعنى الرأىُ المشورةَ، والرأىَ الحكيم، والمشورةَ التى تعتمد على المعرفة والتجربة والتحليل العقلانى والتقدير. ولكن الرأى بالنسبة لهوميروس كان يعنى القرار ذاته أكثر منه العلل والأسباب، وبالتالى فإنه كان يشير إلى قوة النفوذ والسلطة. وكان باستطاعة نيستور، طبقًا لهذا المفهوم وحده، أن يصف أجاممنون وأخيلّيوس بأنهما "يتقدمان الدانائيين فى الرأى وفى القتال."[٦] ولم يكن أىُ منهما بارزًا فى إعطاء النصحية، وبخاصة أخيلّيوس؛ ولكنهما كانا يفوقان من حيث المكانة كافة الآخرين فى حق

---

(٥) Odyssey 13.295.

(٦) Iliad 1.258.

إصدار القرار. إن هناك الكثير من الحديث عن طلب الملوك المشورة؛ ومن النادر أن قُدِّمَت مشورةٌ لا تزيد عن كونها تشجيعًا أو تحذيرًا. وفي نهاية الأمر فإن القيم الأساسية للمجتمع كانت معروفة ومحددة مسبقًا، وكذلك كان موضعُ كل فرد في المجتمع معروفًا، وكانت أيضًا معروفةً الامتيازات والواجبات المرتبطة بمكانته. هذه الأمور لم تكن موضع تحليل أو مناقشة، ولم تتح الموضوعات الأخرى سوى مساحة ضيقة جدًّا لممارسة ما يجب علينا أن نطلق عليه اسم التقدير (بوصفه مفهومًا مختلفًا عن المهارة في العمل، بما فيها معرفة أساليب المبارزة المسلحة).

لقد وُجِدَت مواقفُ كان المرء يستطيع فيها أن يختلف حول ما إذا كان رأى العقل هو أيضًا صوت الجبن أم لا، ولا يكون بفكرته هذه بعيدًا عن الصواب. عندئذٍ لم يكن الأمر يتعلق بمجرد الأساليب، ولا بالأسلوب غير الشرعيِّ المتعلق بتحدي ميثاق الشرف أو الدفاع عنه، بل كان الأمر يتعلق بالتصنيف الصحيح والتقييم الصائب لاختيار بعينه من بين إجراءات عديدة. لقد تجسدت الحكمة في الإلياذة في المقاتل الطرواديِّ بوليداماس (Polydamas) وليس في نيستور، كما أن المواقف التي تبادل فيها بوليداماس الحديث مع هيكتور وضعت خطوطًا تؤكد صفات البطل. لقد نصح بوليداماس بتوخي الحذر: "لا تهاجم الآخيين حتى لا يغضب أخيلِّيوس ويعود إلى القتال ويدمرنا جميعًا." لقد كان هذا هو الطريق الحكيم إلى النجاح، ولم يكن هيكتور مستعدًّا للصبر على ذلك أبدًا، لأنه لم يكن الطريق إلى المجد. وكان بوليداماس محقًّا، بطبيعة الحال، فبفضل بطولة هيكتور غير الحكيمة وصلت القصيدة بسرعة إلى مرحلة الاستعداد الأخيرة، قبل المبارزة الوحيدة النهائية بين هيكتور وأخيلِّيوس. وقد قامت الفطنة بمحاولة أخيرة، وكانت هذه المرة بين أشخاص برياموس (Priamus) وهيكوبا (Hecuba) التي استعطفت ابنها حتى لا يقاتل أخيلِّيوس؛ لأن النتيجة كانت مؤكدة: سوف يموت هيكتور وسوف تُدَمَّرُ طروادة. وكان هيكتور يعرف أنهما مُحِقَّان في توقعاتهما، كما كان بوليداماس من قبل، وأقرَّ هو ذاته بذلك، ولكنه رفض في حديث طويل بينه وبين

نفسه طلبهما، وأكد أن دعوى الشرف أسمى مكانةً، قائلاً: "إننى أخجل من رجال طروادة ونسائها ذوات الأردية الطويلة الجرارة، أن يقول واحد أسوأ منى: لقد أهلك هيكتور الناس عندما وثق فى قوته الشخصية." ماذا لو فكرت فى الاستسلام وأعدتُ هيلينا، وكل ما لديها، ودفعت تعويضًا نصف ثروة طروادة؟ إن أخيلِّيوس "سوف يقتلنى وأنا أعزل، كما لو كنت امرأة."(٧)

لقد اختار هيكتور طريقًا مختلفًا عن ذلك، وهو أن يموت بشكل مشرف فى القتال، واختار نهاية مدينته وشعبه. وعندما حدث ذات مرة أن أشار بوليداماس إلى فأل سيىء بوصفه مبررًا للحذر، فإن هيكتور وضع مشورته جانبًا قائلاً: "إن أفضل نبوءة هى أن يقاتل المرء من أجل أرض آبائه."(٨) ولكن هذا الأسلوب فى معالجة الأمر بأكمله أعطى هذا الحديث طابع الكذب. فالحقيقة إن مثل هذا المفهوم عن الالتزام الاجتماعىّ يتصف، بشكل أساسىّ، بكونه غير بطولىّ. إنه يعكس وجود العنصر الجديد، المجتمع، عند النقطة التى يُسْمَح للمرء فيها أن يتغاضى عن أىّ شئ آخر، نقطة الدفاع عنه ضد الغزاة. وفى الأجيال التالية، عندما بدأ المجتمع يتحرك من جانبى المسرح اليونانى إلى مركز الاهتمام فيه، فإن البطل مات بسرعة، لأن مجد البطل كان ظاهرة فردية بحتة، وكان شيئًا يعيش ويحارب من أجله لأجل المجد ذاته، ولمجده هو الشخصىّ. (وكانت العلاقات الأسرية مسموحًا به، ولكنها كانت كذلك لأن أقارب المرء لا يختلفون عنه هو ذاته). أما مجد المجتمع فكان ذا خاصية مختلفة تمامًا، وكان يتطلب نظامًا آخر من المهارات والفضائل؛ وفى الحقيقة فإن المجتمع لم يستطع التطور إلا بعد أن كبح جماح البطل، وبعد أن حدَّ من ممارساته الحرة لنفوذه، وكان البطل المروَّض يمثل ظاهرة متناقضة الصفات.

---

(٧) Iliad 22.105-107, 124-25.

(٨) Iliad 22.243.

ولم يكن أخيلّيوس -أحد قادة الجيش الغازى- مقيدًا بالمتطلبات الخارجية للالتزام. لقد كان باستطاعة أيسخولوس (Aeschylus) فى أعقاب هوميروس بفترة طويلة أن يخترع مشهدًا يثور فيه الميرميديون ضد أخيلّيوس بسبب رفضه القتال. وهكذا فإن الكاتب الأثينىّ أضاف على الرواية فكرة الواجب، ولكنه لم يحدث أبدًا لمرة واحدة أن اتهم هوميروس أو أجاممنون أو أوديسّيوس أخيلّيوس بأىّ شىء يمثل مفارقة زمنية من قبيل المسئولية العامة بالقدر المشار إليه. لقد كان أخيلّيوس ملزمًا، طبقًا لقواعد الشرف، أن يُظهر شجاعته التى لا تقارن فى ميدان القتال. ولكن شرفه هذا أهين عندما أخذ منه أجاممنون الفتاة بريسيس، وبمجرد "أن يهان الشرف فإن الوجود الأخلاقىّ للخاسر ينهار."[٩] لقد أصبحت المشكلة على الفور لا يمكن تحملها: لقد كان داعى الشرف يجذب المرء فى اتجاهين متعارضين، وعلى الرغم من أن أحدهما كان باتجاه النصر فى الحرب الكبرى، وكان الآخر باتجاه موضوع بسيط، هو إحدى النساء الأسيرات من بين الآلاف منهنّ؛ فإن الصراع الكبير كان يتمثل بالتحديد فى حقيقة أن الشرف لم يكن يقاس مثل البضائع فى السوق، وكانت الإهانة تعادل فى ثقلها ثقل الحرب. لقد كانت بريسيس امرأة بسيطة، ولكن بريسيس التى تؤخذ من أخيلّيوس كانت تساوى "سبعة شمعدانات لم تستخدم من قبل، وعشرة تالينتات من الذهب، وعشرين سطلاً لامعًا،" بالإضافة إلى دستة من خيول السباق الحاصلة على جوائز وعشرين أسيرة طروادية وسبع مدن وغيرها من المتعلقات الأخرى العديدة.[١٠]

لقد بدأت المأساة الحقيقية فى الإلياذة عندما رفض أخيلّيوس قبول هذه الهدية، التى كانت ملائمة ومرضية تحت كافة الظروف الطبيعية، على سبيل التعويض. "تغنى، أيتها الإلهة، بغضب أخيلّيوس بن بيليوس." إن خطأ البطل لم يُذكر فى البداية، لقد أشير إليه عندما رفض هدية التعويض، لأن ذلك الأمر وضعه

---

(٩) Bruno Snell, The Discovery of the Mind, translated by T. G. Rosenmeyer, Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1953, p. 160.

(١٠) Iliad 9.121-56.

مؤقتًا خارج المشهد البطوليّ، وجعله يبدو بوصفه رجلاً ذا سلوك متطرف لا يمكن قبوله. لقد سأله أياكس بامتعاض شديد: "لماذا؟ إن الرجل يقبل دية حتى ممن قتل أخاه، أو دية ابنه القتيل، ويظل القاتل مقيمًا في بلده، بعد أن يكون قد دفع الكثير... أما أنت، فإن الآلهة وضعت في صدرك إحساسًا شريرًا ولا يمكن ترضيته، بسبب فتاة واحدة."[11] ولم يستطع هوميروس أن ينهي القصيدة بموت هيكتور على يد أخيلّيوس، لأن هذا الأمر كان سيتركنا مع أخيلّيوس في حالة غضب شديد، وليس مع أخيلّيوس البطل الذي عادت إليه مكانته. لقد كان ما يزال على أخيلّيوس أن يشفي غليله. وقد فعل ذلك بأن تخلى عن فكرة إلقاء جسد هيكتور للكلاب - التي كانت تمثل حالة تطرف جديدة نابعة من حزنه الشديد على وفاة باتروكلوس، وبأن أعاد الجسد إلى برياموس لكي يتلقى طقوس الدفن الملائمة. عندئذٍ أصبحت الساحة نظيفة. لقد ثأر أخيلّيوس لشرفه من كافة النواحي، وقد فعل ذلك بشكل مشرف، وبأكبر استعراض ممكن لقوته.

إن إحدى خصائص الشرف أنه يجب أن يكون خاصًّا ومميزًا، أو على الأقل طبقيًّا. فعندما يحصل الجميع على درجات متساوية من التشريف، عندئذٍ لا يكون هناك شرف لأيّ واحدٍ منهم. ولهذا فإن عالم أوديسيوس كان بالضرورة عالم منافسة شديدة، لأن كل بطل كان يحاول جاهدًا أن يتفوق على الآخرين. ولأن الأبطال كانوا محاربين، فإن التنافس كان أقوى ما يكون في تلك المواقف التي يحصل المرء فيها على أعلى درجات الشرف، في المبارزات الفردية في ميدان القتال. لقد كانت قيمة البطل النهائية، ومعنى حياته، يوضعان في الاختبار الأخير من ثلاثة جوانب: من يقاتل، وكيف يقاتل، وكيف أبلى في القتال. ولهذا -وكما عبر ثورشتاين فيبلين (Thorstein Veblen) عن الأمر- "هذا التقدير البدائيّ المتعارف عليه حول القيمة أو الشرف، فإن أخذ الحياة... أمر مشرف إلى أقصى حدّ. كما أن

---

(11) Iliad 9.632-38.

مهمة الذبح عظيمة الشأن، بوصفها تعبيرًا عن القدرة الفائقة لدى الذابح، تضفى بريقًا على القيمة الموجودة فى كل حادثة من حوادث القتل وعلى كافة الأدوات والمتعلقات المرتبطة بالحادثة."[١٢] وتمتلئ الإلياذة بشكل خاص بمشاهد الدماء، وهى حقيقة لا يمكننا إخفاؤها أو محاولة نفيها، كما أن محاولة المرء تطويع الأدلة فى محاولة لجعل القيم اليونانية المبكرة تتلاءم مع مجموعة من القيم الأخلاقية الأكثر رقة محاولة لا جدوى من ورائها. لقد كان الشاعر، وكان مستمعوه، ينصتّون بإقبال شديد على كلٍّ حادثة من حوادث الذبح: "وأسرع هيبّولوخوس (Hippolochus) مبتعدًا، وطرحه (أجامِمنون) هو أيضًا أرضًا، وقطع يديه بالسيف، وقطع رأسه، وجعله يتدحرج مثل حجر أسطوانىّ بين المتقاتلين."[١٣]

وبالنسبة لنيتشه (Nietzche) فإن التكرار المستمر لمثل هذه المشاهد، وكذلك شعبيتها فى كافة أرجاء العالم اليونانىّ لمدة قرون تالية، يثبتان أن "اليونانيين، أكثر الشعوب إنسانية فى العصور القديمة، كانوا يتمتعون بصفة القسوة، وبشهوة حيوانية إلى الفناء."[١٤] ولكن ما يجب التأكيد عليه فيما يتعلق بقسوة هوميروس هو الخاصية البطولية، وليس شخصيتها اليونانية المميزة. ففى نهاية المطاف، كيف يمكن للقوة الفائقة أن تتحدد إلا عن طريق مواقف متكررة تثبت فيها نجاحها؟ ويتمثل أحد المعايير التى لا يمكن الاعتراض عليها فى الغنيمة أو تذكار الانتصار. ففى الوقت الذى كانت فيه المعركة مستعرة، كان الشاعر وحده هو الذى يلاحظ ما قام به أجامِمنون من تحويل هيبولوخوس إلى حجر متدحرج. لقد كان الأبطال الآخرون مشغولين إلى حدٍّ كبيرٍ فى تحقيق المجد لأنفسهم. ولكن الغنيمة كانت

(١٢) The Theory of the Leisure Class, in The Portable Veblen, edited by Max Lerner, New York: The Viking Press, 1948, p. 69.

(١٣) Iliad 11.145-47.

(١٤) Homer's Contest, in The Portable Nietzsche, translated and edited by Walter Kaufmann, New York, The Viking Press, 1954, p. 32

الدليل الأخير، الذى يمكن عرضه فى كافة المناسبات الملائمة. وبين الجماعات الأكثر بدائية كانت رأس الضحية تستخدم بوصفها علامة الشرف؛ أما فى بلاد اليونان الهوميرية فإن السلاح حلّ محل الرأس. ولهذا السبب فإن الأبطال كانوا يتوقفون عن القتال مرة تلو الأخرى، معرضين أنفسهم لمخاطر شخصية كبيرة، لكى يسلبوا المقاتل الصريع سلاحه. وطبقًا لقواعد القتال فى حدّ ذاتها، فإن مثل هذا العمل لم يكن فقط أمرًا سخيفًا، بل يكاد يدل أيضًا على الخيانة، لأنه كان يعرض للخطر مصير الحملة بأكملها. ومع ذلك فمن الخطأ فى التقدير أن نرى فى المعركة الغاية والهدف، لأن النصر بدون شرف كان أمرًا لا يمكن قبوله؛ ولا يمكن أن يوجد شرف بدون اعتراف عام، ولا يمكن أن توجد علانية بدون دليل الغنيمة.

وقد عاد هذا النمط الذى يجمع بين الشرف والقتال والغنيمة إلى الظهور فى كافة مجالات التعامل بأشكال مختلفة. ولم يكن باستطاعة أخيلّيوس أن يجد وسيلة للحزن على صديقه المتوفى أكثر ملاءمة من إقامة مباراة تنافسية يمكن أن يُظهر فيها النبلاء الآخيون براعتهم الفائقة. وفى اللحظة التى وصل فيها ديوميديس بعربته إلى نهاية الخط، فإن أول شىء فعله هو أن قفز إلى الأرض "ولم يُضع وقتًا؛... وأخذ الجائزة بشغف، وأعطى رفقاءه الشجعان المرأة لكى يذهبوا بها، والشمعدان ذا الأيدى لكى يحملوه معهم؛ بعد ذلك حلّ لجام الخيول."[١٥] هذا السرور اللا واعى بالجوائز، الذى ظهر أمام الجمع المتأثر، لم يكن يرتبط كثيرًا بقيمة الجوائز الذاتية. لقد كان لدى ديوميديس -مثل أخيلّيوس- إماءٌ وشمعدانات كافية فى خيمته. لقد كانت قوته الدافعة استجابة عاطفية وصريحة وغير خجولة، وكانت منتصرة فى مجال الشرف، ويتضح ذلك من كونه لم يتوقف حتى لكى ينظر إلى خيوله. ربما تسنى لنا أن نسمى ما حدث حركة صبيانية، ولكنه كان بالنسبة لديوميديس فخرًا برجولته.

---

(١٥) Iliad 23.510-13.

وكان مقدرًا للتنافس أن يلعب دورًا مهمًا فى حياة اليونانيين العامة فى القرون التالية. ولا شيء يحدد نوعية الثقافة اليونانية بشكل دقيق أكثر من الوسيلة التى اتسعت بها فكرة التنافس من مجال التميز فى النشاط البدنىّ إلى مجال الفكر، وإلى ميدان الشعر والنَظْم المسرحىّ. ولم يكن عالم أوديسيُوس مستعدًّا بطبيعة الحال لهذه الخطوة. كذلك فإنه لم يكن مستعدًّا لأن يُضفى طابعًا اجتماعيًّا على المباريات، كما يقولون. لقد كان ديوميديس يسعى إلى النصر فى سباق العربات وفى ساحة المعركة لنفسه فقط، ولأجل رفع اسمه عاليًا، وبشكل ما لأجل مكانة عشيرته ورفقائه. بعد ذلك –عندما ساد مبدأ المجتمع– شاركت دولة المدينة (polis) فى المجد. وبدورها نظمت أغانى الفوز وأقامت أيضًا تماثيل عامة لكى تخلد الفوز الذى حققته المدينة من خلال أحد أبنائها الرياضيين. وعندما حلّ الفخر المدنى محل الأنانية الخالصة تقريبًا والموجودة فى انتصارات الأبطال، حدث عندئذٍ تغيير لم يكن العالم الهوميرىُ مستعدًّا له. لقد حلّ إكليل الغار محل الذهب والنحاس والإماء، بوصفه جائزة للفائز.

إن الرموز الدالة على المكانة الاجتماعية لها تاريخ يلفت النظر بغرابته. ففى العديد من المجتمعات البدائية يمكن أن تكون هذه الرموز أشياء بسيطة القيمة الذاتية، أو بدون قيمة على الإطلاق، من قبيل المحارات أو الأصداف أو الملاءات البسيطة. ولم يكنْ عالم أوديسيُوس عالمًا بدائيًّا، مثلما أن دوائر اليونانيين العليا كانت تُصِرُّ فى ذلك الوقت على الثروة. لقد كان هدفهم هو المجد، وكانت علامات المجد دائمًا تقليدية، ولكنها لم تكن تَمُتُّ بأية صلة للعلامات التقليدية من قبيل المحارات والأصداف. لقد كانت الأسيرة الجميلة صغيرة السن تشكل جائزة مشرفة بدرجة أكبر مما تمثله المرأة العجوز، وكان هذا كل ما فى الأمر. بعد ذلك وفى مرحلة متقدمة، عاد اليونانيون إلى مرحلة الأصداف، ولكنهم اختاروا أكاليل الغار بدلاً منها. هذا الوضع كان يستحيل فهمه بالنسبة لأوديسيُوس وبالنسبة لزملائه من

النبلاء. وحدث ذلك على الرغم من أن استخدام المقتنيات كان فقط للعرض، وكان يتعلق فقط بالمكانة الاجتماعية المرتبطة بها. وكانت قيمتها الذاتية فقط هي التي تحدد القيمة الملائمة المصاحبة لها.

وكان إعطاء الهدايا يشكل جزءًا من شبكة النشاط الشرفيّ التنافسيّ، ويتضح ذلك من هذين الاتجاهين: لقد كان أمرًا مشرفًا أن يعطى المرء الهدايا وأن يتلقاها. وكان أحد معايير قيمة المرء الحقيقية يتمثل فى مقدار ما يعطيه من المقتنيات. لقد كان الأبطال يفخرون بالهدايا التى يتلقونها، وبالهدايا التى يعطونها، بوصفها دليلاً على مكانتهم. ولهذا السبب كانت الأشياء المهداة ذات نَسَبٍ خاصٍ بها. وعندما اعتذر تليماخوس عن قبول الخيول التى عرضها عليه مينيلاوس، ردَّ الملك الإسبرطيُّ بالاقتراح التالى: "من بين الهدايا ذات القيمة العالية الموجودة فى بيتى سوف أعطيك أفضلها وأكثرها قيمة. لسوف أعطيك إناءً مصنوعًا بمهارة، وهو من الفضة الخالصة المطعمة بالذهب على حافته، ومن صنع هيفايستوس (Hephaestus)."[١٦] لقد كانت الهدية ذات التاريخ المشابه تضفى بوضوح قدرًا من المجد على مَنْ يُعطى الهدية، وعلى من يتلقاها، أكبر مما يُضفيه أى إناءٍ فضيٍ آخر، تمامًا مثلما أن أسلحة هيكتور كانت -بالنسبة لمن انتصر عليه- جائزةً أعظم بكثير من أسلحة أى شخص آخر من الطرواديين الأقل شأنًا. لقد كانت المكانة الاجتماعية هى العامل الأساسيّ المحدد للقيم؛ وكانت المكانة الاجتماعية تنتقل من الشخص إلى مقتنياته، وتضفى قيمة أكبر على قيمتها الذاتية بوصفها مجرد مشغولات ذهبية أو فضية أو ملابس منسوجة جيدًا.

لقد كانت صفة التشريف هذه هى التى تميز ثروات الأبطال، وتميز غريزتهم الطاغية إلى امتلاك المزيد، عن الدوافع المادية للطبقات الأخرى والعصور الأخرى. وكانت الثروة تعنى القوة والقناعة المادية المباشرة بالنسبة

---

(١٦) Odyssey 4.613-18; repeated 15.113-18.

لأوديسيوس ولزملائه النبلاء، على وجه التأكيد، ولم تكن هذه المعادلة غائبة أبدًا عن حساباتهم. فعندما استيقظ أوديسيوس فى إيثاكه -حيث أنزله الفاياكيون وهو نائم- لم يتعرف على الجزيرة لأن أثينا غطتها بالضباب. وكان أول انطباع لديه هو الغضب من ألكينوس ورجاله لخرقهم العهد والذهاب به إلى مكان غريب. وفى اللحظة نفسها تقريبًا بدأ يقلق بشأن الهدايا التى أعطوها له، حتى لا يسرقها أحد منه. عندئذٍ ظهرت أثينا وأعادته بسرعة إلى رشده، وساعدته بشخصها على إخفاء الهدايا فى كهف. وبعد ذلك وفى أول لقاء له مع بينيلوبى، تعمد أوديسيوس وهو متنكر أن يضللها بحكاية طويلة تنتهى بقصة مؤداها أنه قابل منذ وقت قريب البطل الذى طالت غيبته فى ثيسوبروتيا (Thesoprotia)، التى أحضر منها "الكثير من الهدايا القيمة التى جال البلاد شمالاً وجنوبًا متسولاً إياها." إنه سيعود سريعًا، "ولكن بدا له أن من الأفضل أن يجمع الكثير من الأشياء وهو يجول عبر الأرض."[١٧]

لقد كانت الحكاية غير صحيحة، ولكنها كما قال الشاعر كانت "تشبه الحقيقة."[١٨] وقد استخدم أوديسيوس فى واقع الأمر كلمة "يتسول" (aitizo) وهى الكلمة ذاتها التى استخدمها يومايوس عندما نصح سيده المتنكر أن يذهب إلى البلدة، ويتسول الطعام. ولكن كان ما يعنيه أوديسيوس وما يعنيه يومايوس أمرين مختلفين تمامًا. لقد كان الملك "يتسول" الهدايا القيمة بوصفها من المتطلبات المعتادة فى رحلاته، وفى مجال علاقاته الخارجية، مع العشائر وأصدقاء الضيافة القدماء والمحدثين، بوصفها وسيلة لإضافة علاقات جديدة إلى سلسلة الهدايا والهدايا المقابلة التى لا نهاية لها. وعندما طلب منه الملك ألكينوس أن يمكث معهم الليلة حتى يستطيعوا جمع هدايا السفر الملائمة، ردّ أوديسيوس بأنه سوف ينتظر عامًا لو اقتضى الأمر، "لأنه سيكون من الأفضل أن أعود إلى بلادى العزيزة وأنا ممتلئ

(١٧) Odyssey 19.272-84.
(١٨) Odyssey 19.203.

اليدين، فهكذا سوف يعظموننى ويحبوننى بدرجة أكبر، بين الناس الذين سوف يروننى بعد عودتى إلى إيثاكه."[١٩] لقد قال هذه الكلمات فى نفس البلاط الذى استنكر فيه هو ذاته بشدة أن يكون أحد التجار الذين يبحثون عن "الربح الشره."

وكانت توجد هنالك فواصل رقيقة بين الامتلاك المُشَرِّف وبين التربح الشره. وكان يجرى فى الأبطال باستمرار عِرْقٌ من عروق المزارع، وفى هذا العرق كان يجرى أيضًا حب المزارع للممتلكات، واكتنازٌ محسوب يقترب أحيانًا من التقتير، ونوعٌ من الحساب والتقدير. ولكن الأبطال كانوا أكثر من مزارعين، وكان باستطاعتهم أن يعطوا بفخر قدر ما يأخذون وهم يفتخرون، وكانوا يستطيعون أن يضعوا الشرف فوق كافة الأشياء المادية. لقد كان أخيلِّيوس نفسه هو الذى تحدث إلى أجاممنون، قائلاً: "إننى لم آت إلى هنا بسبب المحاربين الطرواديين؛ إننى أتيت هنا لكى أحارب. إنهم لم يرتكبوا أية إهانة ضدى: إنهم لم يسرقوا ماشيتى ولا خيولى."[٢٠] وكان ذاته هو الذى استطاع أن يرفض باحتقار شديد هدايا أجاممنون التعويضية على الرغم من كونها رائعة: "لأن الماشية والأغنام الجيدة يمكن أن تُسْرَق، والشمعدانات والخيول الكستنائية يمكن أن تُكتنز."[٢١] لقد كان تدوير المقتنيات جزءًا أساسيًا من الحياة البطولية، تمامًا مثل اقتنائها، وكانت هذه الحركة، وحقيقة وجودها، والأفلاك التى تدور فيها، هى التى ابتعدت بهذه الحياة عن أية حياة أخرى للمقتنيات.

إن ما يجعلنا نحتار فى بعض الأحيان هو حقيقة إن عالم الأبطال لم يستطع أن يشهد أية إنجازات أو علاقات بعيدًا عن المصطلحات المادية. لقد كانت الآلهة فى صورة البشر، وكانت العواطف والأحاسيس موضوعة فى أعضاء بعينها فى

---

(١٩) Odyssey 11.338-61.

(٢٠) Iliad 1.152-54.

(٢١) Iliad 9.406-407.

الجسد، وكانت الروح شيئًا ماديًا. وكانت كل خاصية أو حالة تترجم بالضرورة إلى رمز محدد من نوع ما؛ فالشرف يترجم إلى غنيمة، والصداقة إلى مقتنيات، والزواج إلى هدايا من الماشية. وفي الصراع العنيف مع أجاممنون، وصل أخيلِّيوس من الغضب حدًّا أنه استل سيفه، ولكن أثينا ظهرت على الفور إلى جواره، وإن لم يرها أحدٌ غيره، وأوقفته بأمر، من الطريف أنه ورد في صيغة الطلب، وأنهته بهذه الكلمات: "لأنني أقول ذلك وسوف يحدث ذلك الأمر، فمن الآن فصاعدًا ستأتيك هدايا رائعة أضعافًا مضاعفة، بسبب وقاحته [أي: أجاممنون]، ولكن تمالك نفسك، وأنصت إلينا."[٢٢] لقد كانت لغة الطلب هذه هي اللغة الوحيدة المفهومة، وبالهدايا كانت الإلهة تعني الأشياء المادية، وليست مباركات روحية من نوع ما.

ولأن التعبيرات المادية عن الشرف والصداقة كانت دائمًا أدوات ذات قيمة واضحة وليست أصدافًا ومحارات، فإن عنصر المكانة المتميزة كان يختفي تحت أكوام المقتنيات. وفي الحقيقة فإن كلا الأمرين كان له تقديره إلى حدٍّ كبير؛ الثروة بوصفها ثروة من ناحية، والثروة بوصفها رمزًا من ناحية أخرى. ولهذا السبب كان الأخذ والعطاء أعمالاً طقسية، الأمر الذي كان يضفي عليها لمسة إضافية لا ضرورة لها على الإطلاق لو كانت المقتنيات كافية في حدِّ ذاتها. لقد رتّب ألكينوس بنفسه هدايا الفاياكيين على متن سفينة أوديسِّيوس، كما يوقع الآن رئيس الدولة بنفسه على معاهدة أمام حشد من المسئولين الكبار. وكانت هدايا الصداقة والضيافة تشكل -من حيث معناها الرمزي- الخطوات القديمة التي تطورت عنها العقود والاتفاقيات. وفي عالم لا يعرف الكتابة، أين يوجد دليل قوي آخر على أنه قد أقيمت علاقة جديدة ذات التزامات ومسئوليات؟ ولم يحدث في مرحلة ما أن قويت العلاقة بين عملية الطقوس ومراعاة المتطلبات المادية بدرجة أكبر مما كان يحدث

---

(٢٢) Iliad 1.212-14.

فى الولائم التى لا نهاية لها. "لأننى أقول إنه لا يوجد شىء أرقّ من أن يلقى المرء ترحيبًا بين كافة السكان، وعندما يجلس المشاركون من كافة البيوت فى الاحتفال فى نظام، وهم يستمعون إلى المُغنّى والموائد أمامهم ممتلئة بالخبز واللحم، وحامل الأكواب يأخذ الخمر من الجرة التى يخلطها فيها ويقدمها، ويصبها فى الكئوس."[٢٣] لقد كان أوديسيوس قلقًا ومرهقًا. فبعد عشرة أعوام من الحرب وعشرة أعوام أخرى من المغامرات المرهقة التى لا يصدقها عقل، وصل إلى أرض الأحلام عند الفاياكيين، وكان عقله يطير به إلى بيته الخاص، وإلى نهاية تجواله التى يدنو منها. لقد بدأ عندئذٍ فى الاسترخاء، وألقى حديثه القصير اللطيف.

ولكن الاحتفال الهوميرىّ كان يشتمل على ما هو أكثر من الترحيب الشديد والاسترخاء (Gemütlichkeit). لقد قال أجاممنون: "إيدومينيوس، إننى أبجلك أكثر من كل الدانائيين أصحاب الخيول السريعة، سواءً فى الحرب أو فى أىّ عمل آخر أو فى الوليمة، عندما يخلط النبلاء، أهالى أرجوس، الخمر المتلألئة والمعتقة فى الإناء."[٢٤] هذا التسلسل الطبقى للأنشطة الأرستقراطية، الذى يضع الولائم فى صف مع المعركة وغيرها من الأعمال كان ترتيبًا دقيقًا، لأن الولائم كانت هى التى تشغل الأبطال عندما لا يكونون مشغولين بشكل مباشر فى أمور الغزو، وكانت الولائم بطولية ليس فقط فى ضخامتها، بل أيضًا فيما يرتبط بها من أخلاقيات. لقد كان موضع اللوم بالنسبة لراغبى الزواج من بينيلوبى –على سبيل المثال– ليس أنهم يعيشون فى فراغ تام مستمتعين بولائمهم اليومية فى صالات بيت أوديسيوس. لقد كان هذا سلوكًا أرستقراطيًا ملائمًا، ولكنه لم يكن من الملائم أبدًا أن يستمر الاحتفال على نفقة شخص واحد، وبخاصة لأن هذا الأمر كان يحدث فى غيابه. إن التعبير الذى استخدمه أوديسيوس فى فاياكيا والذى يعنى به "المساهمون

(٢٣) Odyssey 9.5-10.

(٢٤) Iliad 4.257-60.

فى الاحتفال" هو كلمة واحدة باللغة اليونانية، وكان يعنى به أولئك الذين يساهمون فى النفقات، وفى الاستمتاع أيضًا. لقد قال تليماخوس للخاطبين بكل جدية: "اخرجوا من قصرى،" ولم يكن فى كلامه أىّ نوع من السخرية، وأضاف: "وأقيموا ولائمكم فى مكان آخر، كلوا من مواردكم أنتم، وأنتم تتنقلون من بيت إلى آخر."(٢٥)

ومثلما أنه لا توجد أية مناسبة احتفالية بدون هدايا قيمة، كذلك لا يمكن أن تكون هناك هدية بدون احتفال. لقد انتهت الإلياذة بحداد الطرواديين على هيكتور. ولمدة تسعة أيام استمر الحداد، وفى اليوم العاشر حرقوا الجثمان، ووضعوا العظام فى إناء ذهبى، ودفنوه فى وجود الجيش الطروادى بأكمله. "وبعد أن أهالوا عليه تل التراب عادوا إلى ديارهم، وبعد ذلك اجتمعوا جميعًا وأقاموا وليمة كبيرة فى احتفال كبير فى بيت الملك برياموس الذى يرعاه زيوس. وهكذا قاموا بالطقوس الجنائزية لهيكتور، مروض الخيول."(٢٦) هناك أيضًا مثال آخر فى نصيحة نستور لأجاممنون: "أقم وليمة للأكابر، إنه أمر يليق بك وليس بالأمر السيئ."(٢٧) وفى مثل تلك المناسبات –بطبيعة الحال– لم تكن هناك مساهمات فى النفقات: لقد أقام برياموس الوليمة التى أنهت الطقوس الجنائزية، وأولم أجاممنون لمجلس شيوخه قبل أن يتشاوروا.

إن دلالة هذا الطعام الطقسىّ المشترك تصبح أوضح ما تكون فى سياق آخر. فبدون استثناء، عندما كان يصل أحد الزائرين، سواءً أكان قريبًا أم صديق ضيافة، وسواءً أكان مبعوثًا أم غريبًا، فإن أولى المهام كانت تتمثل فى المشاركة فى الطعام. وكانت هذه قاعدة على كافة المستويات ويمكننا ملاحظتها عندما أتى أوديسيوس وأياكس وفوينيكس إلى أخيليوس بعرض الهدية الذى قدمه أجاممنون

---

(٢٥) Odyssey 1.374-75; repeated 2.139-40.

(٢٦) Iliad 24.801-804.

(٢٧) Iliad 9.70.

للمصالحة، وعندما ظهر الشحاذ المتنكر حتى تلك اللحظة عند كوخ يومايوس العبد وراعي الخنازير. لقد كان من الملائم للمضيف أن يسأل عن هوية ضيفه أو عن مسألته فقط بعد تناول الطعام. لقد قال يومايوس: "ولكن، هيا بنا. دعنا ندخل الكوخ أيها الشيخ، حتى تخبرني بعد أن تشبع من الطعام والخمر بما تطيب به نفسك، من أين أتيت، وما هي المتاعب العديدة التي عانيت منها."[٢٨]

لقد كان هذا طقسًا لا يمكن رفضه، ويشبه الطقوس المقدسة المعروفة في المجتمعات البدائية. ولذلك كانت الوليمة لا يشترك فيها المضيف والضيف وأتباعهما فقط، بل أيضًا الآلهة. "وبعد ذلك وقف راعي الخنازير، وقَطع اللحم. . . . وقسم الكل إلى سبعة أقسام، ووضع الجزء الأول للحوريات ولهيرميس (Hermes) بن مايا (Maia) بعد أن دعا، ووزع الأجزاء الأخرى على كل الموجودين، وأعدّ قربانًا مشويًا للآلهة الخالدين أبدًا."[٢٩] إن وصف الأضحيات يتفاوت، وتتفاوت أيضًا أسماء الآلهة المشاركة في الوليمة، ولكن الفكرة الأساسية كانت دائمًا هي ذاتها. فعن طريق المشاركة في الطعام، ويجب ملاحظة أن المشاركة هنا بكميات كبيرة وليس مجرد المشاركة الرمزية، تتأسس الرابطة، أو تتجدد، بأسلوب طقسيّ، رابطة بين البشر والآلهة، بين الأحياء والموتى، في عالم منظم من الوجود. ويبدو الحال كما لو أن التكرار المستمر للولائم كان بشكل ما ضروريًا لأجل الحفاظ على الجماعة، سواءً أكانت هذه الجماعة على مستوى البيت (oikos) أو على مستوى أعلى يشمل الطبقة، مثلما أنه كان ضروريًا أيضًا لتأسيس علاقات سلمية عبر الفواصل والحدود، مع الغرباء وأصدقاء الضيافة.

وعلى العكس من ذلك، فإن الاستبعاد من الوليمة كان سمة تميز الذين لفظهم المجتمع. فعندما عرفت أندروماخي (Andromache) بموت هيكتور فإنها في

---

(٢٨) Odyssey 14.45-47.

(٢٩) Odyssey 14.432-46.

غمرة حزنها الشديد ندبت ما يدخره القدر للغلام أستواناكس (Astyanax): "وهو فى حاجته، يدور الغلام على رفقاء والده، يجذب أحدهم من عباءته، وآخر من قميصه، ويعطيه أولئك الذين يشفقون عليه رشفة، يرطب بها شفتيه، ولكن حلقه لا ينال منها شيئًا. كما أن طفلاً آخر غير يتيم يدفعه بعيدًا عن الوليمة موجهًا إليه اللكمات، وهو يوجه إليه اللوم: "ابتعد، أنت. إن أباك لا يساهم معنا فى الوليمة."(٣٠)

ولم يكن باستطاعة أندروماخى أن تحمى طفلها، ولا حتى فى خيالها، لأنه لم يكن هناك مكان للنساء فى الولائم. فلم يكن ذلك العالم عالمًا فقط للرجال، بل كان أيضًا عالمًا لا تَخفَى فيه، ولا تعرض بصورة مثالية، المكانة المتدنية للمرأة التى لا تعرف الفروسية أو الصلات العاطفية. لقد تساءل أخيلِّيوس، طبقًا للترجمة المعتادة، سؤالاً هذا نصه: "هل هم عندئذٍ وحدهم من بين البشر الفانين يحبون زوجاتهم، أبناء أتريوس هؤلاء؟"(٣١) إن اللغة اليونانية مع ذلك لا تتحدث عن "زوجات"، بل عن "رفيقات الفراش". لقد كان أخيلِّيوس يتحدث عن النساء اللائى "فاز بهنّ برمحه." وقبل ذلك تحدث أجاممنون عن خروسيس (Chryseis)، بنت الكاهن الأسيرة، قائلاً: "نعم، إننى أفضلها عن كليتايمنيسترا، رفيقة فراشى المرتبطة بى."(٣٢) وفى الحقيقة لم توجد من عصر هوميروس إلى نهاية الأدب اليونانىّ أية كلمات معتادة ذات دلالات محددة تعنى "زوج" و "زوجة". لقد كان الرجل رجلاً، أبًا، محاربًا، نبيلاً، رئيسًا، ملكًا، بطلاً؛ ومن الناحية اللغوية فإنه تقريبًا لم يكن أبدًا زوجًا.

وبعد ذلك تأتى كلمة "أن يحب". هذه هى الطريقة التى نترجم بها فعل (philein)، ولكن المشكلة تظل قائمة فيما يتعلق بنوعية العواطف، وبالدلالات المرتبطة فى حقيقة الأمر بالفعل اليونانىّ. لقد كانت الكلمة تستخدم فى كل سياق

---

(٣٠) Iliad 22.492-98.

(٣١) A. T. Murray, in the Loeb Classical Library (Iliad 9.340-341); Lang, Leaf, and Myers reads: "Do then the sons of Atreus alone of mortal men love their wives?"

(٣٢) Iliad 1.113-14.

يشير إلى علاقات إيجابية بين الناس: فعندما زار أوديسيوس أيولوس (Aeolus)، المختص بالرياح، قال: "إنه استضافنى بكرم شهرا كاملاً؛"[٣٣] وكانت الكلمة التى استخدمها للإشارة إلى المعاملة الكريمة هى كلمة (philein). ولكن فى الإشارات العديدة إلى حزن أوديسيوس وشوقه إلى بيته، فى المقابل، أين هى الفقرة التى تظهر فيها مشاعر وعواطف مشابهة لما يسميه العالم الحديث "الحب"؟ لقد تم حذف بينيلوبى فى غالبية الأحيان من صورة البيت، لأن الصيغة التقليدية كانت تلك التى قدمتها ناوسيكا (Nausicaa) عندما قالت: "فعندئذ سيكون هناك أمل فى أن ترى أصدقاءك، وفى أن تعود إلى بيتك بخير لتقيم فيه، وإلى بلادك."[٣٤]

لقد كان أوديسيوس شغوفا ببينيلوبى، بدون شك، وكان يجدها كذلك من الناحية الجنسية. وكانت جزءًا مما يعنيه بقوله "البيت،" لقد كانت أم ابنه العزيز وربة بيته (oikos). وكان الزواج من امرأة واحدة هو القاعدة المطلقة: ولم يكن هناك رجل أعزب بشكل مؤكد فى القصائد، ولم تكن هنالك عوانس، والإشارة الوحيدة إلى الطلاق هى الإشارة المشكوك فيها نوعًا ما المتضمنة تهديد هيفايستوس بإعادة زوجته الخائنة، أفروديتى، إلى والدها، وهو تهديد لم يُنَفَّذ.[٣٥] ومع ذلك فإنه لا ينبغى أن نُسِيء فهم دلالة الزواج من امرأة واحدة. إنه لم يفرض على الرجل أن يقيم علاقة جنسية مع امرأة واحدة، كما أنه لم يجعل الأسرة الصغيرة فى مركز حياة الرجل العاطفية. ولم تشتمل اللغة على كلمة واحدة تشير إلى الأسرة الصغيرة على الإطلاق، بالمعنى الذى يتيح للمرء أن يقول: "إننى أريد أن أعود لكى أعيش مع أسرتى."

---

(٣٣) Odyssey 10.14.

(٣٤) Odyssey 6.314-15; repeated by Athena, 7.76-77, and used earlier by Zeus, 5.41-42, and by Hermes, 5.114-15.

(٣٥) Odyssey 8.317-20.

ولم يحدث أبدًا فى العلاقة بين أوديسّيوس وبين بينيلوبى، ولا فى أية علاقة أخرى بين رجل ورفيقته فى القصائد الهوميرية، أن وجد العمق والحدة، أو نوع الإحساس – فيما يتعلق بجانب الرجل – الذى يميز الرابطة بين الأب وابنه من ناحية، وبين ذكر ورفيق له من ناحية أخرى. إن القصائد تعج بأمثلة من هذا القبيل: "كما يُحيِّي والد ابنه العزيز بعد عودته من أرض بعيدة بعد عشرة أعوام من الغياب؛"[٣٦] ولكن لا توجد أية استعارات مستمدة من فرحة زوج بزوجته. وفى الحبكة الدرامية ذاتها لا يحتاج المرء سوى أن يتذكر الدور المهم لحب أخيلّيوس لباتروكلوس؛ وكذلك حزن أخيلّيوس لوفاة رفيقه.

إن هناك جدلاً قديما ما يزال يتجدد دون حل، بشأن كون الشهوة الجسدية تشكل جزءًا من العلاقة بين أخيلّيوس وباتروكلوس. إن نص القصائد لا يقدم أى دليل بديل بشكل مباشر فى أى مرحلة من مراحل القصيدة، وحتى الفقرتان اللتان تشيران إلى صعود جانيميديس (Ganymede) إلى أوليمبوس (Olympus) تتحدثان فقط عن كونه أصبح حامل الكأس لزيوس. لقد كان إتيان الأطفال أمرًا مقبولاً بشكل واسع فى العالم اليونانىّ منذ مرحلة مبكرة للغاية فى التاريخ، وظل يشكل جزءًا لا يتجزأ من الثقافة اليونانية لعدة قرون، كما تشهد بذلك بفصاحة الأعمال الأدبية من ثيوجنيس (Theognis) إلى أفلاطون. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأمر لم يكن يتعلق بالميل إلى الجنس المماثل بمعنى توجيه الشهوة والنشاط الجنسيين بشكل يقتصر على أعضاء الجنس الذى ينتمى إليه المرء، بل بإشباعهما وممارستهما بشكل كامل مع الجنسين. ولذلك فإن التقاليد اليونانية والأخلاق اليونانية لم تر أية غرابة ولم تستبعد إمكانية فى وجود علاقتين جنسيتين بين الأبطال وبين براعتهم المتبجحة والجنس الآخر. وإذا كنا بحاجة إلى دليل تاريخىّ يكفينا هنا أن نشير إلى طبقة المحاربين الأرستقراطية فى إسبرطة وطيبة. وهكذا فإن بعض الباحثين، فى

---

(٣٦) Odyssey 16.17-18.

محاولة منهم لتفسير الحدَّة الواضحة لمشاعر أخيلِّيوس ولجعل عالم أوديسِّيوس يتلاءم مع الخط العام للحضارة الهللينية، قالوا بأننا نواجه فى هذه الحالة مثالاً آخر لظاهرة "التطهير" فى القصائد، وأن "هوميروس أخرج هذا الموضوع بكامل حذافيره من مفهومه عن الحياة."(٣٧)

وكيفما كان الحال، فإنه لا وجه للخطأ فى حقيقة أن هوميروس يكشف بشكل كامل ما ظلّ بالنسبة للعصور القديمة بأكملها حقيقةً مؤداها أن النساء كنّ من حيث الطبيعة فى درجة أدنى، ولذلك فإن دورهنّ كان يقتصر على إنجاب الذرية وعلى أداء الواجبات المنزلية، بينما كان الرجال يبحثون عن العلاقات الاجتماعية المهمة والروابط الشخصية القوية بين نظرائهم. وباستطاعتنا مطالعة الشرح المفسر فى الكتاب الثامن من مؤلف أرسطو "أخلاق نيقوماخوس" (Nicomachean Ethics) لمفهوم كلمة (philia)، التى نترجمها بالكلمة الشاحبة "الصداقة". ويقول أرسطو، حيث توجد (philia) من نوع أقل درجة بين أطراف غير متكافئين، كما بين الرجل والمرأة، "فإن كلاً منهما يختلف فى فضائله ودوره، فى أسس الصداقة، ولهذا فإنهما يختلفان فى تأثرهما وصداقتهما." وطبقًا لذلك، فإن العاطفة يجب أن تكون بدرجة متساوية مع القيمة النسبية لكل منهما: "فالأفضل من الاثنين –على سبيل المثال– يجب أن يتلقى عاطفة أكبر مما يعطى."(٣٨) إن هذا هو عين ما نقابله فى هوميروس. فبينما كان أوديسِّيوس غائبًا كانت الخسارة بالنسبة لبينيلوبى، من الناحية العاطفية والنفسية ومن ناحية المشاعر، أكبر بدرجة لا تقارن مع الخسارة بالنسبة لزوجها. وكان حزن أخيلِّيوس على صاحبه كبيرًا ولا يدانيه سوى حزن هيكوبا وأندروماخى على هيكتور، الذى كان ابنًا لواحدة وزوجًا للأخرى.

---

(٣٧) Gilbert Murray, The Rise of the Greek Epic (3d ed., Oxford: the Clarendon Press, 1924), p. 125.

(٣٨) Nicomachean Ethics 8.7.1-2.

وعلينا هنا أن نتوخى بعض الحذر. إن ما نقابله هنا هو تصوير للجنس الآخر مرسوم بمهارة -وقد شكل الشاعر الغنائيّ- الذى يشترك تمامًا فى مفهوم المكانة الطبيعية المتدنية للنساء- أحاسيسهنّ تجاه رجالهنّ ومن يعلونهنّ مرتبة. وهكذا فإن الصورة الناجمة تتصف بالتعقيد، ومن بعض النواحى فإنها صورة غامضة. إن الشخصيتين الوحيدتين اللتين لم تتم دراستهما بالكامل هما شخصيتان نسائيتيان: أريتى (Arete)، ملكة الفاياكيين بما تتصف به من نفوذٍ وقوةِ سلطةٍ غريبة ولا نسائية، وهيلينا (Helena)، التى كانت شخصية فريدة من نوعها. لقد كانت هيلينا ابنة زيوسٍ وليدا (Leda) ومحببة إلى أفروديتى، وبفضل هدية هذه الإلهة نجحت هيلينا فى جعل اليونانيين والطرواديين يدخلون فى صراع هائل كلف كلاً من الجانبين الكثير. ولم تكن هيلينا ضحية بريئة فى تلك الأحداث بكاملها، مثلما أنها لم تكن أسيرة رغمًا عن إرادتها لباريس الإسكندر، بل كانت خائنة بالمعنى الكامل للكلمة. وبالنسبة لباريس لم يكن هناك أىُّ تكفير. لقد دعا مينيلاوس: "إلهى زيوس، هبنى أن أثأر منه، ذلك الذى أساء أولاً إلىّ، الإسكندر الشهير، وأن أخضعه بيدىَّ، حتى يحجم أىّ رجل يولد فيما بعد عن الإساءة إلى مضيفه الذى أظهر له الصداقة."[٣٩] ولكن هيلينا لم تتلق أية عقوبة؛ بل ولم تتلق أىّ لوم. لقد أنهت حياتها فى إسبرطة وهى تُعدّ العقاقير السحرية الآتية من مصر، وهى تفسر النُذر والبشارات، وهى تشترك فى حياة القصر تمامًا كما تفعل أريتى، وليس كما تفعل أية امرأة يونانية عادية.

وحتى بينيلوبى فإنها لم تكن أيضًا بعيدة عن الشكوك وعن عنصر الغموض. فعندما أمرت أثينا تليماخوس أن يعود على الفور من زيارته إلى مينيلاوس حتى لا توافق بينيلوبى على أحد الخاطبين، لأنها بدأت تضعف تحت ضغط والدها وإخوتها، وحتى لا تجرد القصر مما فيه من كنوز ومقتنيات، فإن الإلهة أنهت

(٣٩) Iliad 3.351-54.

حديثها بتعميم شامل: "لأنك تعرف قوة العاطفة في صدر المرأة، وأنها تتمنى أن تُثرى منزل الرجل الذى يتزوجها، أما بالنسبة لأطفالها السابقين ولزوجها العزيز فإنها لا تتذكره بمجرد وفاته، ولا تسأل عنه."(٤٠)

لقد كان هذا الأسلوب في حقيقة الأمر أسلوبًا غريبًا، مثلما أنه أتى من مصدر يستلفت الانتباه. لقد كانت الآلهة الذكور على جبل أوليمبوس يعلون الآلهات مرتبة، وإذا ما نظرنا إليهم مجتمعين، فإنهم كانوا يفوقونهنّ في قوتهم، وكذلك في جاذبيتهم وفي المشاعر التي يثيرونها بين البشر. وكان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو أثينا، وكانت الخاصية المميزة لأثينا بوصفها إلهة هي رجولتها. لقد كانت الإلهة عذراء في عالم لا يعرف أية خطيئة أولى، ولا يعرف آثام الجسد، ولا عذراوات الإلهة فيستا (Vesta). كذلك فإنها لم تولد حتى من امرأة، لكونها خرجت من رأس زيوس، وكانت بذلك إهانة لكل جنس النساء لم تسامح هيرا عليها زوجها أبدًا؛ لأن هيرا تمثل الأنثى الكاملة التي كان اليونانيون يخشونها قليلاً ولا يحبونها على الإطلاق؛ منذ أيام أوديسيوس إلى أواخر أيام الديانة اليونانية.

ولم تحاول أثينا ولم يحاول الشاعر أن يفسرا أكثر من ذلك سلوك بينيلوبي. ومع ذلك فإن المسئولية بالنسبة لحالة هيلينا كانت تقع بوضوح على عاتق أفروديتي. ففي بداية الإلياذة دخل باريس في مبارزة، وكاد يفقد حياته لولا أن "أفروديتي خطفته بسهولة شديدة؛ لكونها إلهة، وغطته بضباب كثيف، ووضعته في غرفته المعطرة بالبخور. أما هي ذاتها فذهبت لدعوة هيلينا من ميدان القتال، وقالت لها: "تعالي. إن الإسكندر يطلب منك أن تعودي إلى البيت. إنه هناك في غرفته وفي سريره المُطعَّم." وعندما تذمرت هيلينا، خاطبتها أفروديتي الإلهية قائلة: "لا تستثيريني أيتها البائسة حتى لا أهجرك في حالة غضب، ولحظتها سأكرهك قدر ما

---

(٤٠) Odyssey 15.20-30.

أنا الآن أحبك بلا حدود."[٤١] وشعرت هيلينا بالخوف، وذهبت إلى الغرفة المعطرة والسرير المطعم.

لقد سبق أن أشار الشاعر إلى سبب تقاعس هيلينا عن الذهاب إلى الإسكندر في بعض الأبيات السابقة. وكانت إيريس (Iris) رسولة الآلهة قد تحدثت إليها وهي متنكرة في هيئة لاوديكى (Laodice)، أجمل بنات برياموس، "ووضعت في قلبها حنينًا حلوًا لزوجها السابق ولمدينتها ولوالديها."[٤٢] ولم تكن هذه المشكلة التى وُضعت فيها هيلينا شيئًا غير عادى؛ لأن كل عمل بشرى، وكل فكرة تراود نفوس أشخاص هوميروس، وبخاصة إذا ما ابتعدا بشكل أو بآخر عن السياق المعتاد أو المتوقع للأحداث، كانا نتيجة مباشرة لتدخل إلهىّ. فعندما أخبرت يوريكليا (Euryclea) بينيلوبى أن أوديسّيوس عاد وقضى على الخاطبين، ردّت الملكة وهى في حالة تامة من عدم التصديق: "يا أمى الحبيبة، لقد ذهبت الآلهة بعقلك، وهم الذين يستطيعون أن يذهبوا بعقل أصحاب أفضل العقول، وأن يُحولوا بسيط العقل إلى حكيم. لقد ذهبوا بِلُبِّك، وأنت التى كنت من قبل عاقلة رشيدة."[٤٣] ويمكننا أن نذكر العديد من الأمثلة من كل صفحة ومن كل موقف نمر به في القصائد. لقد كان هذا المفهوم عن طبيعة الإنسان مفهومًا بعيد المدى حتى إنه لا توجد لدى هوميروس كلمة تشير إلى عمل ناجم عن اختيار متعمد أو قرار متعمد.

ولا يواجه المؤرخ في أى مكان آخر سوى هذا المكان مشكلة أكثر دقة من هذه المشكلة. هل كان هذا الأمر بأكمله اعتقادًا أدبيًا أو ثورة شعرية؟ فعندما يوصف أحد الأبطال بأنه (dios)، أىْ "إلهىّ"، أو (isotheos)، أى "مساوٍ لإله"، أو (diotrephes)، أىْ "أطعمه زيوس"، ما هو على وجه التحديد المغزى الدقيق

---

(٤١) Iliad 3.380-415.

(٤٢) Iliad 3.139-40.

(٤٣) Odyssey 23.11-14.

الذى نفهمه من هذه التعبيرات؟[*] وما الذى كانت هذه التعبيرات تعنيه بالنسبة للشاعر وبالنسبة لمستمعيه؟ وعندما بدأ مينيلاوس يجر باريس فى التراب، وقطعت أفروديتى شريط خوذة الأخير فى اللحظة التى كاد فيها أن يلفظ أنفاسه، هل كانت هذه تشخيصًا شعريًا خياليًا للصدفة، أو لمصادفة سعيدة قطعة الشريط فى الوقت المناسب، أو أن هوميروس كان يعتقد حرفيًّا فيما كان يتغنى به؟ لقد غضب بوسيدون غضبًا شديدًا على الفاياكيين لأنهم لم ينقذوا أوديسّيوس فقط، بل وأعادوه إلى إيثاكه محملاً بالمقتنيات الثمينة؛ وضاعفت من غضبه حقيقة أن الفاياكيين "يأتون من نسلى."[٤٤] وفى وصف أوديسّيوس لرحلته إلى هاديس (Hades) يوجد جزء طويل لا يخدم غرضًا سوى أنه يستعرض نساءً بشريات يفتخرن بأنهنّ ولدن أطفالاً بشريين من نسل زيوس وبوسيدون. وكانت الصورة المقابلة نادرة إلى حدٍّ كبير. لقد اعترضت كاليبسو (Calypso) قائلة: "أنتم بلا رحمة، أيتها الآلهة، وغيرتكم بلا حدود ولا وصف، لأنكم تحقدون على الإلهات أنهنّ يتزاوجن مع الرجال علانية، عندما تأخذ إحداهنّ رجلاً رفيق فراش لها."[٤٥] لقد كان أخيلّيوس نتاج إحدى هذه العلاقات لكونه ابن بيليوس (Peleus) وثيتيس (Thetis) حورية البحر، وكان أينياس نتاجًا لعلاقة أخرى لكونه ابن أنخيسيس (Anchisis) وأفروديتى.

وليس باستطاعتنا أن نصدق أن مثل هذا الشغف بالنسب الإلهىّ كان محض خيال شعرىّ. إننا نقابل هنا تقنينًا للامتيازات الأرستقراطية، وللحكم بالقوة، وعقيدة لا يشك أحدٌ فى صحتها. ولم يكن كسينوفانيس (Xenophanes) فى القرن السادس قبل الميلاد يقف فى مواجهة طواحين الهواء عندما رفع صوته عاليًا معترضًا بقوة

(*) تبعاً للتقليد المتبع فإننى ترجمت كلمة (dios) بمعنى "المشهور" أو "المعروف" فى المواضع التى وردت فيها فى هذا الكتاب.

(٤٤) Odyssey 13.130.

(٤٥) Odyssey 5.118-20.

على نظرة هوميروس إلى الآلهة. فلو كانت "السرقة والخيانة الزوجية والخداع" كلها أمورًا مقبولة ومعتادة بوصفها سلوكيات إلهية، فإن الأصول الإلهية للبشر، والتدخل الإلهى فى المعركة، ستصبح هى أيضًا أمورًا مقبولة بالقدر ذاته. ومن ناحية أخرى فإن كون عددٍ كبيرٍ من المرات التى تدخلت فيها الآلهة قد حدث فى مناسبات لم تسهم فيها الآلهة بدرجة ملحوظة فى مسيرة الرواية هو أمرٌ يثير مشكلة أخرى. وبدون شكٍ يوجد هنا قدرٌ كبيرٌ من الصيغ الشعرية المتوارثة، التى تتكرر وتكتسب نوعًا من الخلود، بعد أن تداعى قدرٌ كبيرٌ من المعتقدات البدائية وأصبحت مجرد أمثال فى سياق الحديث والحكايات المعتادة. إن الصعوبة الأساسية تكمن فى العثور على الخط الملائم الذى يفصل بين عالم الفكرة البدائية الذى انقضى وبين عالم العقلانية التى كانت ما تزال عندئذٍ فى عالم الغيب.

إن أحد العناصر التى لم تكن بدائية -على وجه التحديد- هو التجسيد الكامل للآلهة فى صورة البشر. لقد خلق الإله فى صورة البشر بمهارة وبنبوغ لا بد أن يوضعا جنبًا إلى جنب مع أعظم إنجازات الإنسان العقلية. لقد تمت إعادة إخراج مجتمع الأبطال على قمة جبل أوليمبوس بكل ما فيه من تعقيدات ومن ظلال. وكان عالم الآلهة عالمًا اجتماعيًا من كافة النواحى، له ماضيه وحاضره وتاريخه، كما يقولون. ولم يكن هناك سفر للتكوين، ولم يكن هناك خلق من العدم. وأتت الآلهة إلى السلطة على جبل أوليمبوس مثلما وصل البشر إليها فى إيثاكه أو إسبرطه أو طروادة، عن طريق الصراع والميراث الأسرىّ. ولدينا وصف للأحداث التى أعقبت الثورة التى تخلصت من العمالقة فى كلمات بوسيدون التى يقول فيها: "لأننا أبناء كرونوس، ثلاثة أخوة أنجبتهم ريا (Rhea)، زيوس وأنا وثالثنا هاديس الذى يحكم العالم السفلىّ. وقد قسمنا كل شىء ثلاثة أقسام، وأخذ كل منا نصيبه من المجد، فكان من حظى البحر الأبيض أقيم فيه للأبد، وكان من حظ هاديس العتمة السوداء، وكان من حظ زيوس السماء الواسعة فى السحاب والهواء. ولكن الأرض وجبل أوليمبوس المرتفع مشاع بين الجميع."[٤٦]

---

(٤٦) Iliad 15.187-93.

كانت هذه الكلمات جزءًا من حديث غاضب جدًّا. وكان بوسيدون قد دخل الحرب في الجانب اليونانيّ، وكان الطرواديون محاصرين وفي مأزق. وأرسل زيوس إيريس إليه طالبًا منه أن ينسحب من القتال. "وبكبرياء شديدة ردّ عليها المعظم الذي يهز الأرض، قائلاً: "كلا! فعلى الرغم من قوته فإنه يتحدث بإهانة عندما يأمرني بقوة بعمل شيء على غير إرادتي، أنا الذي لا أقل عنه مكانة."[٤٧] لقد أطاع بوسيدون الأمر بطبيعة الحال، ولكن هذا الجدل يوضح الخطوط المتوازية بين الآلهة والأبطال بشكل دقيق. فمثل أيّ بطل كان ما يشغل بوسيدون هو مجده وقوته وحده. لقد أطاع سلطان زيوس، ولكنه فعل ذلك لأن الأخ الأكبر كان أكثر قوة. وفي موضع سابق، عندما اقترحت هيرا أولاً أن باستطاعتهم مجتمعين أن يتغلبوا على زيوس وينقذوا الآخيين من المصير الذي ينتظرهم، فإن بوسيدون لم يشارك في الأمر. لقد ردّ قائلاً: "هيرا، أيتها المندفعة في الحديث، ما هذا الكلام الذي تقولينه؟ إنني لا أريد أن يشترك الجميع في حرب مع زيوس بن كرونوس؛ لأنه أعظم بكثير."[٤٨]

لقد كان عالم الآلهة يشتمل على فروق، فيما يتعلق بالقوة، كما هو الحال في عالم البشر. وكان التفاوت أيضًا كبيرًا. ولم تكن هناك فقط فروق كبيرة في نوعية القوى التي يملكها أفراد الآلهة، بل وجدت أيضًا أوجه تميز كبيرة في المجالات التي يمكن فيها ممارسة هذه القوى. وعلى سبيل المثال، فإن أفروديتي كانت لا تقهر في أمور الرغبة الجسدية. ولكنها عندما حاولت المشاركة الفعلية في القتال هاجمها ديوميديس "وهو يدرك أنها كانت إلهة ضعيفة،"[٤٩] وجرحها في يدها. وذهبت أفروديتي وهي تبكي إلى زيوس لا لشيء سوى أن تتلقى لومًا رقيقًا: "إنك لم تمنحي يا بنيتي مهارات الحرب، ولكنك تختصين بالأمور العاطفية المتعلقة بالزواج. أما كافة هذه الأشياء فسوف يهتم بها آريس (Ares) السريع، وأثينا."[٥٠]

---

(٤٧) Iliad 15.184-86.

(٤٨) Iliad 8.209-11.

(٤٩) Iliad 5.331.

(٥٠) Iliad 5.428-30.

وكان زيوس وحده هو الذى يحتل مكانًا لا يوجد ما يناظره على الأرض، وكانت قوته أكبر من أن تُقاوم، بالشكل الذى لا يستطيع أقوى الملوك على الأرض أن يحلم به. كذلك فإن زيوس حافظ على مسافة كبيرة بينه وبين العالم الفانى، وكانت المسافة فريدة. لقد كان وحده من بين الأوليمبيين الذى لم يتدخل بشكل مباشر قولاً أو فعلاً، ولكن عن طريق رسالة شفهية تحملها إيريس أو الأحلام أو الشائعات، أو واحدٍ أو آخر من الآلهة الأخرى، أو من خلال الصورة الأقل وضوحًا المتمثلة فى البشارات، مثل الرعد أو تحليق نسر. وحتى على جبل أوليمبوس كانت هناك مسافة بينه وبين الآلهة الأخرى. فعندما دخل زيوس قصره "وقف الآلهة جميعًا فى الحال من مقاعدهم فى حضور أبيهم."[٥١] ومع ذلك فسوف يكون من الخطأ أن نتخيل زيوس كما لو كان أحد الحكام الشرقيين؛ لأنه -على الرغم من كل هذا التميز- كان يتصف بكثير من صفات الملك (basileus) اليونانىّ، مع أن هوميروس لم يصفه أبدًا بهذا اللقب. لقد كان نموذجًا خاصًا للأول بين أقرانه. إن الأوديسية تبدأ بدعاء من أثينا أن يضع نهاية لمتاعب أوديسّيوس. وفى رده عليها أنكر زيوس فى البداية مسئوليته عما يحدث: "إنه بوسيدون الذى يهزّ الأرض الذى ما يزال غاضبًا بشدة بسبب الكيكلوبس الذى فقأ [أوديسّيوس] عينه." وبعد ذلك اقترح زيوس سبيلاً للخروج من المأزق: "ولكن تعال. دعينا نبحث أمر عودته، حتى يعود إلى دياره، ولسوف يتخلى بوسيدون عن غضبه؛ لأنه لن يستطيع مقاومة كافة الآلهة الخالدين عندما يُضطر وحده إلى الوقوف أمام إرادة الآلهة."[٥٢]

---

(٥١) Iliad 1.533-34.

(٥٢) Odyssey 1.68-79.

هذا الخليط الذى يجمع بين القوة والمشورة يوحى مقدمًا بما أصبحت عليه الأوضاع فى العالم المبكر. فحتى بوسيدون اعترف بقدرة زيوس على أن يفرض طاعته، ومع ذلك فإن الشاعر كان مترددًا فى أن ينزل بالقرار إلى مستوى القوة وحدها. كذلك فإنه لم يستطع دائمًا أن يصل إلى درجة التوافق الكامل فيما يتعلق بالمشهد السماوىّ: إن حالة زيوس حالة متميزة، ولكن كان هناك أيضًا آخرون، مثل المفهومَيْن المرتبطين بالقدر، والذى كان طبقًا لأحدهما من صنع الآلهة، وطبقًا للآخر كان على رقبة الجميع بشرًا وآلهة؛ أومثل فكرة هاديس بوصفه مكانًا محايدًا حيث تعيش أشباح الناس فى فراغ وكسل دائمين، وإن كان محكومًا على القليلين فيه مع ذلك بالعذاب الأبدىّ. إن حالات عدم التوافق تشير فقط إلى ضخامة الجهد المبذول لإعادة تكون العالم البطولىّ على ساحة أخرى، وإلى مدى النجاح الذى حققته المحاولة. ويمكننا أن نجد الأدلة فى كل مجال من مجالات الحياة: فى الثروة والعمل، وفى إعطاء الهدايا والاحتفالات، وفى مجال الشرف والعار.

وكان هناك أيضًا قدر من الفشل المحتوم. لقد كانت صفة الخلود المميزة للآلهة مصدرًا لصعوبة من نوعٍ ما، وربما أنها لم تكن الصعوبة الرئيسية. فلأن الآلهة لا يستطيعون الموت، فإنهم لم يكونوا يستطيعون أن يكونوا أبطالاً حقيقيين. ربما أنهم يفشلون فى الوصول إلى هدف معين، ولكنهم كانوا لا يواجهون أبدًا أية مخاطرة فى المحاولة. ومع ذلك فقد كان من الممكن دائمًا التغاضى عن هذه الهفوات، وجعل الآلهة تتصرف فى أمور أخرى تمامًا كما يتصرف الأبطال. وكان ممكنًا أيضًا أن يهتم الشاعر بالتفاصيل الصغيرة المرتبطة بالخلود: لقد كان الدم رمزًا جسديًّا للفناء، ولذلك كان من الضرورىّ أن تحل محله مادة أخرى تسمى "إيخور" (ikhor). أما ما لم يكن ممكنًا فهو تحديد السلطة بمصطلحات بشرية تمامًا، حتى على أعلى المستويات البطولية. لقد كانت القوة الإلهية فوق مستوى الطبيعة بالمعنى الدقيق. وكانت تفوق القوة البشرية فى نوعيتها وفى سحرها. لقد استطاع

ديوميديس أن يهزم أفروديتى فى مبارزة مباشرة، ولكن هذا حدث لأن الإلهة الضعيفة لم تشأ الاستفادة من القوى فوق الطبيعية التى كانت تتمتع هى ذاتها بها. لقد كانت تستطيع أن تغطيه بغلالة من الضباب الكثيف، وأن تحمله بعيدًا، على سبيل المثال. وفى مواجهة هذه المهارات فإن أخيلّيوس نفسه ما كان ليستطيع الصمود. وبالإضافة إلى ذلك فإن الآلهة وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون سلب الإنسان عقله، أو تعليم الشعراء الغنائيين والعرافين الأشياء التى حدثت وتلك التى ستحدث.

لقد كان تحويل الآلهة إلى صورة البشر خطوة تدل على جسارة تثير الدهشة. لقد كان تصوير الكائنات فوق الطبيعية فى شكل رجال ونساء لهم أعضاء بشرية ومشاعر بشرية وليس فى شكل أرواح غامضة ولا شكل لها، أو فى أشكال حيوانية نصف طائر ونصف حيوان، على سبيل المثال، أمرًا يتطلب أكبر قدر من الجسارة ومن فخر الإنسان ببشريته. وهكذا وبعد أن خلق الإنسان الهوميرىّ الآلهة بهذه الكيفية فإنه وصف نفسه بأنه "شبيه بالآلهة". ولم يخلط هوميروس أبدًا بين "شبيه الآلهة" وبين ما هو "إلهىّ"، ولم يَعْبُر أبدًا الخط الفاصل بين الخلود والفناء. لقد تحدث هيسيودوس عن "جنس الرجال الأبطال شبيهى الآلهة الذين يُعرفون أيضًا باسم "أنصاف الآلهة". ولكن الإلياذة والأوديسية لا تشتملان على أنصاف آلهة. لقد كان الملوك يُكرمون كآلهة، ولكنهم لم يُعبدوا أبدًا. وكان الأبطال رجالاً، وليسوا تماثيل عقائدية أو أشياء للعبادة. وعلى الرغم من أنهم كانوا ينتمون إلى أصول إلهية، فإن الدماء هى التى تجرى فى عروقهم على الرغم من ذلك وليس الـــ: "إيخور" الذى يجرى فى عروق الآلهة. ومن ناحية أخرى لم تكن هناك خطوط محلية أو جغرافية أو قومية فاصلة وذات آثار قوية بين الناس. ولم يحدث فى أمور العبادة، ولا فى أىّ جانب أساسىّ آخر من جوانب حياة البشر، أن صنف الشاعر الأمور وميزها بدون تبصر. لقد كان الأفراد يتفاوتون وكانت الطبقات تتفاوت، من

حيث القيمة والقدرة، ولكن ليس الجماعات، لا بين الآخيين وغيرهم، ولا بين الآخيين أنفسهم. إن هذه السمة العالمية في بشرية هوميروس أمرٌ لا يقل جسارة وتميزًا عن بشرية آلهته.

ولا يمكننا أن نشك أبدًا في أننا نواجه هنا إبداعًا جديدًا وثورة في مجال الدين. إننا لا نعرف من الذي قام بها، سواءً أكان شاعر الإلياذة أو أحد المغنيين المبكرين، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن تحولاً مفاجئًا حدث عندئذٍ وليس مجرد تغيير بطيء وتدريجي في المعتقدات. فلم يحدث أبدًا في تاريخ الديانات المعروفة، شرقية كانت أم غربية، أن ظهر دينٌ جديد بكيفية أخرى غير التحول المفاجئ. إن الأفكار الجديدة يمكن أن تأخذ وقتًا طويلاً في طور التكوين، مثلما أن الأفكار القديمة يمكن أن تتعرض لتغيير مستمر وبطيء، ويمكن بالإضافة إلى ذلك استيراد أفكار أخرى من الخارج. ولكن خطوة التحول الفعلية، المتمثلة في التخلي عن عقيدة قديمة وخلق عقيدة جديدة، كانت دائمًا حادة وسريعة ومفاجئة.

ويمكننا مشاهدة بقايا التحول التي ما تزال واضحة في القصائد الهوميرية. لقد عاشت آلهة الطبيعة القديمة، على سبيل المثال، ولكنها أصبحت في مرتبة أدنى أو تجاهلها الناس. وكان هيليوس (Helios) إله الشمس ضعيفًا جدًّا، حتى إنه عندما قتل رجال أوديسيُّوس الجائعون ماشيته، مرتكبين بذلك إثمًا لا يغتفر، لم يستطع سوى أن يسرع إلى زيوس لكي يطلب منه الثأر منهم لأجله، وكانت سيليني (Selene)، إلهة القمر، قليلة الأهمية للغاية. وما يستلفت الانتباه أكثر من غيره في هذا السياق هو اللا مبالاة تجاه ديميتر (Demeter) إلهة الخصوبة؛ لأنها على عكس هيليوس وسيليني ظلت شخصية كبيرة في الدين اليونانيّ لمدة قرون طويلة بعد هوميروس. وكانت طقوسها تحتفل بتعاقب الفصول، وبلغز النباتات والثمار في دورتها السنوية التي تظهر فيها في وقت وتختفي في آخر. وكانت عبادة ديميتر تؤدَّى خارج الدين الأوليمبيّ الرسميّ؛ لأن الذي وضع أساس هذا الدين لم يمنحها مكانًا فيه، ولم يخصص أيضًا مكانًا لطقوسها الغامضة.

لقد كان هوميروس يعرف كل شيء عن ديميتر التى ورد اسمها ست مرات فى الإلياذة والأوديسية، وهذا هو عين الشيء الذى نريد توضيحه هنا. لقد أدار ظهره إليها وإلى كل ما ترمز إليه. "عظموه كإله بالهدايا" دعوة تتكرر باستمرار عند الحديث عن الملوك، ونقيضها المقابل لها أنه يجب تكريم الآلهة مثل الملوك بالهدايا. ومن الناحية العملية فإن هذا الأمر كان يعنى هدايا الطعام فى الاحتفالات عن طريق الأضحيات المشوية، والهدايا القيمة من خلال إهداء الأسلحة والشمعدانات والمراجل التى تعرض فى المعابد. وكانت المعابد ورجال الدين، بالمناسبة، هم أنفسهم جزءًا من الدين الجديد. لقد كانت قوى الطبيعة تقدس حيث توجد، أما الآلهة الذين نتخيلهم فى صورة البشر فكانوا يعيشون فى منازل -مثل البشر- فى قصور مناسبة. أما الطقوس السرية، التى تعنى حرفيًا طقوس العربدة، فإنها لا تظهر فى أىّ من القصيدتين، كما أن طقوس الدم والأضحيات البشرية وكل شيء آخر يقلل من بشرية الآلهة قد تم التخلى عنه بقوة. وهكذا تم حذف القصة المهمة التى تتحدث عن التضحية بإفيجينيا (Iphigeneia) ابنة أجاممنون، كما أن العديد من الأعمال شديدة الوحشية التى ترجع إلى مرحلة ما قبل تاريخ الآلهة قد تمت روايتها بشكل أكثر لطفًا. ومن الصحيح كذلك أن أخيلّيوس ضحى "بدستة من الأبناء الطرواديين الشجعان، أصحاب البأس، على التل الجنائزىّ المقام لباتروكلوس، ولكن الشاعر وصف هذا العمل البدائىّ السخيف على الفور بما يستحقه: "لقد رسم [أخيلّيوس] هذه الأعمال الشريرة فى قلبه."(٥٣)

لقد كتب جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) فى فقرة مشهورة فى ترجمته الذاتية يقول عن والده: "لقد سمعته مئات المرات يقول إن كل العصور وكل الشعوب صورت آلهتها فى صورة شريرة، فى تصاعد يزداد باستمرار، وأن البشر ظلوا يضيفون صفة تلو أخرى حتى وصلوا على أكمل مفهوم للشر يمكن

(٥٣) Iliad 23.175-76.

للعقل البشرى تخيله، وأسموا هذا الشيء الإله، وجثوا بأقدامهم أمامه." إن هذا الحكم ليس وثيق الصلة بالموضوع، على الأقل بالنسبة للدين اليونانىّ؛ ليس لأن آلهة هوميروس ليست شريرة، بل لأنها كانت بشكل أساسىّ خالية من أية قيمة أخلاقية على الإطلاق. لقد كانت أخلاقيات عالم أوديسّيوس من صنع الإنسان، وكان الإنسان هو الذى حدد ما لها من قيمة. وكان الإنسان يلجأ إلى الآلهة لطلب المساعدة فى أعماله العديدة، ولطلب العطايا التى تستطيع منحه أو منعه إياها؛ ولكنه لم يكن يستطيع أن يلجأ إليها لطلب الهداية الأخلاقية لأنه لم يكن باستطاعتها القيام بهذا الأمر.

وعندما استيقظ أوديسّيوس فى إيثاكه، ظهرت له أثينا متنكرة فى هيئة راعٍ، وحياها أوديسّيوس بواحدة من حيله المميزة، ومؤدًّاها أنه أتى من كريت، وحارب فى طروادة، وقتل ابن إيدومينيوس (Idomeneus)، وهرب إلى الفينيقيين، وغيرها من الأمور. وابتسمت أثينا، وعادت إلى شكلها النسائى، وقالت التعليق التالى: "لا بد وأن يكون ماهرًا ومتقلبًا ذلك الذى يتغلب عليك فى كافة ألوان المكر، حتى لو كان الذى يقابلك إلهًا. إنك رجل قوى ولا تفرغ جعبتك من الحيل، ولا تشبع من المكر، ولن تتوقف عن الخداع والحكايات المنمقة المحببة إليك فى أعماق قلبك، حتى ولو كنت فى بلادك. ولكن تعال، ودعنا من هذه الأمور؛ لأننا الاثنين متمرسان في الحيل، لأنك أفضل البشر جميعًا فى المشورة والحديث، وأنا مشهورة بين كافة الآلهة بالحيلة والمكر."(٥٤)

هذا هو عين ما اعترض عليه طابور الفلاسفة الطويل من كسينوفانيس حتى أفلاطون: لا مبالاة آلهة هوميروس بالأمور الأخلاقية. وقبل أن تنتهى الإلياذة بقليل ذكر أخيلّيوس المبدأ بوضوح: "لأنه توجد جرّتان على عتبة زيوس يعطى من إحداهما عطاياه السيئة ومن أخراهما عطاياه الطيبة. وبالنسبة للذى يعطيه زيوس،

---

(٥٤) Odyssey 13.291-99.

الذى يسره هزيم الرعد، نصيبًا خليطًا، فإنه يعانى أحيانًا الشر وأحيانًا ينعم بالخير؛ ولكن ذلك الذى يعطيه من الجرّة المميتة فإنه يكرهه، ويتعقبه البؤس الشديد على الأرض الطيبة التى يسير عليها دون أن تكرمه الآلهة أو البشر."(٥٥)

وكانت الصدفة وليست الكفاءة هى التى تحدد العطايا التى يتلقاها الإنسان. وحيث إنه لم يكن فى استطاعته أن يؤثر على عملية الاختيار، فإن المرء لم يكن يستطيع أن يخطئ وأن يكفر عن خطيئته. لقد كان يستطيع أن يهين إلهًا ما إهانة شديدة؛ ولكنه كان يفعل ذلك عن طريق الحط من قدره من خلال يمين زور، على سبيل المثال، أو عصيان أمر مباشر لنبوءة، أو التقاعس عن تقديم هدايا الأضحيات. عندئذٍ كان لزامًا على المرء أن يقدم الترضيات، تمامًا كما يقدمها لأىّ رجل آخر أساء إليه. ولكن هذا العمل لم يكن ندمًا، لقد كان إعادة تأسيس للعلاقات الملائمة القائمة على المكانة. وبدون إثم أو خطيئة لا يمكن أن توجد فكرة الضمير ولا الإحساس بالذنب الأخلاقىّ. لقد كانت الشرور التى تحدث عنها أخيلّيوس مجرد حوادث مؤسفة، وليست ما نصت عليه الوصايا العشر.

ولم يكن هناك أيضًا أىّ خوف ناجم عن الرهبة من الآلهة. "لقد كان أمراء هوميروس يمتطون صهوة جواد عالمهم بجسارة، وكانوا يخشون الآلهة فقط كما يخشون سادتهم البشريين."(٥٦) ولم تستخدم أبدًا فى الإلياذة كلمة تشير إلى "خشية الآلهة". كذلك لا حاجة بنا إلى أن نضيف أنه لم توجد أيضًا كلمة بمعنى "حب الآلهة"؛ لأن كلمة "فيلوثيوس" (Philotheos) ظهرت لأول مرة فى كتابات أرسطو. وكان رجال الإلياذة فى سعيهم للحصول على الدعم الأخلاقى يعتمدون -ليس على الآلهة- بل على أقرانهم من البشر، وعلى المؤسسات الاجتماعية والعادات التى

---

(٥٥) Iliad 24.527-33.

(٥٦) E. R. Dodds, The Greeks and the Irrational (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1951), p. 29.

يعيشون طبقًا لها- إلى هذا الحد كانت الثورة الفكرية التى حدثت. فبعد أن وضع الإنسان عن كاهله جثمان القوى الطبيعية غير المفهومة وواسعة النطاق، حافظ على إدراكه أن هناك قوىً فى العالم لا يستطيع أن يتحكم فيها، ولا يستطيع أن يفهم كُنهها، ولكنه قدم مع ذلك وعيًا عظيمًا بذاته، وفخرًا وثقة فى نفسه، فى الإنسان وفى أساليبه فى المجتمع.

ولكن ماذا بشأن الرجال الذين لا يوجد فى حياتهم مبررٌ للفخر وللثقة بالنفس؟ من الواضح والبديهىّ أن الآلهة فى الإلياذة كانت آلهة الأبطال، أو ببساطة شديدة آلهة الأمراء ورؤساء البيوت الكبرى. ماذا عن الآخرين الذين عاشوا فى عصر الحديد عندما: "كان الناس لا يستريحون أبدًا من التعب ومن المشقة نهارًا ومن العناء ليلاً."[٥٧] لقد كان لدى هؤلاء سبب كافٍ للخوف من الآلهة، ولكن هذا السبب لم يجعلهم يخافونها دائمًا، ما دامت الآلهة كانت فى الحقيقة بالكيفية التى يصفها الشاعر لهم. وبالنسبة لهم فإن مسألة اختيار الهدايا لم تكن واردة بقوة، لقد كان هناك دائمًا يقين بأن الهدايا سوف تأتى من الجرة الخطأ. "إن الشرّ والبؤس يطارده على الأرض الطيبة، جائلاً غير مبجل بواسطة الآلهة أو البشر." لقد كان باستطاعة شاعر الإلياذة أن يصرف النظر عن ديميتر باحتقار، ولكنها أعطت لرجال عصر الحديد وعد الحصاد، مثل الإله ديونيسوس (Dionysus)، الذى تجاهله أيضًا هوميروس، وكان يعنى الخمر والمرح ونسيان الأحزان. "وكان أبوللون يتحرك فقط فى أفضل دوائر المجتمع، منذ الأيام التى كان فيها إلهًا حاميًا لهيكتور حتى الأيام التى وضع فيها الأساس للرياضيين الأرستقراطيين. ولكن ديونيسوس كان طوال المراحل التاريخية إلهًا شعبيًا (demotikos)، إلهًا لعامة الناس"[٥٨].

---

(٥٧) Hesiod, Works and Days 176-78.

(٥٨) Dodds, The Greeks and the Irrational, p. 76.

ولم يكن باستطاعة الدين الأوليمبىّ أن يستمر فى الحياة وهو ثابت فى مكانه. لقد تطلبت الثورة الفكرية التى تتضح فى الإلياذة أيضًا ثورة أخرى أخلاقية، وتحول فيها زيوس من ملك للمجتمع البطولىّ إلى مبدأ للعدالة الكونية. وتوجد هنالك بعض عناصر هذا المفهوم فى الأوديسية؛ لأن موضوع الخاطبين يشتمل بشكل ما على حكاية الغرور والجزاء. فعندما كشف أوديسّيوس عن نفسه وأخبر العجوز لائيرتيس عن قتله للخاطبين، قال الأخير: "أيها الأب زيوس، حقًا ما تزال الآلهة موجودة على جبل أوليمبوس المرتفع، لو كان الخاطبان قد لقوا جزاء تجاوزاتهم الشريرة."(٥٩) إن التضاد مع ملحمة الإلياذة يستلفت الانتباه بقوة فى هذا السياق. لقد كان تدمير طروادة -إن دل على شىء- عملاً من أعمال الظلم الإلهىّ. لقد أهان باريس مينيلاوس واستعد كل من الجانبين، الآخيون والطرواديون سواءً بسواء، لكى يضعوا حدًا للصراع على أساس مبارزة فردية بين البطلين. وكان النصر حليف مينيلاوس وكان يجب عندئذٍ إنهاء الصراع، ولكن هيرا وأثينا لم تقنعا سوى بتدمير طروداة وبقتل كل رجالها. وكان اهتمام كل من الإلهتين بطولنيا بشكل محدد، وكان إصرارهما على التكفير الكامل عن العار الذى لحق بهما على يد باريس، عندما قرر أن أفروديتى أكثر جمالاً منهما. وكان هذا الأمر ولا شىء غيره هو الذى تسبب فى تدمير طروادة.

لقد أطاع زيوس طلب هيرا، على الرغم من أنه هو ذاته قال: "من بين كافة المدن تحت الشمس والسماء ذات النجوم، التى يعيش فيها بشر، فإن أكثر المدن مكانة فى قلبى هى مدينة إيليون (Ilion) المقدسة، وأكثر الناس هم برياموس وشعب برياموس، ذوو الرماح رمادية اللون." وردت هيرا بكلمات مشابهة قائلة: "حقيقة إن هناك ثلاث مدن محببة من بين كافة المدن إلى قلبى، أرجوس وإسبرطة وموكيناى ذات الطرق الواسعة. هذه المدن اقض عليها عندما تكرهها؛ لأننى لن

(٥٩) Odyssey 24.351-52.

أقف مدافعة عنها ولن أشكو."[٦٠] ولكي يتم تنفيذ القرار، يجب علينا أن نضيف أن أثينا كلفت بمهمة خداع الطرواديين، بأحط وسائل الخداع؛ بأن جعلتهم يحنثون بالأيمان التي قطعوها على أنفسهم، عندما التقى مينيلاوس وباريس في المبارزة الفردية.

لقد كانت هناك خطوة طويلة بين هذه النظرة إلى الدوافع الإلهية وبين معاقبة الخاطبين، وقد خطا شاعر الأوديسية هذه الخطوة بتردد ودون أن يكملها تمامًا. وكانت دلالاتها واسعة النطاق ومعقدة، ولم ير الشاعر هذه الدلالات بأية كيفية. وعندما فعل ذلك كانت النتيجة مذهلة. فبمجرد أن عادت يوريكليا إلى الصالة الكبرى في القصر، ورأت المذبحة بين الخاطبين، عندئذٍ: كادت تصيح في فرح عندما شاهدت هذا العمل العظيم. ولكن أوديسّيوس كبحها . . . ."اسعدي في قلبك أيتها العجوز، وتحكمي في نفسك ولا تصرخي بصوتٍ عالٍ. إنه أمر حرام أن يفتخر المرء على جثث رجال قتلى. لقد نال قَدَرُ الآلهة من هؤلاء الرجال، ومن أعمالهم أنفسهم الخالية من الرحمة."[٦١] ولم تكن هذه المشاعر غير بطولية فقط؛ لأن الأبطال كانوا بشكل عام يطبقون دعاواهم للمجد على جثث ضحاياهم، بل إنها ظلت أيضًا بشكل عام غير هللينية، كما تقترح كلمات نيتشه (Nitzsche). ويبدو الأمر كما لو أن الشاعر في محاولة منه لفهم النظرة الجديدة إلى الإنسان وإلى قدره رأى شيئًا عميقًا جدًّا، وإن كان ما يزال بعيدًا عن أفق عالمه، وأنه عبر عن هذا الشئ في أبيات قليلة بإيجاز ليعود بعدها مباشرة وسريعًا إلى ما كان بصدده.

من الطريف والشيق أن الأوديسية تضم قدرًا كبيرًا من عناصر المعتقدات القديمة التي استُبعدت بقوة من الإلياذة، فيما يشبه عملية إعادة الإحياء. إن الكتاب الحادي عشر ومشهد هاديس يمتلئ بالأرواح والدماء السوداء والضوضاء المرعبة،

---

(٦٠) Iliad 4.44-45.

(٦١) Odyssey 22.408-13.

مثل كانفاه هيرونيموس بوش (Hieronymus Bosch) أو ماثياس جرونفالد (Matthias Grünewald)، وهى أمور ليست بطولية فى نسيجها. وفى النهاية تُركت المهمة لشاعر عاش خارج نطاق العالم البطولىّ ليأخذ الخطوة الكبيرة التالية. إننا متأكدون من ذلك الأمر فى حالة هيسيودوس، بشكل لا يمكننا التحقق منه مع شاعر الإلياذة؛ لقد كان الأول هو الذى نَظَّم أفراد الآلهة فى نسب منظم، وجعل من العدالة المشكلة الأساسية فى الوجود، سواءٌ أكان الوجود بشريًا أم إلهيًا. ومن هيسيودوس يقودنا خط مستقيم إلى أيسخولوس وغيره من كُتَّاب المسرح العظام. وفى القرون التالية ظهرت المعجزة المتمثلة فى بلاد اليونان. وبعد أن جعل هوميروس من الآلهة بشرًا، بدأ الإنسان يتعرف على ذاته.

شكر وتقدير

إننى أدين للأستاذ الدكتور/ كارل بولاينى (Carl Polanyi) من جامعة كولومبيا (Columbia) للعديد من المناقشات المثيرة عن الدراسة المقارنة للنظم ولاقتراحاته الشيقة والقيمة دائمًا؛ وللأساتذة الدكاترة/ س.م. أرينسبرج (C.M. Arensberg) و: مارتين أوستوولد (Martin Ostwald)، من جامعة كولومبيا، والأستاذ الدكتور/ فريدريش سولمسين (Friedrich Solmsen) من جامعة كورنيل (Cornell)، والدكتور/ هيربيرت ماركوس (Herbert Marcuse) من هارفارد (Harvard)، وكذلك: ن.م. هالبير N.M. Halper)، الذين قرءوا جميعًا مخطوط هذا الكتاب وقدموا آراءً سديدة جدًّا.

إن الترجمات التى لجأت إليها فى إشاراتى إلى هيسيودوس وإلى الأناشيد الهوميرية هى ترجمات: هـ.ج. إيفيلين-وايت (H. G. Evelyn-White)، وهى مأخوذة بتصريح من ناشر مكتبة اللويب الكلاسيكية (Loeb Classical Library)، الصادرة عن مطبعة جامعة هارفارد (Harvard University Press)، كمبريدج (Cambridge)، ماستشوسيتس (Massachusetts)

وإلى باسكال كوفيتشى (Pascal Covici)، من مطبعة الفايكينج (The Viking Press)، أدين بدَيْن خاص من الشكر لاهتمامه الشخصىّ بكتابى، ولكثير من مساعدته وتشجيعه.

م. آى. ف.

إنجلوود (Englewood)، نيوجيرسى (New Jersey). أبريل، ١٩٥٤

مقالة مرجعية

يشكل هوميروس -عامًا بعد عام- موضوع عدد كبيرٍ من المطبوعات. وإن أحدث الأعداد الصادرة من دورية "لانيه فيلولوجيك" (L'Année Philologique) الصادرة في باريس عن دار "الآداب الجميلة" (Les Belles Lettres) ، وهى دليل مرجعيٌ للدراسات اليونانية والرومانية لا يقدر بثمن، يشتمل على قائمة تضم ثلاثة عشر كتابًا وإحدى وستين مقالة عن هوميروس فى عام ١٩٥١ وحده (بالإضافة إلى الطبعات والترجمات أو الفصول الخاصة عن هوميروس فى الكتب ذات الموضوعات المتشعبة). ومن هذه الدراسات، صدرت ثلاث وعشرون باللغة الإنجليزية، وثلاث وعشرون باللغة الألمانية، وإحدى عشرة باللغة الفرنسية، والأعمال الباقية بالدانمركية واليونانية والإيطالية واللاتينية أو الإسبانية.

ويتمثل هدف الصفحات التالية في اقتراح الأماكن التى يستطيع القارئ الذهاب إليها للعثور على مناقشات مطولة أكثر عن النقاط المختلفة التى ناقشها هذا الكتاب وكذلك العثور على تفسيرات مختلفة بديلة. ونتركيز هنا على أحدث المطبوعات، التى يشتمل الكثير منها على قوائم بالمراجع التى سبق صدورها. ومع بعض الاستثناءات التى لا يمكن تجنبها، فإننى ضمنت القائمة الأعمال الصادرة باللغة الإنجليزية، ومن بين هذه الأعمال فإننى اخترت فقط الكتب التى لا تتطلب معرفة باللغة اليونانية ولا تتطلب معرفة عميقة بالتاريخ اليونانىّ أو بالأبحاث الحديثة. ويفسر هذا التحديد الأخير غياب العديد من الدراسات المهمة، مثل دراسة فريدريش سولمسين (Friedrich Solmsen) عن "هيسيودوس

وأيسخولوس" (Hesiod and Aeschylus) الصادرة فى إيثاكه عن مطبعة جامعة كورنيل (Ithaca: Cornell University Press, 1949) عام ١٩٤٩، أو دراسة: هـ.ت. ويد جيرى التى تحمل عنوان "شاعر الإلياذة" H.T. Wade-Gery, The Poet of the Iliad (Cambridge University Press, 1952).

- هوميروس والتاريخ:

تحاول أية دراسة لتاريخ اليونان أن تضع عالم قصائد هوميروس فى إطار يجمع بين العالم الأقدم، المعروف باسم الحضارة الإيجية، وبين العالم التالى له عالم الهللينيين. ولا حاجة بنا إلى أن نشير إلى هذه الأعمال بالاسم، باستثناء أن نلفت الانتباه إلى الفصول المتعلقة بتاريخ اليونان المبكر فى موسوعة "كمبريدج للتاريخ القديم" (The Cambridge Ancient History) المجلد الثالث الصادر عام ١٩٢٥ عن مطبعة جامعة كمبريدج. ويزودنا كتاب: Thomas Day Seymour, Life in the Homeric Age (New York: Macmillan, 1907) بمثال لعمل ضخم يشتمل على سبعمائة صفحة، ويتصف بالقوة فى معالجته لما كان يُعْرَف فى وقت من الأوقات عامةً بأنه "الأشياء القديمة"، الثياب، والحيوانات والأثاث وغيرها من الأمور المشابهة، أكثر من معالجته للنظم. وفى مجمله فإنه ليس بالثقة فى روايته، ويحتاج الآن إلى العديد من التصويبات فى ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة فى غضون نصف القرن الماضى. إن العمل الأقل حجمًا الذى قام به: A.G. Keller, Homeric Society (New York: Longmans Green, 1902 ، على الرغم من أنه قام به باحث متدرب فى مجال النظم، فإنه لا يحاول، مثل سيمور (Seymour)، أن يجعل من هوميروس شاعرًا أرستقراطيًا، مما يجعله بالتالى مُقَيَّدًا بنظريات اجتماعية محدودة عن التطور، وهى نظريات لن تلقى فى وقتنا هذا قبولاً حتى عند عدد قليل من الباحثين.

أما دراسة: M Cary, The Geographic Background of Greek and Roman History (Oxford: Clarendon, 1949) وكذلك دراسة: Sir Fredrick George Kenyon, Books and Readers in Ancient Greece and Rome (2[nd] edition, Oxford: Clarendon, 1951) وأيضًا: H.J. Rose, A Handbook of Greek Mythology (5[th] edition, London: Methuen, 1953) فهى من أفضل المقدمات باللغة الإنجليزية بالنسبة لموضوع كل منها. وفيما يتعلق باستكشاف النظريات العديدة عن طبيعة الأسطورة وعلاقتها بالطقوس، انظر: Clyde Kluckhohn, "Myths and Rituals: A General Theory," in Harvard Theological Review, volume 35 (1942), 45-79.

كذلك فإن دراسة: C.M. Bowra, Heroic Poetry (London: Macmillan, 1952) تُعدُّ أشمل دراسةٍ من نوعها للشعر الملحميِّ بوصفه لونًا من ألوان الشعر، بما تشتمل عليه من أمثلة غنية مأخوذة من كافة أنحاء العالم. ويمكن للقارئ أن يجد مقدمة ممتازة للمشكلة التاريخية فى القصائد الهوميرية ونظم القصائد فى: Rys Carpenter, Folk Tale, Fiction and Saga in the Homreric Epics (University of California Press, 1946) وبخاصة الفصول من الأول حتى الرابع. أما دراسة: Joseph Campbell, The Hero with a Thousand Faces (New York: Pantheon, 1949) فتزودنا بمفهومٍ مختلف تمامًا، ترجع جذوره إلى أسلوب التحليل النفسى للعالم يونج (Jung)، عن البطل فى الأسطورة وفى الحكايات القديمة: "إن رموز الأسطورة . . . هى نتاجات عفوية للنفس، ويحمل كل منها فى داخله دون أى تغيير قوة البذرة التى تشكل مصدرها" (ص ٤). وفى دورية "هيرماثينا" (Hermathena) الصادرة عن كلية ترينيتى (Trinity College) فى دبلن (Dublin) صدرت عدة مقالات كتبها: W.B. Stanford, "Studies in the Characterization of Ulysses," ويبحث فيها صور أوديسيوس المتنوعة

إلى حدٍّ كبيرٍ منذ العصور القديمة حتى وقتنا الحاليّ؛ وقد ظهرت أولى هذه المقالات فى المجلد رقم ٧٣ الصادر فى مايو عام ١٩٤٩م.

أما كتاب: H.L. Lorimer, Homer and the Monuments (London: Macmillan, 1950) فهو دراسة شاملة لكافة الأدلة الأثرية التى تَمُتُّ من قريب أو بعيد للقصائد الهوميرية. إنه كتاب للباحث المتخصص تمامًا؛ وفيما يتعلق بالقراء العاديين فمن المحتمل أنهم سيستفيدون بدرجة أكبر من كتاب: Martin P. Nilsson, Homer and Mycenae (London: Methuen, 1933) . لقد كان نيلسون لوقت طويل من أقوى المدافعين عن فكرة أن القصائد الهوميرية تعكس العالم الموكينىّ فى أساسياتها، وهى الفكرة التى يشاركه فيها: George Thomson, Studies in Ancient Greek Society: The Prehistoric Aegean (New York: International Publishers, 1949) وبالنسبة للأخير فإن التحليل الماركسىّ المحافظ إلى أقصى درجة ("المحافظ" (orthodox) بالمفهوم المحدد المتمثل فى أنه يعتمد على الدراسات الإنسانية لمورجان (Morgan) وإنجلز (Ingles)) يتجلى بأوضح ما يكون، وإن كان يشاركه الرأى فى ذلك بعض الباحثين غير الماركسيين، وهو مفهوم مؤدّاه: أن النظام "الأمومىّ" أو "حكم الأم" (matriarchy) كان هو المبدأ السائد فى النظام الاجتماعىّ فى الألفية الثانية قبل الميلاد، وأن آثار هذا النظام ما تزال واضحة فى بعض الأماكن فى هوميروس. وفيما يتعلق بالآراء حول أعمال شليمان (Schleimann)، فإن دراسة: Stanley Casson, The Discovery of Man (New York: Harper, 1939) على الرغم من قِصَرِها، تفوق بمراحل الحماس الزائد عن الحدّ الواضح فى دراسة: C.W. Ceram, Gods, Graves and Scholars, translated by E.G. Garside (New York: Knopf, 1951) الفصلان الرابع والخامس، أو السيرة التى تتميز بكونها خيالية بشكل واضح فى دراسة: Emil Ludwig, Schliemann of Troy, translated by D.f. Tait (Boston: Little, Brown, 1931).

- النُظُمْ:

إن المحاولات الحديثة لوصف الاقتصاد الهوميرى بشكل منظم نجدها فى دراسات: Gustave Glotz, Ancient Greece at Work, translated by M. R. Dobie (New York: Knopf, 1926), Part 1 الذى يتبع وجهة نظر مختلفة بشأن النقاط الأساسية عن تلك التى نراها فى كتابنا هذا؛ وهناك أيضًا باختصار أكبر: Johannes Hasebrock, Griechische Wirtschfts- und Gesellschaftsgeschicte bis zur Perserzeit (Tübingen: Mohr, 1931 للفصلان الأول والثانى، والذى نتفق معه فى هذا الكتاب إلى حدٍّ كبيرٍ. وبالنسبة للفينقيين وغيرهم من الجماعات التى احتك بها عالم أوديسيوس، وبالنسبة لعلاقاتهم الاقتصادية، انظر: F.M. Heichelheim, Wirtschaftsgeschichte des Altertums, volume 1 (Leiden: Sijthoff, 1938) الفصل الخامس، وهو كتاب سيصدر فى نسخة مزيدة ومنقحة باللغة الإنجليزية بواسطة الناشر ذاته فى عام ١٩٥٤م.

إن أفضل دراسات عن "العمل" على الإطلاق هما المقالاتان اللتان قام بهما: Andre Aymard, "L'Idée de travail dans la Grèce Archaïque," in Journal de psychologie, volume 41 (1948), pp. 29-45 وللباحث ذاته: "Hiérarchie du travail et autarcie individuelle dans la Grèce Archaïque," in Revue d'histoire de la philosophie et d'histoire générale de la civilization, volume 11 (1943), pp. 124-46. إننى لا أعرف أية مناقشة جادة لدور الهدايا فى عالم أوديسيوس، كما أنه يبدو لى أنه لا يوجد وصف دقيق باللغة الإنجليزية لعملية تبادل الهدايا فى المجتمعات البدائية وفى المجتمعات القديمة بشكل عام. إن دراسة: Melville J. Herskovitz, Economic Anthropology (NewYork: Knopf, 1952) الفصل الثامن، ضيقة الأفق للغاية، وبالتالى فإنها غير كاملة، على الرغم من أنها تزودنا بقائمة مراجع كبيرة عن الأشياء المادية فى حقل الدراسات الأنثروبولوجية.

ويجب على المرء أن يعود إلى الدراسة الرائدة التى تمثل للأسف نموذجًا للصعوبة غير المعتادة، والتى قام بها: Marcel Mauss, "Essai sur le don," in Sociologie et anthropologie (Paris: P.U.F., 1950), pp. 143-279 والتى نشرت فى الأصل فى دورية: L'Année sociologique فى عام ١٩٢٣/١٩٢٤م.

ويجد القارئ أفضل مقدمة عن صلة القرابة والمجتمع فى دراسة: Gustave Glotz, The Greek City and Its Institutions, translated by N. Mallinson (New York: Knopf, 1930; Barnes and Noble, 1950), pp. 1-60. وتحت تأثير فوستيل دى كولانج (Faustel De Coulanges) مال جلوتز إلى أن يرى تطورًا فى خط مستقيم من العشيرة إلى الدولة وبالتالى فإنه تجاهل دلالة "البيت" (oikos) الذى يشتمل على أسرة فى بؤرته وإن لم يكن بالضرورة مؤسسة تعتمد على صلة القرابة بالمفهوم الصحيح. ويتضح ذلك من التقسيم الثلاثىّ للدراسة التى قام بها والتى تشتمل على ستمائة صفحة: La Solidarité de la famillle dans le droit criminal en Grèce (Paris: Fontemoing, 1904): 1. The sovereign family, 2. The city against the family, 3. The sovereign city.

لا يوجد هناك سبيل أفضل من أن نبدأ دراسة صورة هوميروس عن الإنسان وآلهته من أن نقرأ الدراستين الصادرتين حديثًا والمكملتين لبعضهما البعض: Bruno Snell, The Discovery of Mind, translated by T. g. Rosenmeyer (Cambridge: Harvard University Press, 1953) وبخاصة الفصول الأول والثانى والثامن، وكذلك: E. R. Dodds, The Greeks and the Irrational (University of California Press, 1951) وبخاصة الفصول من الأول حتى الثالث. وتزودنا دراسة: Erland Ehnmark, The Idea of God in Homer (Uppsala: Almqvist & Wiksell, 1935) بتحليل يتسم بالوضوح والنظام لمفهوم الألوهية (بوصفها أمرًا مختلفًا عن الأساطير المرتبطة بكل إله على حدة). وعن مكانة الديانة الهوميرية فى

للتاريخ العام للدين اليونانىّ، انظر النصف الأول من دراسة: Martin P. Nilsson, A History of Greek Religion, translated by F.J. Fielden (2nd edition, Oxford: Clarendon, 1949) وإن كنا يجب أن نكرر هنا أيضًا أن نيلسون فى كافة كتاباته يعبر عن وجهة نظر تميل بشكل متطرف إلى أصول موكينية. هناك أيضًا الكتاب الذى ما يزال قيمًا، على الرغم من أنه لا يميل إليه الناس الآن نوعًا ما، والذى قام به: Gilbert Murray, The Rise of the Greek Epic (3rd edition, Oxford: Clarendon, 1924) وهو كتاب يشتمل أيضًا على العديد من النقاط المهمة التى يذكرها عن جوانب أخرى من القصائد.

وقد صدرت مؤخرًا دراسة قصيرة قام بها: Hermann Strasburger, "Der soziologische Aspekt der Homerischen Epen," in Gymnasium, volume 60 (1953), pp. 97-114 يقول فيها إن نوعية الأبطال الهوميريين كانت بشكل أساسىٍّ "من المزارعين" فى طبيعتها. وعلى الرغم من أن تصنيفات تحليل اشتراسبيرجر مشكوك فيها، فإن المقالة تشتمل على أفكار مهمة وتتضمن وجهات نظر مهمة. وفى جانب معارض تمامًا نجد دراسة: Werner Jaeger, Paideia: The Ideals of Greek Culture, translated by Gilbert Highet, volume 1 (Oxford: Blackwell, 1929) الفصول من الأول حتى الثالث، حيث يصر على أن القصيدتين -وبخاصة الأوديسية- وُضِعَتَا عن قصد لكي يُستخدما كأدوات تعليمية، كما يقول، بهدف غرس القيم الأرستقراطية (التى يرى جايجر أنها تكتسب صفة العالمية بالنسبة للبشر وأنها ضرورية لاستمرار الحضارة).

وبالنسبة للطالب الذى يهتم اهتمامًا كبيرًا بهوميروس بوصفه مصدرًا للمعلومات التاريخية، فإن القيمة الأدبية للترجمات يجب أن تأخذ المحل الثانى بعد دقتها الحَرْفِيَّة. وكلما مالت الترجمة إلى أن تكون عملاً أدبيًا، قلَّ الاحتمال فى أنها ستحتفظ بالدقة التى يرغبها المؤرخ، فيما يتعلق باستخدامها لما نسميه الكلمات

والتعبيرات الاصطلاحية. وهذه القاعدة تنطبق بشكل عام على كافة الأعمال الشعرية، وبقدر أكبر فى حالة هوميروس لأنه -على الرغم من مرور ما يزيد عن مائة عام من الدراسة المكثفة للغة- فإن الحقيقة ما تزال واضحة: "إن عدم اليقين فى معانى كلمات هوميروس ما يزال أمامه باع طويل،" وبشكل خاص فيما يتعلق بمعانى كلمات عديدة، غالبًا من الصفات، التى يقتصر دورها على تزويد الرواية الضمنية ببعض الألوان والظلال (Manu Leumann, Homerische Wörter, Basel: Reihhardt, 1950, p. 2.).

وفيما سأذكره من أحكام -فى ضوء ما سبق- فإن التركيز على مجرد فائدة الترجمة بالنسبة للدراسة التاريخية، وليس على الاعتبارات الجمالية. إن الاختبار الأساسى، بعيدًا عن المعيار الواضح المتعلق بالدقة العامة، يكمن فى العناية التى تتم بها ترجمة كلمات من قبيل "الثروة" و"الصديق المضياف" و "شبيه الإله"، وغيرها، حتى على حساب مراعاة النغمة أو المخاطرة بالتكرار. ويستبعد هذا الاختبار كافة الترجمات الشعرية، على الرغم من أن ترجمة ريتشموند لاتيمور للإلياذة (Richmond Lattimore, Iliad, (University of Chicago Press, 1951 تأتى قريبة جدًّا لتصبح استثناءً؛ مثلما تُستبعد طبقًا لهذا الاختبار أيضًا الترجمات التى تبحث عن هوميروس معاصرٍ حديث، وبشكل خاص ترجمات القصائد التى أصدرها (E.V. Rieu (Penguin Books وأيضًا ترجمة الأوديسية التى قام بها: T.E. Shaw (New York: Oxford University Press, 1932)

وبشكل عام، فإن أكثر الترجمات أمانة هى ترجمة الإلياذة التى قام بها أندرو لانج (Andrew Lang)، و: والتر ليف (Walter Leaf)، و: إرنست مايرز (Earnest Myers)، وفيما يتعلق بترجمة الأوديسية، ترجمات لانج، و: س.هـ. بوتشر (S.H. Butcher)، وكل من هذه الترجمات متاحة فى طبعات عديدة، وهى ترجمات تدين لها بالكثير كافة الترجمات الإنجليزية النثرية التالية لها. وكما كتب

صامويل بتلر (Samuel Butler) فى مقدمة ترجمته للإلياذة، قائلاً: "إننى أعترف على الفور أن الدكتور/ ليف اقترب بشكل أساسىّ أكثر ما يكون من كلمات هوميروس." إن مكمن الضعف الرئيس فى أعمال ليف وفى أعمال رفقائه يتمثل فى استخدامهم المتكرر لكلمات قديمة،(*) وكذلك ميلهم فى بعض الأحيان إلى إطالة النص قليلاً من أجل التوضيح، دون أن يذكروا بأى شكل أنهم قد أضافوا من عندياتهم شيئًا إلى النص الأصلىّ. وبالنسبة لترجمة مكتبة اللويب الكلاسيكية لنص الإلياذة والأوديسية التى قام بها: أ. ت. موراى (A. T. Murray) فإنهما تتجنبان، إلى حدٍّ كبيرٍ، مظاهر الضعف السابقة؛ ولكنهما تبدوان أقل دقة نوعًا ما. إن الترجمات الأخرى التى تقارب ما ذكرناه من حيث الدقة هى بالنسبة للإلياذة ترجمة: A. H. Chase and W. G. Perry Jr. (Boston: Little, Brown, 1950) التى لا تذكر للأسف أرقام الأبيات ولهذا فإنها ليست بالملائمة لاستخدامها فى الإحالة، وترجمة الأوديسية التى قام بها: ج. هـ. بالمر (George H. Palmer)، المتاحة فى طبعات عديدة خضع بعضها لحذف بعض العبارات الخارجة.

(*) يشير فينلى هنا إلى ثلاث كلمات قديمة استخدموها، وهى: "thrall, maugre, meed of honor" [المترجم].

المؤلف فى سطور:

إم. آى. فينلى M.I. Finley:

يُعدُّ موزيس فينلى من أشهر الباحثين فى حقل التاريخ اليونانىّ والرومانىّ القديم فى النصف الثانى من القرن العشرين. ولد فينلى فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث قضى النصف الأول من حياته، ودرس فى أثناء ذلك فى جامعات كولومبيا (Columbia) ورَتجَرْز (Rutgers). وفى عام ١٩٥٥م انتقل فينلى إلى المملكة المتحدة حيث شغل عددًا من المناصب فى جامعة كمبريدج وغيرها من الجامعات البريطانية. وفى عام ١٩٧٩م حصل على لقب فارس، تكريمًا لجهوده وأبحاثه فى حقل الدراسات الكلاسيكية.

ومن بين أعمال فينلى العديدة -التى شملت كتابًا عن اليونانيين القدامى، وآخر عن الاقتصاد فى العالم القديم- فإن كتاب عالم أوديسيُّوس أحد أشهر تلك المؤلفات التى طبق فيها بعض النظريات الأنثروبولوجية على القصائد الهوميرية، واستطاع من خلالها إلى قراءة جديدة تلك القصائد. لقد الهوميرية، واستطاع من خلالها الوصول إلى قراءة جديدة لتلك القصائد. لقد حاول فينلى فى هذا الكتاب دراسة البيئة الاجتماعية والثقافية التى ظهر فيها أوديسيوس وكذلك تحليل القيم الدينية والأخلاقية التى سادت المجتمع الهوميرىّ، ومهد لذلك بأن أعطانا فكرة عن الشاعر ومستمعيه، وعن المنشدين والأبطال الذين يتغنون بحكاياتهم. وكما يتضح من الأهمية التى يحتلها الكتاب فى وقتنا الحالىّ -على الرغم من مرور وقت طويل على صدوره- فإن هذه المحاولة كانت ناجحة إلى حدٍّ كبير.

المترجمان فى سطور:

١- محمد عبودى إبراهيم:

تخرج فى قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب جامعة القاهرة فى يوليو ١٩٦٠م، وحصل على درجة الليسانس الممتازة، وعين معيدًا بنفس القسم، ثم سافر فى بعثة على نفقة جامعة الإسكندرية إلى انجلترا وحصل على درجة دكتوراه الفلسفة فى الآداب عام ١٩٦٩ من جامعة دِرَمْ (Durham). عُيِّن مدرسًا بجامعة الإسكندرية ثم أستاذًا مساعدًا ثم أستاذًا مساعدًا ثم أستاذًا ولا يزال يعمل بها. أعير للعمل بجامعتى الملك سعود بالرياض وبجامعة الكويت فى الكويت، واشترك فى فحص ومناقشة ما يزيد على ثلاثين رسالة ماجستير ودكتوراه.

كتب ونشر عدة بحوث ومقاولات فى الدوريات وكتب المؤتمرات، واشترك فى لجان ترقية أعضاء هيئة التدريس فى نفس التخصص لدرجتى الأستاذ المساعد والأستاذ، وحكَّم بعض البحوث للدوريات العملية، وشارك فى بعض لجان الجوائز مثل الجوائز التقديرية فى جامعة القاهرة وجائزة أفضل كتاب فى معرض الكويت للكتاب. قدم العديد من الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية فى مصر وفى عدد من الدول العربية والأوربية. اشترك فى ترجمة الكتب فى مجال التخصص.

٢- السيد محمد جاد:

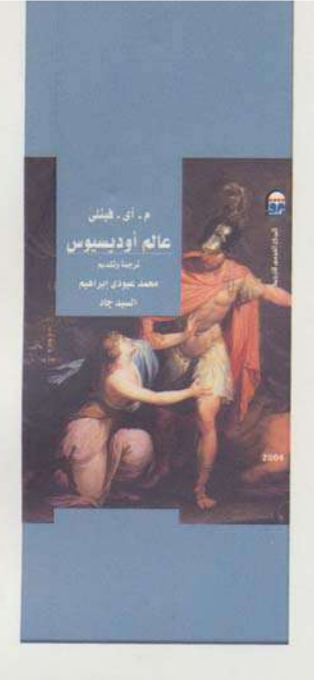
تخرج السيد محمد جاد في قسم الحضارة اليونانية والرومانية بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، عام ١٩٧٨م وحصل على درجة الليسانس الممتازة في الآداب. ثم حصل على الماجستير عام ١٩٨٦م، ثم الدكتوراه عام ١٩٩٣م، في حقل الدراسات اليونانية واللاتينية من كلية الآداب والعلوم في جامعة جونز هوبكنز (Johns Hopkins) بالولايات المتحدة الأمريكية. ويعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا في التاريخ اليونانيّ والرومانيّ، بكلية الآداب – جامعة طنطا.

وقد كتب العديد من الأبحاث والمقاولات في التاريخ اليوناني والرومانيّ وفي تاريخ شبه الجزيرة العربية في العصر الهللينستيّ، وعن الإسكندر الأكبر في كتابات المؤرخين العرب، وشارك في عدد من المؤتمرات العملية المحلية والعالمية. وبالإضافة إلى ذلك قام بترجمة بعض الكتب عن تاريخ اليونان والرومان، وعن تاريخ مصر في العصرين اليونانيّ والرومانيّ وشارك في ترجمة البعض الآخر. ومن الكتب التي انفرد بترجمتها: بين أثينا والإسكندرية للمؤلف آلان صامويل، وكتاب يونانيون في مصر البطلمية للمؤلف نفتالي لويس، وكتاب اليونانيون القدامى للمؤلف موزيس فينلي. أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه في تاريخ وحضارة اليونان والرومان، كما شارك في مناقشة عدد من الرسائل العلمية في نفس التخصص.

التصحيح اللغوى: موسى عجلان

الإشـــراف الفنى: حســـن كـــامل





على الرغم من مرور ما يزيد عن ألفين وخمسمائة عام لا يزال هوميروس يحتفظ بمركز الصدارة بين شعراء اليونان القدامى، ولا تزال قصيدتاه الإلياذة والأوديسا تتصدران قائمة الشعر اليونانى القديم؛ ومع ذلك فإننا لا نعرف الكثير عن هوميروس، ولا عن الزمن الذى عاش فيه و المجتمع الذى تتحدث عنه القصيدتان.

يناقش فينلي هذه الموضوعات فى عالم أوديسيوس، بأسلوب تحليلي وبمقدرة فائقة يشهد بها الباحثون فى مجال الدراسات اليونانية والرومانية، ويصحبنا فينلي فى رحلة مع البطل اليوناني أوديسيوس، نتعرف من خلالها على الشاعر وعلى القصيدة من منظور يجمع بين الدراسة التاريخية، والاجتماعية، والأدبية في آنٍ واحد.